هيفاء بيطار

# إمرأة من هذا العصر

رواية

دار الساقي

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

هيفاء بيطار

# إمرأة من هذا العصر

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي،

فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

© هيفاء بيطار، 2004، 2011
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الورقية الأولى، 2004
الطبعة الإلكترونية، 2011

ISBN-978-614-425-189-8

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 5342/113. الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 961 1 866442، فاكس: 961 1 866443

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

اللوحة مضاءة بنور الحقيقة، وخمس صور شعاعية لثديي الأيمن تلتصق بسطحها. يواجهني الطبيب الجرّاح بالحقيقة بلطفٍ مصطنع ينفّرني، ويشير بعصا معدنية رفيعة إلى الورم الخبيث الواضح في الصدر، وعلى الطاولة أمامه نتيجة الخزعة النسيجية: سرطان في الثدي.

«سرطان في الثدي»؛ عبارة تعني حكم قيمة عليّ، أي نقلي من خانة إلى خانة، ومن ضفة إلى ضفة. لم يخطر لي يوماً أنني يمكن أن أنضمّ إلى المساكين سيئي الحظ الذين أفكر فيهم بشفقة وشيء من التعالي. يا لغروري التافه، تُرى لِمَ أستثني نفسي من احتمال إصابتي بالسرطان. كنتُ هادئة أكثر من اللزوم وأنا أصغي إلى الطبيب يشرح لي طريقة العمل الجراحي والخطوات التالية للعملية من علاج كيميائي وعلاج بالأشعة. نبهني عمق هدوئي إلى مدى توتري المكبوح. أحسستُ بأن الهواء عازل بيننا، وقسمات وجهي تزداد صلابة لدرجة شعرتُ بأني أتحول إلى امرأة من رخام. لو كنتُ من رخام لما أصبتُ بالسرطان.

طوال الوقت، وبينما الطبيب يتكلم، كنتُ أتأمل نبتة نحيلة قصيرة في زاوية العيادة الأنيقة. لم أهتمَّ يوماً بالنباتات التزيينية، لكني في هذا اليوم انتابني فضول عجيب لأعرف نوع النبتة، ومن أي فصيلة هي؟! هل يُعتنى بها؟! هل تُسمَّد تربتها؟! ولِمَ تبدو كئيبة هكذا؟!

تنبهتُ إلى كآبة النبتة وكأني أرى فيها صورة لكآبتي. صمتَ الطبيب بعد أن ختم كلامه برشّة أمل. انتظر أسئلتي. توقَّع أن أسأله شيئاً عن حالتي، وكم ذهش حين سألته عن النبتة، ونوعها، وعمرها، وكم مرّة في الأسبوع تحتاج إلى سقاية؟ تأملني باستغراب، قرأتُ في عينيه عبارة: مسكينة هذه المرأة، تبذر أحاسيسها في تراب النبتة، ولا تدرك حجم كارثتها!!!

استأذنته بأن أشعل سيجارة من علبة السجائر الموضوعة على مكتبه. لم أكن أدخن من قبل، لكني شعرتُ بأن اللحظة تتطلب سيجارة. ربما هذا ما يحدث في الأفلام، وربما هذا ما أحتاج إليه في هذه اللحظة. تخيّلتُ فجأة أن هناك كاميرا تصورني، وأنني بطلة فيلم. تُرى كيف ستتصرف البطلة حين تكتشف إصابتها بالسرطان؟! أحسستُ بأنني بحاجة إلى استعارة مواقف، فأنا لم أعْتَدْ على سلوك امرأة مصابة بسرطان الثدي. قدَّم إلي سيجارة أشعلها بعود ثقاب يعطي لهباً عالياً، ونظر بطرف عينه إلى ساعته معتقداً أنني لم

ألحظ سلوكه. تداعى فجأة كياني. أحسست بانهيار بناء ضخم في أعماقي كما لو مسّه زلزال. كنتُ بأمسّ الحاجة إلى حنان ورفق. تمنيت لحظتها لو أشحذ حنان العالم كله. امتلأت عيناي بالدموع، وارتجف صوتي وأنا أسأل بنبرة تخونني وتتصدّع: هل سأتعذب كثيراً؟!

لم أستطع السيطرة على صوتي. عَبَرَتْ فمي اختلاجاتٌ قصيرة بسبب الخوف. كنتُ مذعورة حتى من صوتي!!

لم أحتج إلى جواب الطبيب المنمَّق بأنه واثق من أن امرأة مثلي ناجحةً في الحياة وذات شخصية قوية، ستجتاز تلك المحنة. كم يُضحكني هذا الكلام الجاهز للمناسبات الكارثية. يمكن استعمال العبارات نفسها لتعزية أمّ مفجوعة بابنها أو زوجها، أو لرجل تهدم أو سُرق بيته. ضحكتُ بسخرية وأنا أردد عبارته الأخيرة: «ستجتازين تلك المحنة!». ما الذي جعلني أكاد أموت من الضحك من كلمة «محنة»؟ خجلتُ لأنني لم أستطع السيطرة على نوبة ضحكي. وددتُ لو أسأله: هل تستعمل هذه الكلمة كثيراً؟ لكن منعني الضحك من الكلام. هرستُ السيجارة في المنفضة بيد مرتجفة. وقفتُ أمامه، وضعتُ يدي اليسرى على ثديي الأيمن المتسرطن، سألته وكأني أسحب عصب الحياة من قلبي: متى ستستأصله؟ وبينما هو يدقق في جداول

مواعيده سمعتُ نحيب ثديي المريض، شعّت منه أمواج من الدفء فأدفأت يدي ثم حرقتها.

يعاتبني الثدي المسكين ويهمس لي: «كيف يطاوعك قلبك على أن تقطعيني وترميني خارجك!!». استفاق بهاؤه وأشعرني بقوامه الصلب ورشاقته. تندّت راحة يدي من دموعه، وبمشقة قال لي: «احتفظي بذاكرتي لو سمحتِ». ضغطته بقوة محاوِلةً تحسسَ الكتلة السرطانية العميقة، سألته بدهشة: هل تملك ذاكرة؟ ضحك بصوت واهن وهو يجيب كأنه يعطيني حكمة هامة: «ذاكرة المرأة في نهدها». قطع صوتُ الطبيب الحوارَ الحميمي بيني وبين نهدي الأيمن، قال:

ـ هل يناسبك بعد غد؟

أسرعتُ أوافق. لم أرغب في أن أستفهم حول أي شيء، كنتُ مبهورة بتلك العبارة: «ذاكرة المرأة نهدها».

خرجت من عيادة الطبيب الأكثر شهرة في المدينة باستئصال أثداء النساء المصابات بسرطان الثدي. صدمني النور في الخارج. بهرني ضوء الشمس كما لو أني قضيتُ سنوات في الظلام. بدا النور نعمة. أخذتُ نَفَساً عميقاً وعيناي ترشحان بدموع الوجد. لم أشعر يوماً بأني أحب الحياة كما أحببتها تلك اللحظة. بدا كل شيء لي جديداً كأني أنظر إلى العالم بعينَي التجربة الأولى. ما أحلى ضجيج الشوارع والموسيقى الملعلعة

من الدكاكين. عجباً، كيف كنتُ أكره هذه المظاهر، وفجأةً تجمّع في قلبي كل فرح العالم، ووصل قلبي المسكين إلى نقطة التمزق لشدة المشاعر التي تصطخب فيه.

«العالم فردوس، العالم فردوس»؛ هذا ما كنتُ أردده لنفسي وأنا أحس بأني فراشة تحتضر. وقبل أن أعبر الشارع، وعند إشارة المرور، تساءلت مترددة: هل عليّ أن أواجه مصيري بدمعة، أم بضحكة؟!!

ما أجمل الشوارع. كم هي حنونة ومفعَمة بالحياة. كُوَمُ القمامة شاهدة على بشرٍ يعيشون ويأكلون بتلذذ، يشترون الخضار والفاكهة واللحوم. تفوح بيوتهم برائحة الطهو. كم أستغرب سبب غضبي ونزقي كلما لمحتُ كوم قمامة؟ ياه، كم أحتاج إلى إعادة فهم العالم؟!!

كنتُ أمشي في شوارع طالما كرهتها لفوضاها وقذارتها وضجيجها، لكنها تسحرني الآن برائحة الحياة التي تغلّفها كوشاح. كم أنا مستسلمة لحرارة الحياة تنسكب ببطء فوق جسدي مخترقةً نهدي الأيمن المتسرطن. فكرّتُ في أنه لن يشعر بدفء الشمس بعد العملية. علا صراخ أليم في داخلي؛ صراخ لا أعرف من أين تفجّر؛ من داخلي أم من الخارج. صراخ يكرر أبداً: الشوارع للأصحاء... الشوارع للأصحاء! انهمرت

دموعي. لم أبذل أي محاولة لكفكفتها. كنتُ أعرف أني عاجزة عن التفكير، وأن كل ما يتمخَّض عن عقلي مجرد هذيان. استعذتُ مواساة الطبيب والأصدقاء بذهني: «يجب أن تتجاوزي المحنة بشجاعة!».

فكرّت في مفهوم الشجاعة: لماذا يجب أن نتحلى بالشجاعة دوماً لمواجهة الأزمات والمشاكل والموت؟ لِمَ لا يُستعمل هذا المفهوم لحُب الحياة... ألا يحتاج الحب إلى شجاعة؟!!

كم من المرات كنتُ فيها جبانة في مواجهة الحياة! أحسستُ بتعب، ليس لأني مشيتُ طويلاً، بل لأن انفعالاتي أنهكتني. جلستُ في مقهى رصيف أرشف القهوة التي لها طعم الحياة. منذ اليوم الذي عرفتُ فيه أني مصابة بسرطان الثدي، غدوتُ مهووسة بالتفكير في الحياة، كما لو أن الحياة نفسها شخص يشاركني حياتي! أول تحوّل لاحظته في أعماقي كان انتباهي إلى فكرة كانت تحكمني من دون أن أعرف، وهي أني خائفة دوماً من تبديد الوقت، ومن خسارته. كنتُ دوماً بحالة ندم وتحسّر لأني أضيّع ساعات طويلة بلا جدوى. وبعد إصابتي بالسرطان، ما عدتُ أجرؤ على أن أحلم بزمن طويل أعيشه، ولم أعد بالتالي أتحسّر على ضياع الوقت. وجدتُ أنه من المفروض بي أن أفهم وضعي والعالم حولي كامرأة عجوز عاشت عمرها وعليها أن

ترتب لموتها كما لو أنها تنتقل من شقة إلى شقة، وليس كمفهوم امرأة تضجّ حيوية وحباً بالحياة، ولمّا تبلغ بعدُ الثالثة والأربعين من عمرها.

ما ألذ طعم القهوة. ليس هناك متعة تفوق تأمل الناس في سعيهم اللامجدي: أطفال بثياب المدرسة؛ فتيات حالمات بالحب؛ شبان يلاحقونهن بنظرات الغواية والإعجاب؛ أم تمسك يد طفلها وهو يقضم كعكة بتلذذ؛ رجال يغصّ بهم مقهى رصيف يلعبون الورق ويدخنون، وتنضح وجوههم بالحيرة وترقُّب أشياء غامضة؛ باعة يانصيب يؤكدون للمارة أنهم سيربحون الجائزة الكبرى؛ شجار ينشب فجأة بين شابين وينفضّ بتدخل المارة؛ باعة جوالون ينادون من دون ملل على بضائعهم؛ رائحة طهو تغزو أنفي فجأة فتحرّك تقلصات معدتي. طلبتُ فنجان قهوة ثانياً مع قطعة حلوى الشوكولا التي أحبها. لم أكن أتأمل مظاهر الحياة حولي، بل كنتُ أبحلق فيها كما لو أنني ألتهمها. كنتُ مثل جمرة أحمل قوة روحية هائلة تهز جسدي، مستعيدةً كلَّ مشاعر الحب واللذة التي عرفتها من خلال ذاكرة نهد مصاب بالسرطان.

أخذ قلبي فجأة يخفق بقوة ربما من تأثير القهوة. دفعتُ الحساب ومشيتُ بخطى نافدة الصبر إلى المنزل كما لو أنني على موعد هام. صعدتُ الدَّرَج لاهثة. رميتُ بثيابي أرضاً ووقفتُ أمام المرآة أنظر وَلَهاً إلى نهدي

الأيمن. ثمة احتقان خفيف في أوردته، تتراءى منه جراخ الزمان. كان يوماً ما، نهداً شامخاً ذا كبرياء. تذكرتُ كم أبهر الرجال الذين أحبوني، وكيف كانوا يتأملونه بنظرات مفعمة بالشهوة والتيقظ...

قال لي أحدهم إن نهدي يشع بنشوة ناعمة تعبر جسده كعطر. احتشدت بيني وبين المرآة ملذات وآلام عشتها، واعتقدتُ أني نسيتها. تأملت بعينين كجمرتين ذلك النهد الذي سيغادرني بعد يومين. تأملته بانبهار كما لو أنني أريد أن أضمّ منظره إلى داخلي إلى الأبد.

حمل الليل معه رائحة النهاية. هل الموت أسود كالليل؟! تحايلتُ على حزني بسماعي عزفَ العود الرائع لسيمون شاهين. تمددتُ على سريري شاعرةً بأنني سأتمدد هكذا في كفني. أشعرتني الموسيقى التي تحمل بذور الخلود والأمل بأن موتي سيمتزج بالمجد، وأن تلك العليقة المشتعلة بحب الحياة لن ينخرها السرطان. أعاد صوت العود أنين روحي اليتيمة وأشعرني بأن هناك روحاً حاضنة دافئة ستضمني إليها. لدموعي طعم اليانسون المُحلّى وبذور الرجاء التي اعتقدتُ أنها ماتت أورقت فجأة. هل غفوتُ أم نقلتني الموسيقى من جاذبية إلى جاذبية أخرى، كما لو أنني إلكترون غادر مجاله.

يا لعظمة هذا الليل. انبثق من قلب ظلامه نور أضاء لي هاوية. كنتُ جالسة على حافة جَرف عميق تلوح فيه أشباح، وأحسست بأن قلبي انخلع من مكانه كأنه سقط في قاع الجرف. ميَزتُ ابني لؤي بين هؤلاء الأشباح. صرختُ بكل طاقتي: لؤي، لؤي... لكن ابني ظل مستغرقاً في شاشة الكومبيوتر. صرختُ بصوت أعلى: لؤي، لؤي، ألا تسمعني؟ لكنَّ صوتي يضيع ويتبدد لأن الأشباح غدت أشخاصاً يتحدثون ويضحكون ويتشاجرون، عرفتهم وقد غمرهم النور فجأة. إنهم الرجال الذين عبروا حياتي كبرق، كخُرق، كنسمة ربيعية؛ الرجال الذين جرحوني وداووني من جراحي. الرجال الذين أعطوني الحب واللذة والألم، وأهدوني الورود الحمراء التي تفوح منها رائحة الخيانة؛ الرجال الذين كانوا لفترة طويلة محور حياتي، ومنحوني نعمة أن أحبهم، ونعمةً أكبر بأن أنساهم. كم كنتُ أحس بنشوة حين ألتقي رجلاً كنتُ على علاقة معه وقد نسيته كلياً، ولولا تلك الصدفة التي أقحَمَتْه في طريقي لما تذكرتُه أبداً.

ما أجمل أن تتجمع كل حوادث حياتي أمامي، فأطلُّ عليها من علِ؛ من حافة جَرف مغمور بالنور. لا ماضي، لا حاضر، لا مستقبل. يغدو كل شيء لقطة زمنية كثيفة. ميَزتُ وجوههم جميعاً. كم هم متشابهون. ما أغباني

حين اعتقدتُ أنهم مختلفون بشدة. الرجل رجل، والمرأة امرأة.

أين غاب النور؟ ظلمة كثيفة ضيّعت النور. انبثقت من أعماق الجَرف يد عملاقة قاسية ذات ذراع لانهائي، عبرت الجرف العميق ودبّت أصابعها الثخينة المشققة كلحاء شجرة حتى وصلت إلى حافة الجرف حيث أجلس، وهرست من دون انتباه مني نهدي الأيمن وعصرته فنزفَ دماً أحمر لمَاعاً... أفقتُ على صرخة رعب انفلتت من حنجرتي. كانت آلة التسجيل تدور وتدور بلا جدوى وقد غاب صوت العود، لتذكّرني بدورانها الأبدي الذي يشبه دوران حياتي الهائمة إلى لامكان. إن الحياة تعني أن كل شيء ممكن دوماً، وكل شيء مبطّن بالعبث.

غادرني الخوف كلياً في اليوم السابق للعملية. فرضتُ على جميع من حولي الصمت من دون أن أتفوه بكلمة. ربما أذعنوا لصمتي. تجاهلتُ النظرات المُحِبة التي تريد دعمي ورفع معنوياتي. قصدتُ مقهىً بحرياً. طلبتُ سمكاً مشوياً، وأكلتُ بشهية وأنا أرنو إلى حركة الزَّبَد التي تشعرني دوماً بالنعاس. أدهشني أني لم أفكر في العملية أبداً. كنتُ منشغلة بفكرة جديدة استحوذت عليّ: ستكون نهايةُ ثديي نهايةَ الرجل في حياتي. قلّبتُ تلك الفكرة من جميع وجوهها فوجدتها منطقية. لن أجرؤ بعد اليوم على أن أحب رجلاً وأنا بثدي واحد. جرحتني تلك الحقيقة وأشعرتني بالاشمئزاز أكثر مما شعرتُ بالخوف. انتابني فضول لأعرف مصير النساء اللاتي يعشن بلا أثداء، ولأخمّن مصير علاقاتهن بالرجال.

غابت الشمس مبكرة ذلك اليوم، أو هكذا أحسستها. نظرتُ إلى ساعتي. فكرّت في أنني سأكون بلا ثدي في مثل هذا الوقت من يوم غد. تحسستُ بحذر ثديي الأيمن كي لا يلحظني أحد. كم كنتُ بحاجة إلى من يواسيني ويخفف إحساسي بالوحدة. وحدها شمسُ

شامخة بلون جرحي كانت ترنو إليّ من ملكوتها البعيد الأزرق لتشحنني بأشعة أملها المتجددة دوماً.

لم أرغب في أن يكون أحد بجانبي إلا ابني لؤي، لكني أخفيت عنه مرضي كي لا أؤثر في دراسته وهو على أبواب امتحان الشهادة الإعدادية. يعرف والده ـ طليقي ـ أني سأجري العملية وقد ساندني في محنتي كرجل متحضر لا يتخلى عن طليقته وأم ابنه في أوقات الشدة. استعدتُ بذاكرتي صورة وجهه المتجهم وهو يتفحّص صُوَر أشعة ثديي. ياه... الزمن يداوي فعلاً كل الجراح. كنتُ أتأمل وجهه بلا ذرّة حب أو حنين وقد غيّب النسيان والمرارة كل المشاعر الملتهبة التي جمعتنا لسنين وتمخضت عن ابننا الوحيد: لؤي. يبدو أن مشاعره مماثلة لمشاعري، فقد تعامل مع مرضي بكل شهامة، إنما بلا ذرّة حب أو حنين إلى حب وُجد بيننا ذات يوم.

أذكر صوته غاضباً:

ـ كيف لم تلحظي تلك الكتلة في ثديك. إنها كبيرة، وبالتأكيد كنتِ تجسينها أثناء الاستحمام؟!!

هززتُ كتفي بلا مبالاة، ورغبتُ أمام جديته وتأثره في أن أعبث وأسأله مازحة مطوّحة برصانة العلاقة بين مطلقين: هل تذكر نهدي؟ هل تذكر كم فتنك وكم داعبته وقبلته؟ هل تذكر كم كنت تتفرج على لؤي

وتُغبطه كيف يرضع منه؟ فأسألك عن سر افتتانك بعملية الإرضاع. كنتَ تقول بأن نهدي يُنعشك على نحو غريب، فأنطوي على نفسي من الضحك وأنا أقول لك بأنني أعرف عشرات الصفات عن النهد إنما لم أسمع أبداً عن نهد منعش، فتهرس ثديي بيديك ونغرق في شهوة حب اعتقدناه خالداً.

رجوتُ طليقي ألا يقول لابني إنني سأجري عملية. يعيش لؤي مع والده، لكنني فوجئت بهاتفي يرن مساءً وصوت ابني يتسلل عبره هادئاً ويجعل قلبي يهوي مع كل كلمة أسمعها:

ـ ماما، أرغب في نزهة معك.

اعتذرتُ له بأنني متعبة وراغبة في النوم. قاومتُ طوفان دموعي، فقد فجّر فيَّ صوته عويلاً حارقاً، وكدتُ للحظة أضعف وأنهار أمامه معترفة بالحقيقة، متمنية لو يضمني بين ذراعيه الفتيتين ويهدهدني كما لو أنني ابنته وهو أبي. لكني أجبرتُ نفسي على التماسك فسألني:

ـ ماما، هل تبكين؟!

قلتُ وأنا أجاهد ليبدو صوتي طبيعياً:

ـ لا، لكني أعتقد أنها بداية رشح.

حلَّ صمتٌ متوتر بيننا خرقه قائلاً:

ـ يريد البابا اصطحابك في نزهة، سنتعشى في مطعم جديد أكله لذيذ، ما رأيك؟

ـ لؤي، هل تعرف كم أحبك؟

باغته كلامي فلم يرد، أعدتُ سؤالي، فقال مرتبكاً:

ـ أجل يا ماما، أعرف.

ـ لؤي، هل تعدني بألا يعيقك شيء عن دراستك مهما يكن.

ـ ما مناسبة هذا الكلام يا أمي؟!

ـ أحتاج إلى أن تؤكد لي وتعدني.

ـ أعدك.

انهمرت دموعي كمطر غزير، واعتذرت للمرة الثانية عن لقائه.

ارتميتُ على سريري بوضع المصلوب: ذراعاي ممدودتان حتى أقصاهما، راسمتان زاوية قائمة مع جسدي. هذا هو الصليب؛ أن تموت عشقاً بشخص ولا تتمكن من احتضانه، بل تظل يداك مصلوبتين... ستفهم ذلك يا لؤي ذات يوم.

تحسستُ ثديي المتسرطن للمرة الأخيرة تحت دوش الماء الفاتر. ودّعته. خزّنتُ ملمسه وقوامه في راحة يدي. عبرت ذهنيَ راحاتُ الرجال الذين داعبوه. بدت كل تلك الصور غريبة بلا حياة. حدّثتُ ثديي المسكين: حينَ كنتَ في صحتك وفتوتك كانوا يهرعون إليك، بينما الآن وأنت مريض لا أحد يقف بجانبك، وتظل وحيداً.

كنتُ أتحسس دموعي وأميزها من تيار الماء الساخن، وأشعر برعشات من خوفٍ أصمّ تهز جسدي. أعرف أني أكبح انفعالاتي لاشعورياً، فأنا أريد أن تمرّ تلك الليلة بسلام. سأبتلع المهدئ الذي وصفه لي الطبيب وأنام. لم يكن خوفي نقياً. فيه شوائب تزعجني لا أعرف ماهيتها. جففتُ جسدي جيداً وتأملتُ الثدي المريض في المرآة، تمنيتُ لو ألتقط له الصورة الأخيرة التي تُظهر ثدييَّ كصديقين لا يخطر ببالهما أن يفترقا، وأن تتقوَّض صداقتهما. ابتلعتُ الدواء متحمسة للنوم. تمددتُ في سريري شاعرةً بالبرد برغم دفء الجو، وعدتُ أفكر في خوفي: إنه طبيعي لكنه مبطّنٌ بشيء يؤرقني. صرختُ فجأة: الذل. كان خوفي مبطّناً بالذل. انقشعت الغشاوة

عن عيني ورأيت بوضوح أعماقي. كانت جمرات الألم تتوهج على سطح روحي، ورأيت برغم يأسي الأسود وحالتي المعنوية الهابطة، قوةً هائلة في أعماق حزني. بي رغبة هائلة للخلاص. أهذا ما يسمونه غريزة الحياة؟ بدأت عضلاتي تسترخي بفعل الأدوية، ودثّرني النعاس بوشاحه الحريري. تثاءبتُ بمتعة مرات متلاحقة. رغبتُ في أن يحتضنني رجل حنون. الحنان أجمل صفة في العالم. لماذا تلتصق تلك الصفة بالأمهات؟ لِمَ لا يترسخ مفهوم حنان الأب؟! أفّ، نسيتُ تسلسل أفكاري، يا لقوة هذا النعاس، لكنّ هناك شعوراً أقوى من هذا النعاس. شعور يدغدغني، أحسه يسري تحت جلدي كنسغٍ أخضر لماع. ياه... كم أحب الحياة. ما أقوى هذا الحب. انتفضتُ من سريري بقوة، كدتُ أفقد توازني وأقع، عدتُ إلى الوقوف أمام المرآة، رأيتُ لهباً شديد السواد يتأجج في عيني، صرخت بكل كياني: لا أريد الموت، لا أريد الموت...

بدت ملامحي مشوهة بالخوف ومشوبة به. تذكرتُ لقطة بعيدة بعيدة. كنتُ طفلة لا أتجاوز السابعة من عمري، اصطحبتني أمي لنزور قريباً لنا ذا مكانة اجتماعية مرموقة وله مؤلفات هامة في علم الاجتماع. استقبلتنا زوجته بوجه ذابل، وأخبرتنا عن معاناته مع المرض. لا أعرف كيف تسللتُ إلى غرفته. تجمدتُ وأنا

أراه يبكي كطفل ويتمخط بكمّ بيجامته قائلاً: لا أريد أن أموت.

استعدتُ تلك اللقطة للرجل المسكين الذي توفي بعد أيام من زيارتنا له. شعرتُ بأن روح الرجل تحوم حولي، فانكمش قلبي خائفاً كأنه يقاوم أن تتلبسه روح الميت. عدتُ إلى سريري شاعرة كم أن جسدي واهن، لكني أحس برغم هذا الوهن بطاقة هائلة كامنة في أعماقي. لكأن تلك المحنة شحذتني من جديد. استسلمتُ للنوم وأنا أشعر بأني اكتشفتُ حقيقة خطيرة: أعظم شيء في الحياة هو أن نحيا.

استقبلتني في غرفة العمليات الوجوه المجاملة والابتسامات التي تنفّرني لشدة ما هي مكرورة. كل كلمة عزاء تقال لي تحفر أخدوداً في روحي. لا أريد سماع أي كلمة. قرّب الطبيب كمامة سوداء من أنفي وطلب إليّ أن أتنشق الغاز بعمق. أذعنتُ لأوامره. كان يسألني أسئلة أعرف أنه يسألها لكل المرضى. أتأمل صوتي وأنا أجيبه، صوتاً لا حياة فيه، كأنه خارج من أعماق غيبوبة. وقبل أن أغرق في نعيم الغيبوبة لمحتُ وجه أحمد يرسم ملامح الدعم والمساندة. أحسستُ بالغثيان. إنه هنا لأني أم ابنه، ولعله يعتقد أنه نبيل إذ يساندني في محنتي. عصف بي غثيان حاد، كم أكره الناس الذين يحركهم في تصرفاتهم شعور الواجب

وليس الحب. كدتُ أبصقها في وجهه: لا أريد رؤيتك، أتفهم، ولا يعني لي شيئاً وجودك هنا في غرفة العمليات، لأنك ميت بالنسبة إلي.

ـ الحمد للّه على سلامتك

ـ الحمد للّه، كل شيء تم على أحسن ما يكون...

ربت الطبيب على خدي مؤكداً لي أنه لم يترك عقدة بلغمية مشبوهة إلا واستأصلها.

كم تزعجني أصواتهم العالية. وددتُ لو أصرخ بهم: أخفضوا أصواتكم، لكن صوتي كان يخونني. لفظتُ كلمة «ماء» بصعوبة. أحس بعطش شديد. مسحت الممرضة شفتيَّ اليابستين بقطنة مبللة بالماء، ووعدتني بأنني سأشرب بعد ثلاث ساعات. فتحتُ عيني. جرحني شعاع النور، عدتُ أغمضهما هاربة من الوجوه المرتشحة بالشفقة علي. وخزة إبرة حارقة في جنبي، سألتُ الممرضة:

ـ ماذا تفعلين؟

ردت بابتسامة:

ـ أحقنك بمسكن كي لا تشعري بأي ألم.

سألتها:

ـ أين هو؟

تلفَّتت حولها متسائلة:

ـ مَن؟

ابتسمتُ:

ـ أقصد ثديي، أين ترمون الأثداء المتسرطنة.

لا أظنها فهمت برطمتي. فكرت في أن الأثداء المقطوعة يجب أن تُدفَن بشكل يليق بها، لأن الثدي رمز الحياة والحنان والجمال. كنتُ بحالة نشوة لذيذة بين الصحو والنوم، خفيفة كريشة، لا أشعر بجسدي كأنني طافية في فراغ. ما ألذ النعاس الذي يقف قبل النوم بدرجة. يمكنني في تلك الحالة الاستثنائية من نعاس التخدير أن أرى حياتي وحياة البشرية كاملة. تغزو مئات الصور ذاكرتي، وتُشعرني بأن الحياة جميلة وساحرة: الحياة العارية كنبتة راسخة في قمة صخرة جرداء عملاقة؛ الحياة التي نحشوها بالفوضى، ونعلّق على صدرها الأوسمة وننتهكها؛ الحياة ساحرة بشكل لا يوصف. ليس أروع من العيش بلا غاية وبلا إنجازات، أملأ فقط صدري هواءً وأتنفس. فكرت في أني سأعيش ما تبقّى من عمري بلا هدف، بل سيكون هدفي اللاهدفَ والكسل. يجب أن يكون الكسل هو فلسفة الحياة. لا أرغب في شيء، لا تغويني صداقة ولا حب ولا عمل، أريد فقط أن أفتح عينيَّ كلَّ صباح على نور الشمس، وأن أغمضهما مساءً على أمل أن أرى النور مجدداً في الصباح. سأهرب من نسيج جسدي المهترئ وأصنع نسيجي الخاص الذي لا يؤثر فيه مرض ولا يأكله

سرطان؛ نسيج الروح لا يُعطَب. كنتُ أهمس لنفسي بصوتٍ كالابتهال: سأنجو، سأنجو، وسأحيك نسيج روحي.

ياه، هل عرفتُ كل هؤلاء البشر! ما هذه القدرة الهذيانية لتلك الصور التي تحفَ بذاكرتي وسريري. هل أنا نائمة؟ لم أكن أعرف إن كنتُ نائمة أم صاحية. امتلأت فجأة الغرفة بصوت أعبده، صوت كله حب يناديني:

ـ ماما.

اختنق صوتي بالدموع وأنا أستسلم لقبلاته البلسمية.رجوته أن يظل ممسكاً بيدي. كنتُ أعرف أنه يفتش عن كلمات يقولها. رجوته ألا يقول شيئاً. لا تحتاج المشاعر الصادقة إلى كلمات، هذا ما فكرتُ فيه وأمواج الحنان تصلني منه. صرتُ صلاة، وصارت روحي بخور صلاتي. هل ستفهم يا لؤي لماذا عشتُ بعيدة عنك؟ ما أحلى قبلاتك يا صغيري، إنها تُدخلني في نفق وردي بلون وجنتيك...

واجهتُ محنة الضماد الأول بقلبٍ حديدي. كم كلَّفتني تلك الصلابة عناءً وكبتاً. نزع الطبيب بمساعدة ممرضتين قطع الشاش عن جذعي. فكّرت في أن مصائب الآخرين عادية وطبيعية وكأنها موجودة كأقدار تُعطي غنىً وبعداً وتنوعاً لحياتنا ـ نحن الأصحاء ـ. الطبيب دائم الكلام عن نجاح الجراحة وعن أناقة الجرح والمرحلة القادمة من العلاج، أي الأشعة والأدوية الكيميائية... يا لعناء الإصغاء. هل أجرؤ وأطلب إليه أن يخرس. عاينتُ بعيني المتسعتين ـ ربما لهول ما رأيت ـ جسدي الجديد، جلداً أحمر متوذماً. تصلبتُ فجأة وقد ولدت سخرية خفيفة في نفسي كما لو أنها تحميني من الألم، لكن الألم ظلَّ يجتذب كياني كله. جمّد الحزن الهائل الذي عشته وأنا أُشيّع ثديي، أحاسيسي. لا أعرف لِمَ شعرتُ بالحاجة إلى عدالة إلهية، عدالة تنقذني من إحساس الهاوية التي أنزلق فيها. حرقني سائل واخز معقم مسح به الطبيب الجلد المتوذم. غطى الجرح بضماد كبير. ابتسم لي الطبيب وهو يربت على خدي قائلاً:

ـ عظيم، عظيم!

لا أعرف ما الذي اعتراني حتى انتفضتُ برغم وجعي، وأبعدتُ بفظاظة يده عن خدي وأنا أصرخ:

ـ كفى، كفى. لستُ بحاجة إلى عطف أحد.

كنتُ أبكي وجسدي يرتجف كقشة في مهب عاصفة. لم أبالِ بنظرة الذعر في عينيه. ما الذي فعله حتى يستحق مني هذه الثورة العنيفة. ماذا عنتْ لي ابتسامته حتى تحولتْ إلى بركان. كنتُ أبكي بحرقة والجرح يشتعل ناراً في صدري.

لا أعرف لماذا ردّدت وأنا في عاصفة ألمي وغضبي: «أريد أن أموت». لم تكن تلك العبارة صادرة عن أعماقي أبداً، بل إنني متأكدة من أنني لا أريد أن أموت. ولكن، ما الذي دفعني إلى ترداد تلك العبارة. ربما تحتفظ ذاكرتي بصور من أفلام عن أشخاص مصابين بالسرطان.

تركني الطبيب وهو يقول متسامحاً:

ـ لا خوف عليك، ستتجاوزين المحنة بسرعة.

لحقته إحدى الممرضتين وبقيت الأخرى بجانبي: شابة جميلة قدّرتُ أنها في العشرين. في عينيها الخضراوين صفاء نادر. لم تواسيني بكلمة ولم تنظر إليّ بشفقة. تكتفي بأن تقف بجانبي بكل تعاطف ورقة. كم أحتاج إلى رقة نقية. أمسكت يدي براحتيها وشع وجهها بابتسامة مرحة. هدأتُ بالتدريج من أمواج الحنان التي

عبرت جسدي من راحتيها. سألتها عن اسمها فقالت: لمياء، ثم أفلتت يدي وقامت تحضر مشطاً وسرحت شعري. سألتني إن كنتُ قد أحضرتُ زجاجة عطر إلى المشفى، فأشرتُ إلى الخزانة. أخرجت زجاجة العطر، رشت على يديها وتنشقت بعمق منتشية وسألتني:

ـ لم أشمَّ بروعة هذا العطر، ما اسمه.

قلت: J'adore

سألت: ماذا تعني

قلت: أعبد.

التمعت عيناها، حزرتُ أنها عاشقة. رشت عنقي بالعطر، أعادت تسوية خصلات شعري بأصابعها هذه المرة، قربت مرآة صغيرة من وجهي وقالت:

ـ انظري، وجهك مورّد.

كيف استطاعت تلك الشابة مواساتي. تأملتُ عنقها الفتي وثدييها الناهدين. ما إن تخيلتُ ثدييها حتى أحسستُ بطعنة في قلبي.

بدا وجهي غريباً في المرآة، لكأن التعب أعطاه صفاءً، وبدت عيناي أوسع مما هما في الواقع. هزتني رعشة غامضة. لماذا يرتعش جسدي هكذا؟ صفعتني ذاكرتي بصورة الجِلد الأحمر المسطح. افتقدت نهدي. تلمست الضماد حيث كان نهدي فتلاحقت رعشات الخوف والخيبة. لم أنتبه إلى أن لمياء غادرتني لدقائق وعادت

تحمل صينية عليها كوبان من عصير الجزر. لم تسألني إن كنتُ أرغب في العصير. مدت لي الكوب وأمسكت كوبها وأخذت ترشف بتلذذ. وجدتني أشرب العصير مستمتعة ليس بطعمه بل بتلك الشراكة بيننا. تبخرّ خوفي وغدونا صديقتين نشرب العصير ونثرثر. طلبتُ منها أن تحكي لي عن نفسها، فعبرت غشاوة حزن وجهها الجميل. أخبرتني أن والدها توفي وهي طفلة صغيرة، وأن أمها امرأة متأففة دوماً تشكو ظلم الحياة. قالت إن حلمها كان أن تدرس في كلية الصحافة، لكنها اضطرت إلى دراسة التمريض كي تساعد أمها في نفقات المعيشة.

ابتسمت:

ـ لكني لم أفقد أحلامي في دراسة الصحافة.

ـ معك حق يا لمياء، المهم ألا نفقد قدرتنا على الحلم.

استأذنتني لمياء قبل أن تزرقني بالدواء... امتلأت نفسي امتناناً لتلك الشابة التي تملك نعمة العطاء العفوية. عقصت شعرها بعفوية وقالت لي:

ـ ستنامين بعد قليل بعمق، فقد زرقتك بدواء مسكن.

هممتُ بأن أقول لها: سعيد من سيتزوجك، لكني تذكرتُ أني في مثل عمرها كنتُ متيَّمة بزوجي، وأن الطعنة جاءتني منه؛ من الرجل الذي كنتُ أقول له: أنتَ إلهي...

وقبل أن تستدير ناديتها ورجوتها أن تَقْبَل زجاجة العطر مني. ترددت وهي تقاوم بريق السعادة في عينيها، لكنها وضعت الزجاجة في جيبها وقبَّلتني بحب وامتنان.

تخيلت أن لمياء سترشّ بكثافة العطر على عنقها، وبين نهديها، وستذهب إلى لقاء حبيب تلحق بها أحلامها.

من أين جاءتني تلك الفكرة: استحضار حياتي أثناء جلسات العلاج الكيميائي، ربما لألهي نفسي عن التفكير في تلك السموم التي أحسها تسري في دمي، أو لرغبتي في تقويم ما عشته. يبدو أن الإنسان يملك غريزة محمومة لتقويم حياته. حاولوا في الجلسات الأولى وضع كيس ممتلئ بالثلج على رأسي طوال الوقت الذي أتلقى فيه الدواء ويتراوح بين عشرين إلى أربعين دقيقة. يعتقد البعض أن وضع الثلج على الرأس يقلل من تساقط الشعر، لكني لم أتقبل الثلج على رأسي أبداً. فليتساقط شعري، ففي كل الأحوال سوف يسقط. كنتُ أستلقي على السرير في قسم الطب النووي مختزنة بذاكرتي صُورَ مرضى، أطفال، شباب، كهول، يأتون إلى هذا المركز للعلاج. وجدتني أنتمي إلى مجتمع جديد: مجتمع المتسرطنين، أو بتعبير ألطف: المعاقين. كنتُ أفكر في هؤلاء بحنان لم أعرف له مثيلاً من قبل، كأني أكتشف من خلالهم ومن خلال مرضي حقيقةَ البشر، ومن أي خامة صُنعنا. تلك القمصان البشرية سريعة الاهتراء، ودوماً يصدمني التناقض الشديد الذي أحسه بين تألق الروح وخلودها وبين عطب الجسد. ثمة خطأ

جسيم أو حلقة مفقودة، وإلا فما معنى أن يشعر الإنسان بعظمة روحه وخلودها وهو يحس باهتراء جسده.

كان موعد الجلسات حوالى الحادية عشرة صباحاً. أستسلم للممرضة التي تعلق إبرة السيروم بوريدي، ثم تبدأ بوضع الأدوية في الكيس وتراقبني من وقت لآخر مقدمة إلي ابتسامة آلية. أسرح بنظري عبر النافذة العريضة من الطابق الخامس حيث لا أرى سوى السماء تنبض بالضوء. كنت أشعر كيف يتهشم وجهي وأنا أتلقى العلاج، أقاوم أحاسيس رهيبة بالاختناق والكآبة والضيق والرغبة بالانتحار. كان شَعري يتساقط خصلاً كثيفة، فاشتريت باروكة وتأقلمت بسهولة مع وضعي الجديد. ربما من حسن حظ الإنسان أنه سريع التأقلم. أكثر ما يؤلمني الأطفال. التقيت بطفل عمره ثلاث سنوات مصاب بسرطان الدم، له وجه كهل، وشعره متساقط. بشرته بلون التراب. بكيت وأنا أراه يمسك قطعة كعك مستديرة يقرّبها من فمه ويُبعدها من دون أن يقضم منها شيئاً. لا يأكل لشدة إنهاكه. كنتُ أراه دوماً برفقة والده. تعرفت بالصغير، اسمه مجيد، ويمنعه إنهاكه من البكاء أيضاً. لا يملك سوى الأنين ليعبّر عن انزعاجه. حفظتُ مواعيده. كنا نلتقي مرتين في الشهر. أحضرت له هدايا. أكثر ما أفرحته طيارة من البلاستيك زرقاء وبيضاء يمكنها أن تحلق على ارتفاع مترين ثم

تسقط أرضاً. كان يصفق بيديه فرحاً وهو يراها تطير ويطلب إعادة تشغيلها عندما تسقط. أتأمله كيف يضحك بوجهه المُنهَك فيتجعد الوجه الطفولي الذي لم يعد يملك شيئاً من نضارة الطفولة. سألت الأب: أين أم الصغير؟ فقال إنها حامل في شهرها الأخير، ومتعبة، ولا يمكنها الحضور، وأنهما يتأملان أن ينعم الله عليهما بصبي معافىً كي يعطوه اسم الصغير: مجيد!

ارتجف قلبي وسألته:

ـ لكنه لم يمت!

هز رأسه آسفاً:

ـ سيموت بعد أشهر قليلة...

فهمتُ لماذا أحب مجيد الطائرة أكثر من كل الألعاب الأخرى، ربما لأن روحه تاقت إلى الطيران والهروب من سجن الجسد، وحين تكرر غيابه عرفت أنه مات.

لم تأتني تلك الفكرة عن عبث: استحضار حياتي، وتحديداً الرجال الذين مروا فيها، لأني لاحظتُ أن كل تجارب حياتي تحفّ بي وأنا أتجه إلى مركز الطب النووي. كل الوجوه التي عرفتها والتي اعتقدتُ أني نسيتها، كل الحوادث التي مرت بي، تزدحم حولي وتجلس بجانبي وأنا أقود سيارتي. لم يصدق المقربون أني أنوي قيادة سيارتي بمفردي إلى مركز الطب النووي، لكني صممتُ، فقد قررتُ مواجهة محنتي بقلب قوي

ومتماسك، ليس لأثبت لنفسي وللآخرين أني قوية، بل من باب الفضول أيضاً، لأعرف، من خلال نفسي، كيف يتصرف الإنسان حين يمر بكارثة؟ يبدو أن الحياة كريمة معي وتريدني أن أجرب كل أنواع التجارب. وقد قررتُ سلفاً ألا أرهق نفسي بحسرات عقيمة وأسف لامُجدٍ، وإنما غايتي في استحضار كل ما عشته إلهاءً نفسي واستعادة طعم ماضٍ صار له مذاق آخر ورؤية جديدة: رؤية امرأة أصيبت بالسرطان إلى حياتها حين كانت معافاة.

# البخـيل

## الجلسة الأولى

لم يخطر ببالي أن تحاصرني ذكرياتي مع البخيل في جلسة علاجي الكيميائي الأولى. هل يُعقل أن يكون الرجلَ الأول الذي سأحكي عنه؟ أيستحق أن أبدأ به لعبة البوح اللطيفة قبل أن أحكي عن أحمد، حبي الأثير والمدمِّر والذي تمخضَّ عن ابني الوحيد: لؤي!

عشت ساعاتٍ عصبيةً من ضِيق وغضب كون ذكرياتي مع البخيل ملحَة ومسيطرة على عقلي وتمنع صوراً أخرى من الظهور، وشعرتُ براحة لمجرد فكرة أني سأتخلص من ذكراه، وسينتهي دوره ويغيب. ربما من الأفضل للإنسان أن يأكل الطعام المُقرف في البداية ويترك الطعام اللذيذ حتى النهاية كي تحتفظ ذاكرته بالطعم الأخير... لكن كم يدهشني إلحاح هذه الذكريات على الانبعاث منذ جلسة علاجي الأولى، فما إن جلستُ خلف المقود وزمجرت سيارتي بلطف استعداداً للانطلاق إلى مركز الطب النووي حتى انقضّ عليَّ

طيفه. رغبتُ في طرده بقوة، صرخت به: لستَ أنتَ من أرغب في تذكره. لكنه كان أقوى مني. شعرت به يتربص على المعقد بجانبي يحدَق فيَّ من دون أن يرف له جفن... نظرتُ إلى طيفه باحتقار كما كنتُ أنظر إليه دوماً.

سألت نفسي بدعابة قاسية: هل يستطيع رجل أن يحرك في أعماق امرأة كل هذا القرف؟!

تذكرتُ كم انتظرتُ بصبرٍ وروية أن يخفَّ قرفي منه وأن تبهت ذكرياتي معه فتصير كأنها تعني امرأة أخرى. أفكر في أن ملامحي لم تعرف أبداً تلك القسوة التي يبعثها عدم الرضى عن النفس، إلا بعد أن عرفته... كنتُ أعيش معه وأنا على حافة الغيظ دوماً، وكانت فترات القطيعة بيننا أطول بكثير من فترة العلاقة المشحونة بالتناقضات.

كنا في عمر واحد، لكنه عازب، والكل يعرف أنه ظل عازباً برغم خطوباته المتعددة التي انتهت كلها بالفشل لسبب وحيد: البخل. كنتُ في الثامنة والثلاثين، امرأة صقلتني الحياة، حين التقيته. كان رجلاً جميلاً وذكياً، ذا ثقافة استعراضية؛ ثقافة لم تمسَّه في العمق بل تَلزمه حين يكون وسط جماعة من الأصحاب والمفكرين. وكنتُ في هذا العمر الحرج أحاول أن أقنع نفسي ـ رغماً عني ـ بأني أنثى عصرية ابنة زماني؛ زمن الثورة

الجنسية وتفجر الأحاسيس. لم يكن لدي من وسيلة أكثر إقناعاً لي في مقاومة رتابة الحياة وسخفها إلا أن أشحن نفسي بالطاقة التحريضية على الحب والمتعة. الشهوة هي القلب النابض بالحياة، وهذا ما يحاول هذا العصر ترسيخه في عقولنا عن طريق غزونا بالفضائيات والإنترنت... وكل الدعايات التي تنطلق من الشهوة وتصب في الشهوة.

كنت أحس بأن تلك الفكرة المسلَّطة علي كالسَّوط لتقنعني بأن غاية الحياة الشهوة، متعارضة مع جوهر كياني، لكني كنتُ أتهم نفسي بالتخلف، وأحثها على التخلص من العُقد القديمة والمفاهيم البالية للأخلاق وللحب كما كنتُ أفهمه مُشبَعاً بالحنان والتفهّم. كان أذانُ المساء حجرَ الأساس في علاقتنا، فما إن يبدأ الأذان حتى ينصرف جاره السمّان المؤمن إلى الصلاة، ويغلق دكانه طوال فترة الصلاة، وعندها يمكنني التسلل إلى مكتب العازب من دون أن تلاحقني نظرات الفضول والاحتقار، ومن دون أن أخشى أن يطلب أحد أصدقاء السمّان شرطة الآداب المهتمة بالأخلاق ويضبطوني في جرم الزنى. كان للسمان أصدقاء كثيرون، يقصدون دكانه الواسع الفخم للتسلية، يشربون الشاي ويثرثرون ويشترون أشياء كثيرة منه، عدا الخمور لأن السمّان كان متديناً ويرفض أن يبيع الخمر.

كنتُ أتسلل إلى مكتبه عند أذان المساء تماماً، وأبقى معه حتى ينفضّ شمل شلة السمان، وكان يحلو لهم أحياناً السهر فأظل محبوسة في الظلام مع البخيل نتلصص من شقوق النافذة متى سيُغلَق دكان السمانة، وما إن أسمع الصرير المعدني الحاد الذي يُنبئني بأن الدكان قد أُغلقت، حتى أسارع إلى الخروج كسجين يُطلق أسره.

كنتُ أذهب إليه بقلب مطفأ وأسارير كامدة وإحساس عميق بالنفور، وكنت أبدَل في أحيان كثيرة رأيي وأنا في طريقي إليه فأعود أدراجي. كانت واجهة ألبسة نسائية أو إكسسوارات تشدني أكثر من رغبتي في لقائه، فأتعلل له بأعذار مختلفة وواهية لأني لم أتمكن من الحضور. لم أكن أبالي بمشاعره لأنه لم يحرك في نفسي أي احترام أو حب، ويستحيل أن يولد حب إلا على خلفية من الاحترام. كنت حين أزوره أدخل مكتبه الغارق في الظلام من الباب الذي يتركه مواربا، وغالباً ما يكون واقفاً وراء الباب جاهزاً للانقضاض علي وإطفاء شهوته، فأبعده عني بنفور وتقزز وأنا أقول له: مهلاً، دعني ألتقطْ أنفاسي. كنتُ أسأله باستهزاء شديد لا يهمني إخفاءه، إن كان وُفق في البحث عن فتاة تناسبه ليتزوج بها. ولطالما كنتُ أشمت في سري من إحساسه بالفشل في علاقاته النسائية لأن كل الفتيات اللاتي

تقرب منهن هربن من بخله وعرفن مطامعه بهن. كان الزواج بالنسبة إليه صيداً أو صفقة... بينما الحب أمر تافه في الزواج، وهذا ما كان يردده دوماً. كنتُ أجلس على الكرسي نفسه وهو يجلس على كرسيه وبيننا طاولة صغيرة عارية تماماً من أي نوع من المشروب أو الطعام، وكثيراً ما كنتُ أجن من الغضب وأنا أرى منفضة ممتلئة بأعقاب السجائر فأسأله باشمئزاز وغضب مكتوم:

ـ أتضيفني أعقاب سجائر؟!

فيرد متجاهلاً غضبي:

ـ كنتُ مشغولاً جداً!

يحاول استمالتي. يمد يده إلى يدي أو نهدي فيضجّ جسدي بالرفض ويتصاعد غضبي وقرفي منه. لم أستوعب في بداية تعارفنا معنى أن يكون الإنسان بخيلاً. كنتُ أفاجئه بهدايا كثيرة أعرف كم تسعده. كنتُ أهديه كاحتمال عاشقين يسعيان إلى خلق واحة سعادة في حياة مجدبة... بينما هو لم يقدم إليّ أي شيء، لا شيء على الإطلاق.

كنتُ أخجل في البداية من التلميح، فأكتفي بتأمله بنظرات النفور كيف يجلس على كرسيه مدلياً يديه على المسندين. أتأمل أصابعه الجميلة الرشيقة بجلدها الأرستقراطي الناعم الذي لا يحمل خدشاً. أحس

بالغثيان من يديه الفارغتين، كرمز لبخله الأسطوري كما أسميه، وأحاول أن أهدّئ نفسي. لكن ما إن أطيل النظر إلى وجهه حتى أشعر بأني أفقد صبري في تحمّل بخله، وكنتُ أتعمّد أن يصله نفوري وأنا أكثف مشاعر احتقاري لبخله أو لشخصه ـ لا فرق ـ، فقد تماهى مع تلك الصفة حتى صارت كالوشم فوق خلاياه كلها، وكنتُ أتعمّد أن أظل صامتة صمتاً أقرب إلى الوقاحة، ثم كنتُ أهزأ من كل محاولاته لاستمالتي، وأبتر أحاديثه صافعة إياه بجملتي الوحيدة:

ـ عجباً! أهكذا يستقبل رجل يدّعي أنه يحب امرأة، حبيبتَه؟!!

ويجيب متأففاً:

أفّ، عدنا إلى السيرة نفسها.

فأقول بإصرار:

ـ شيء غريب حقاً، ألا يخطر لك أن تُحضر زجاجة بيرة، وبعض المازوات، أو قليلاً من الفاكهة...

يقول متمسكناً:

ـ لا تخطر ببالي مثل هذه الأمور.

فأحتد وأقول بما يشبه الصراخ:

ـ وما الذي يخطر ببالك! لا يهمك سوى إطفاء شهوتك من دون أن تخسر شيئاً، ومن دون أن تعطي شيئاً. أنت لا تعرف سوى أن تأخذ، سوى أن تسطو. ألا تستحي

لأنك لم تقدم إلي هدية واحدة مقابل مَطَر الهدايا الذي أغرقتك به.

ينظر إلي باستجداء أن أهدأ. لم يكن كلامي يجرحه أبداً، فالبخيل لا يقيم وزناً لما نسميه الكرامة. يتمحور كل همّه حول ماذا سيأخذ من دون أن يعطي أي شيء لأنه مُعاق في تفكيره وغير قادر على العطاء.

كان يقول لي أحياناً إنه يرغب في أن يقدم إلي هدية، لكنه يخشى أصحاب الدكاكين أن يعرفوا لمن يشتري العطر أو الحلي...

فأبحلق فيه بذهول:

ـ أهذا كلام معقول! ما علاقة أصحاب الدكاكين بمشتريات زبائنهم! ثم ألا يُعقل أن تهدي أختك أو أمك، أو حتى من باب الواجبات الاجتماعية!

يركع بجانبي، ويضع رأسه بوقاحة في حضني، ويقول:

ـ أنا مشتاق إليك وأنت تصرخين بي وتجرحينني. حرام إضاعة الوقت. أرجوك داعبي رأسي فأنا كئيب، كئيب، ومشتاق إليك إلى حد الهذيان.

أضع يدي على رأسه، وجسدي مكهرب بالنفور منه. لماذا أنا قابعة هنا في مكتبه كالخفاش في الظلمة. أشعر في حضرته دوماً بأنني على شفير الجنون من الغضب، وغريبة الأطوار. أحس بأن كل شيء متجمّد

في نفسي، وبأن كياني يضّج بالاحتقار له. وكم تدهشني تلك الحالة فأنا أسمح لنفسي بأن أرمي في وجهه كل ما يخطر في بالي من كلام، وأتعمّد إهانته، وهو لا يبالي، فغايته الوصول إلى جسدي حتى ولو كنتُ أحتقره.

كان وجهه ـ برغم وسامته ـ من تلك الوجوه التي توقظ في النفس النفور، فأهدابه شاحبة قصيرة وأنفه مقوّس بفتحتيه الكبيرتين، وأسنانه منضّدة مُعتنى بها وبشرته نحاسية رقيقة، لكن كل هذا المزيج يولد في نفسي الاشمئزاز. كنتُ مؤمنة بأن العينين مرآة النفس، وها إن عينيه تعكسان داخله الشحيح.

وصلتُ إلى مركز الطب النووي فترجل البخيل معي. رمقته ببرود ونفور فابتسم لي ومشى ورائي وانتظر معي المصعد. أدرتُ له ظهري في المصعد، فامتدت يده إلى خصري. انتفضتُ مبتعدة وصرختُ به:

ـ لا تلمسني.

قال لي بلؤم:

ـ لا أفهم سبب جفائك، فقد بقيتِ تزورينني لمدة عامين.

طعنتني تلك الحقيقة كخنجر في قلبي. معه حق... ما الذي يدفعني إلى الاستمرار في علاقة مع رجل أحتقره... كيف سأحل هذا اللغز؟!

كانت الممرضة بانتظاري تحمل ورقة كبيرة عرضتها عليّ قائلة:

ـ هذا هو البروتوكول.

سألت:

ـ ماذا تعني هذه الكلمة؟

ـ البروتوكول هو خطة العلاج، الأدوية القاتلة للخلايا السرطانية التي تُحَل في السيروم وتزرق ببطء في دمك... لا أخفيك سراً، فلها آثار جانبية مزعجة جداً وضارة، فهي باختصار سموم ومواد قاتلة للخلايا وتُنقص مناعة الجسم، فعليك الانتباه...

رفعتُ يدي أرجوها أن تسكت، وقلت:

ـ أعرف، أعرف، فقد شرح لي الطبيب كل شيء...

رجتني أن أتمدد على السرير. سألتني إن كنتُ قد أحضرت مجلة أو كتاباً أتسلى به حتى تنتهي فترة العلاج، حوالى نصف ساعة.

قلتُ:

ـ لا، لم أجلب معي شيئاً.

سألتني برقة إن كنتُ أرغب بكتاب أو مجلات فستحضر لي من مكتبها.

قلتُ وأنا أشكرها:

ـ لا، لديّ ما يسليني.

سألت وهي تبحلق في يدي الفارغتين:

ـ ماذا جلبتِ معك؟!

ضحكت:

ـ ذكريات.

ابتسمت، اعتقدت أنني أمزح، لكنها ما إن ثقبت وريدي وتحكمت بسرعة التنقيط لكيس السيروم ودثرت جسدي منبهة إياي إلى أنني قد أشعر بقشعريرة برد قاسية، حتى استأنفتُ الفيلم المختزن في ذاكرتي: شاشة العرض السماء الزرقاء الصافية المطلة من النافذة. لم أجد شاشة عرض بمثل ذلك الوضوح والفتنة... وأول ما ارتسم على السماء المتوهجة بالنور، سؤال طالما طاب له تعذيبي: لماذا استمررتُ معه؟ وكياني يضج بالرفض له.

لم يكن من السهل عليّ بلوغ تلك الشفافية التي تجعلني أعرف لماذا أنا مستمرة معه. كنتُ أستعرض واقعي لأعرف سر هذا الاستمرار المحفوف بالتقطع. كنتُ أعيش متربعة في قاع الوحدة، مُرغمة على تأمل نهاية أشياء جميلة لا أتمنى نهايتها ولا أملك شيئاً لبقائها. أتفرّج على تبدل الأخلاق وسطحية العواطف وزيف العلاقات البشرية، فأشعر بأني أتوغل أكثر فأكثر في العزلة واليأس. كنتُ أشعر بتكاثف ظلمات في نفسي وأجرجر حزني اللطيف والمُخلص معي أينما تحركت. كيف باستطاعتي أن أعيش في هذه المدينة

الخانقة وسط بشر محدودين، ما عاد لهم نكهة في هذا الزمن! كنتُ أسمع أحاديث أصدقائي المتزوجين فأشم رائحة حياة ساخنة شهية، كالشهية التي يحركها رغيف ساخن في نفسي. كنتُ أتفرج على حياة المتزوجين الحميمة، ألفة جسد لجسد، وروح لروح، وأنا أشعر بأن كل ما يحيط بي أجوف لا حياة فيه. لا أنسى تلك الجملة البليغة لامرأة أعرفها قالت لي حكمتَها:

ـ لا يجب أن تعيش عازبات أو مطلقات أو أرامل في هذه المدينة. إنها مدينة المتزوجين، يجب أن يرحل هؤلاء المساكين ويهاجروا.

ضحكت يومها لأن خيالي صوّر لي آلاف العوانس والأرامل والمطلقات وقد حزمن حقائبهن استعداداً للرحيل. كنتُ أستمع إلى شكوى صديقاتي المتزوجات من الصداع والنرفزة اللذين تسببهما لهن حبوب منع الحمل، ومن بعض آلام الجماع أثناء الالتهابات النسائية، ومن النزق الحارق إلى ممارسة الجنس حين يسافر الزوج لأسابيع ويترك الزوجة مهجورة.

كنا نقف نحن ـ النساء بلا رجال ـ على الضفة الأخرى لحديث المتزوجين، نشعر بالإعاقات النفسية والجسدية التي يسببها لنا الحرمان ـ رغماً عنا ـ. وكنتُ أفكر في قلة حساسية البشر مع بعضهم. ثُرى، ألا يخطر لأولئك النساء المتنعمات بدفء علاقة جنسية عاطفية أن

يُقدّرن مشاعر النساء الوحيدات! أم تُراهنّ يتقصدّن تلك الأحاديث ويجدن نوعاً من الشماتة والفوقية بالنسبة إلى الأخريات. كنتُ أفكر في أنه حتى لو كنتُ على علاقة سرية مع رجل، فمن المستحيل البوح بتلك العلاقة لأي مخلوق، ولا حتى لأعز صديقة، لأني سأدخل فوراً خانة العاهرات!!!

كان قراري عقلياً بحتاً أن يكون لديَّ عشيق وأنا أخطو بخطوات ثابتة نحو الأربعين. كنتُ أؤمن بحقوق النفس والجسد وأرفض أمراض الكبت تحت ستار الأخلاق! هل تعني الأخلاق الاكتئاب والتعاسة! أنا أفهم العكس. وقد أردتُ أن أختار الرجل الذي سيكون عشيقي كما أختارُ ثيابي. كنتُ أرفض العلاقة مع متزوج فأنا لا أريد مشاكل مع زوجة، ولا أريد أن أعطي امتيازاً لرجل أن تكون لديه زوجة وعشيقة. لكن ما يدهشني الآن أني لم أكن أحس بحاجة إلى رجل، فلم أكن أشكو من أي نقص عاطفي. كنتُ في مرحلة اكتفاء حقيقي بذاتي، حرّة من وجع الغريزة وتسوُّل العاطفة، لكن عقلي كان يجبرني على أن أزّج نفسي في علاقة كما لو أنه يقنعني بوجوب تناول فيتامينات ومعادن ضرورية للجسم. لم أتردد في اختياره، فهو عازب، لطيف، ومُصغٍ بشكل ممتاز، وهذه صفة كنتُ أفتقدها عند البشر.

أذكر الأيام الأولى لعلاقتنا. كنتُ أحس بحيوية ومرح، منتشيةً بسعادة غامرة كمن غيّر أثاث منزله، أو كأني غيّرت تسريحة شعري. التجديد ضروري للحياة، وجسدي الذي لم يُلمَس منذ دهر صار يتناغم مع جسد آخر، يكتشفه ويحاول سبر مفاتيحه. أذكر جيداً أنني ذكرتُ أمامه أنني أكره النباتات التزيينية في البيت، وأني لا أحب النباتات إلا في الطبيعة، وبرغم ذلك أرسل إلي نبتة كبيرة إلى مكتبي الهندسي. لم تُسعدني تلك الهدية المستفزة، لكني فسّرت الأمر بأنه نسي ما قلتُ، بينما عرفتُ في ما بعد عن طريق الصدفة أن هذه النبتة قُدّمت إليه هدية فأرسلها إلي لأنها لم تكلفه شيئاً. كانت هذه هي الهدية الوحيدة التي تلقيتها منه طوال عامين. كان يعرف أني معطاءة بلا حدود وأتفنن في تدليل الأشخاص الذين أحبهم، وكنتُ أعرف أنه يتعمد أن يبدو حديثه معي عفوياً فيذكر أشياء يرغب في الحصول عليها، فأسرع إلى تقديمها إليه كهدايا مباغتة. كنت أؤمن بأن المُحب يجب أن يكون كريماً وذا لياقة عالية...

ذكر أمامي ذات يوم أنه بحاجة إلى معطف كحلي أنيق، وقال إنه فتش أهم محلات الألبسة ولم يجد ضالّته... كان يعرف كيف يرمي الطعم. أخذت أبحث له عن المعطف المطلوب، ووفقت بمعطف رائع باهظ

الثمن. وبرغم إحساسي بالقهر وأنا أدفع ثمنه إلا أني حدستُ أنه سيقدّر تلك اللفتة وربما سيصير كريماً. قدمته إليه فأمطرني بغزله المجاني... وفي اليوم التالي كنا على موعد، فما إن انطلق أذان المساء حتى دخلت مكتبه واثقة من أن ثمة هدايا ومفاجآت بانتظاري. صوّر لي خيالي أن الطاولة بين كرسيينا ستكون ممتلئة بأطايب الطعام، وأنه سيفتح زجاجة نبيذ فاخر على شرف حبيبة تحزر أفكاره وتقدمها إليه هدايا مباغتة.

لكن ما إن دخلتُ مكتبه حتى صدمني غُري المكان. سقط نظري على الطاولة الفارغة تماماً فكتمتُ غيظي وشحذتُ أملي من جديد. أكيد أن المأكولات اللذيذة والهدية في المطبخ، ولم تأتِ لحظة المفاجأة بعد. جلسنا كالعادة، وكان كعادته دائماً يبدو مستعجلاً على التحرر من عبء شهوته، لكني انتظرتُ وأنا أقاوم إحساساً مضنياً بالاختناق. كززتُ على أسناني كي أمنع انفلات شتائم الغيظ من فمي.

امتدت يده إلى نهدي فعصرته، أقصيتها بعصبية ورشقته بنظرة من نار، لم أستطع الصبر فصرخت:

ـ ما هذا القحط... ألا تخجل!! كيف تقبل على نفسك أن أكون كريمة معك وأن تكون على تلك الدرجة المخجلة والمقرفة من البخل.

أحسست بالاختناق وبضجر شديد، كادا يدفعانني إلى سحب إبرة السيروم من وريدي. تفصّد عرق لزج من وجهي وعنقي، ناديت الممرضة فلبّت للحال، قلت لها:

ـ ما هذا الدواء؟! أشعر بأني أموت.

مسحت العرق عند وجهي بقطعة شاش ناعمة، مسحت على شعري وقالت لي:

ـ عليك بالتحمل، فالعلاج الكيميائي مزعج.

نصحتني بأن أسمع موسيقى. قدمت إلي مسجلة صغيرة مع راديو. أخذت أقلب المحطات. كانت إحدى المحطات تناقش موضوعاً عن بكاء الرجال أضحكني... ماذا يعني أن يبكي الرجل؟! النقاش محتدم بين معدّ البرنامج والجمهور الذي يتصل، والأفكار كلها رجعية ومخجلة. يتفق الكل على أن بكاء الرجل ضعف. قلبت إلى محطة أخرى، يذيعون نشرة الأخبار والموضوع المُلحّ نفسه: احتلال العراق؟! وانتابني إحساس مؤكد حين أصغيت إلى نشرة الأخبار، أنه من الطبيعي أن أصاب بسرطان الثدي وسط حياة الذل هذه في العالم العربي. بل أحسست بأنني صرت أنتمي إلى زمني العربي أكثر حين أغدو مُعاقة، متسرطنة. محطة أخرى تحكي عن قصرٍ في أميركا يقصده الأثرياء ويُمنع دخول المصورين والصحافيين إليه؛ قصر بمثابة فندق للأثرياء، الليلة فيه بمئة ألف دولار! وقال المذيع إن أمراء

ومسؤولين وسياسيين عرباً يقصدونه... سميته قصر العهر والعاهرين وأنا أستقر أخيراً على محطة تبث موسيقى هادئة... حاولتُ أن أسترخي، جسدي ينحط ويهترئ، وينز قواه كأنه مثقوب مئة ثقب. أحسست بأني أتهاوى وأسقط من جَرف إلى جرف. ماذا يفعل بي هذا الدواء؟ أيقتلني أم يقتل الخلايا السرطانية؟ ما عدتُ قادرة على التحديق في السماء الزرقاء المتلألئة بالنور. أغمضت عيني بإعياء وقد دثرتني كآبة عارمة، هي نفسها الكآبة التي كنتُ أحسها وأنا ذاهبة إلى لقائه. تذكرتُ جسدي شبهَ عارٍ بالثياب الداخلية من الدانتيل القرمزي. تذكرتُ مشاعري وقتها. كم أحسست بالقرف والغربة عن ذاتي: مَن أنا، ولماذا أسلك هذا السلوك؟!!

هل أنا ضحية التركيز الإعلامي على الجنس كقيمة عليا تثبت لي أني متحررة ولدي شهية للحياة؟ أحس بالكره للرجل الذي سأسلمه جسدي من دون حب حقيقي، لكن لطالما تساءلت إن لم نصادف الحب في حياتنا فهل نعيش في قحط عاطفي!!!

ترجلّت في ذلك اليوم العاصف من شباط من سيارتي عارفةً كم أضلل نفسي، فما بيننا ليس حباً بل نوع من الانجذاب والشهوة نطلق عليهما اسم «حب»، كي نبرّر لنفسينا تلك المضاجعات. اشتريت زجاجة نبيذ وعدتُ إلى سيارتي. توقفتُ عند إشارة المرور فلمحتُ امرأة

تحمل طفلاً صغيراً يطوّق عنقها بذراعيه الصغيرتين ويساعدها على أن تحمل المظلة. كانت جميلة بوجهها النضر المتحرّر تماماً من سطوة الماكياج، وشعرها الطويل المعقوص وثيابها البسيطة. حسدتها، فهي ليست مضطرة إلى العناية بجسدها تلك العناية التي لها غاية إثارة الشهوة. تبدو مستقرة مع زوج يحبها ويتقاسمان الحياة. لجمتْ نفسي عن التفكير بتلك الطريقة المُحبِطة، إذ عليّ أن أشحذ نفسي بكل المشاعر الإيجابية المثيرة لموعدي الغرامي. دخلتُ باب مكتبه الموارب. كان يتحدث بالهاتف ويضحك. أحسستُ بالكره نحوه، فهو قليل التهذيب وعديم الأحاسيس، لم يحاول اختصار المكالمة عند دخولي. انتابتني رغبة عارمة بالفرار، لكني تذكرت ذلك العناء الكبير والجهد الطويل اللذين بذلتهما للعناية بجسدي. ابتسمت بسخرية وأنا أدرك أني سأبقى، ليس حباً بهذا الرجل بل كي لا يضيع جهدي سدىً. أحسستُ بوخز العار وخيالي يصفعني بصور العناية بجسدي وتحضيره لحفلة الغرام الزائف. أومأ إليّ أن أقترب منه، فلم ألبِّ طلبه، بل استمررتُ أحدّق فيه ببرود مبطَّن بالكره. يبدو أنه أحس بانزعاجي فأنهى المكالمة. كنتُ لا أزال بمعطفي المبلل. شعرتُ بالبرد برغم دفء مكتبه. أرسل إلي قبلة على الهواء وهو يغلق السماعة. أحسستُ بأنها لقطة من أحد

الأفلام العربية المشبعة بالنفاق. أغلق الباب واقترب مني فاعتقدتُ أنه سيقبلني ويمسح على وجهي بحنان ويداعب شعري، لكنه عصر نهديّ بقبضتيه القويتين، فانكمشتُ متفاجئة وتقوقعتُ داخل ذاتي نافرة من فجاجة تصرفه الذي أشعرني كم أنه عبدٌ لشهواته وأسيرٌ لها، بل أحسست بأنني لستُ سوى أداة لتحقيق هذه الشهوة.

لم يكن من مجال للهروب من أحاسيسي. رغبتُ في البكاء، وعرفتُ بحدسي أني سأعيش مشاعر خيبة عظيمة وأنا أدرك أن ما أنشده هو الدفء والحنان والشوق والرقة والألفة وليس مجرد متعة ميكانيكية تبدأ بشهوة عنيدة ملحة ثم تُشبَع على فراش الخداع وينسى بعدها كل شريك شريكه. لكن لم يكن من مجال للتراجع. أبعدتُ يده عني وسألته:

ـ أهكذا تستقبلني؟!!

طلبتُ إليه أن يفتح زجاجة النبيذ التي أحضرتها، فشكرني. انتابني إحساس باللاجدوى وأنا أتفرج عليه يصب النبيذ في كأسين. ثمة شرخ هائل بيني وبينه لا يمكن ردمه. شرخ سببه أننا من طبيعتين مختلفتين تماماً. طافت بذهني صورة المرأة التي تحمل طفلها عند إشارة المرور. حسدتها ثانية على حياتها. لم أتخيّل أن ينطبع وجهها بذلك الوضوح في ذهني. طلب إليّ أن

أنزع معطفي. استحسن ثيابي الأنيقة وامتدت يده إلى أعلى فخذي تتحسسه. ازداد نفوري، وتذكرت بقرف أفلاماً إباحية تبدأ بتلك اللقطات. لا يعرف هذا الرجل أن يعامل امرأةً برقة وحنان، ولا احترام أحاسيسي. كل شيء فيه فظ، نهم ومتطلب. يريد أن يمتص العالم من حوله ولا يعطي شيئاً. ساعدني النبيذ على تحسين مزاجي، فصارت الحياة أشبه بدعابة لا تستحق أن تؤخذ بجدية. غابت كل المعاني التي أشتاق إليها، كالحب والحنان والفرح في خدرٍ ضبابي... تراقصت أمامي كأنها مكتوبة فوق سطح الماء. قرأت ما يجول بذهنه: ستكون تلك المرأة أكثر إمتاعاً لي بعد أن تنتشي بالنبيذ. تركته يحدثني عن سهرة البارحة، واحتفظت بابتسامة المجاملة برغم مللي. كان عقلي هائماً في فلك آخر؛ كنتُ أفكر في الرجل وضرورته في حياتي، وكم كنتُ صادقة في تلك اللحظات حين أدركتُ بكل ذرّة من كياني أني لستُ بحاجة إلى علاقة من هذا النوع المُفتعَل والمُخادع. فهمتُ ضلال أفكاري حين اعتقدتُ أن نفسيتي ستُعطَب وسيصيبني اكتئاب إن لم أكن على علاقة مع رجل. تأملته بنظرة حيادية عقلانية مكتشفة أنه لم يلمس أعماقي أبداً، وبأني لا أشتاق إليه في الحقيقة، ولا أحبه، بل أختزله بمجرد قضيب. ساعدني النبيذ على مواجهة حقيقة علاقتي به، فحين أكون بين

ذراعيه أتخيّل دوماً أنني بين ذراعي رجل آخر؛ رجل يجسّد لي الرجولة الحقيقية والحب والتفهم والرقة. كنتُ أتخيل رجالاً آخرين مبهَمين، فأحس بالخجل من هذه الخيالات الهذيانية، وأصف نفسي بأوصاف بشعة، متخيّلةً أنني أملك ميولاً عهرية في أعماقي، لكني صرتُ أحس بالشفقة على نفسي لأن كل خيالاتي كانت محاولة مني للاندماج مع الرجل الذي أُسلّم إليه جسدي بعدم اقتناع وبلا حب.

خيالات جنسية صريحة وعارية تحاول إقناعي ومساعدتي على أنه من حقي أن أمتع نفسي. كنتُ أستعيد وأنا عارية معه مشاهد من أفلام ولقطات من روايات أحسُ بأني صنيعتها لأنها تتحكم بطريقة حياتي بشكل خفي كي تُجبرني على أن أمارس حرية جنسية لستُ مؤمنة بها في العمق.

تبادلنا عناقاً فاتراً في البداية، ثم ارتفع مستوى الهرمونات الجنسية في الدم فصار عناقاً حاراً ولاهثاً. غدت إثارته عظمى حين تحسس ثيابي الداخلية. أبدى إعجابه بها. كان إعجابه بمثابة شكر لي. كنتُ أتفرج على إثارته وشهوته فتبدوان لي ككائن مُعافى متجسد بوضوح أمامي، أما شهوتي فكانت شبحية ضبابية أشك في وجودها أصلاً، إذ إنها أقرب إلى الإيحاء والوهم. كنتُ لا أستطيع وهبه جسدي من دون الاستعانة

بخيالي، فكنتُ أتخيّل أنني مشتهاة من قبل رجال كثيرين يعجبونني، وكنتُ أثير مخيّلتي لتستقدم صوَر الرجال الأكثر رصانة الذين أعرفهم، فكانت تلك المفارقات تلهب خيالي وتسهّل علي المهمة: الاندماج مع الآخر. كان خيالي بمثابة تعويض لي عن مشاعر الدفء والحب والوصال التي أفتقدها، ولم تكن تخفى عني مشاعر الكره والنفور التي أحسها نحوه ونحن في قمة وصالنا. كنتُ أحتقره وهو يتباهى بذكورته كأنه يمنّني بأنني وُفقت بذكر فَحل كونه يتمتع بقدرة جنسية عالية تُعفيه من جهد الحنان وكرم المشاعر اللذين يفوقان الشهوة، أكثر من حاجتي الماسة إلى تلك الآلية الميكانيكية الميتة للجماع. ولاحظتُ كيف أن الجانب القضيبي عند هذا الرجل هو الطاغي، وكيف يغيّب بغبائه وغروره الاستعراضي السخيف الجوانبَ الإنسانية والوجدانية والقدرة على الحنان والانسجام بين الجنسين.

كان يزداد نفوري منه بعد انتهاء «حفلة الجنس»، كما يحلو لي أن أسميها عندما أسخر من علاقتنا. كنتُ في البداية أُدهش لشعور الجوع الذي ينتابه بعد انتهائه من ممارسة الجنس، فكان يُسرع يأكل بشهية وجوع فأقارن بين التهامه للطعام والتهامه لجسدي، ويبدو الأمران

متطابقين، كلاهما استهلاك، وكلتا الشهيتين تدميرية، استهلاكية.

لاحظتُ أن نجاحاتي المهنية تثيره وتؤجج شهوته. كأن لسان حاله يقول: تلك المرأة ذات الشخصية القوية والناجحة مهنياً والمتألقة اجتماعياً، أستطيع أن أضاجعها وأكون سيدها!!

لم تكن مشاعري أوهاماً، فقد اكتشفت أن نجاحي المهني يزيد شهوته نحوي. لم أكن أعرف سر تلك الحقيقة. أذكر ذلك اليوم حين حصلتُ على جائزة أفضل تصميم للمطار. تلقيتُ اتصاله المهتاج ورغبته الملّحة في لقائي. اعتذرتُ إليه متحججةً بأنني مرتبطة بمواعيد هامة، لكنه أصرّ على أن يراني ولو لدقائق. اعتقدتُ لوهلة أنه سيفاجئني بهدية لفوزي بجائزة بالغة الأهمية، ووافقت لإلحاحه على أن أمر به لفترة وجيزة. كانت نقابة المهندسين قد حددت موعداً لتكريمي بسبب حصولي على الجائزة، وتساءلت في طريقي إليه عن سبب إلحاحه الشديد على رؤيتي. لأول مرة يرق قلبي وأتخيّل أنه يحبني حقاً وسعيد لأجلي، وتخيلت مكتبه مليئاً بالورود وحلوى اللوز التي أحبها، وأنني سأجد زجاجة شمبانيا يفتحها على شرفي واحتفالاً بنجاحي، وتوهمت أنه سوف يقدّم إلي بالتأكيد هدية قيّمة لأني فزت بجائزة مهمة للغاية. دخلتُ من الباب

الموارب كالعادة. المكتب معتم، وزاد من إحساسي بعتمته الشمس المضيئة في الخارج، وقبل أن أبحث عنه في الظلمة وجدت نفسي محتواة بقوة بين ذراعيه. أطبقت شفتاه على فمي بقبلة عنيفة عدوانية، وتحسست يداه جسدي بخشونة. حاولت بإلحاح التملص منه، لكن قوته باغتتني. كان يلهث بشهوة هائلة وهو يقول:

ـ لم أشعر بأني أرغب فيك كما أنا اليوم.

كانت قوته وشهوته طاغيتين لدرجة فكرتُ في أنه من العبث مقاومته. لِمَ هو مستثار حتى الجنون هكذا؟! يلهث ويعضّ ويضغط ويتفوه بكلمات ملتهبة. أحسستُ وهو يخترقني بأنه يتخيل أنه يطعنني بسكين. خاب أملي فلم يفاجئني بشيء. تفوح رائحة بخله في مكتبه كالعادة، وحين أسرعتُ إلى الحمام لأغسل جسدي من سخامه، هالني وجهي المشوه بالقرف والانتهاك. سرّحت شعري أمام مرآته، تفرجت على عدة الحلاقة والعطر الذي أهديته إياه. تُرى، لِمَ أصر إلى درجة الاستجداء على أن أزوره. أحسستُ بأنه اغتصبني فعلاً، فقد أجبرني على فعل لا أرغب فيه، وقام به بالقوة رغماً عني. أكيد أنه يشعر بنشوة كونه كسرني وهزمني بطريقة ما. كنتُ مدمَّرة الروح. وقررتُ وأنا أقود سيارتي أن أقطع صلتي به تماماً. فهمت أن للجنس فعلاً

تدميرياً أيضاً. لعله يحس بالغيرة من نجاحي فيعتقد أنه يهزمني حين يقيم علاقة جنسية معي... صرتُ أحس كيف صار جسدي ينكمش إلى الداخل كلما تذكرته. كان عليّ أن أواجه حجم خداعي لنفسي، فهذه العلاقة لا تقيني من أمراض الكبت والحرمان، بل تورطني بمشاعر سلبية من عدم الرضى واحتقار الذات وإقحام نفسي في علاقة لا تعطيني إحساس الأمان. كنتُ أحتاج إلى لحظة الانقشاع التي أحسستها حتى أفلتَ منه وأمتلك الجرأة على مواجهة الحقيقة. فلماذا أضلل نفسي باعتقادي أني أنثى عصرية ومتحررة وغير معقّدة جنسياً، إنما أنا في الحقيقة أبحث عن عزاء وصداقة روح لروح وقلب لقلب قبل أن أبحث عن متعة جسدية. يجب أن أتعلم الإصغاء إلى قلبي لأن القلب يدرك الجوهر أكثر من العقل. كانت حماستي لإقامة علاقة مع أي رجل حماسة يائسة، بل كنتُ أجبر نفسي على حرق حيائي الفطري. أوقفتُ سيارتي قرب البحر غير مبالية بتأخري عن مواعيدي، كأني أكتشف نفسي من جديد، وراحت كلمات رقيقة تتسلل إلي من نسيج روحي الممزق؛ كلمات مواسية صادقة. أدركتُ أن جوهر مشكلتي هو قلقي وخشيتي أن تنفلتَ مني الحياة، وأن كل ما أقحم نفسي فيه، وخاصة علاقتي بالرجل، هو بسبب خوفي من التحسّر على طاقة الشباب الضائعة.

أخشى دوماً ضياع الوقت وضياع الشباب وضياع العمر، وكنتُ أخشى في لحظات ضياع قدرتي على المحاكمة. كان هدير الموج الناعم يشبه الصوت النحيل للندم الذي أخذ يكبر ويكبر مغطياً كياني كله.

تواقتت آخر نقطة من السيروم اخترقت وريدي مع تعتيم تام لذكرياتي عن البخيل. كنت مهدودة القوى من الذكريات والدواء. جلست في السرير ألملم ذاتي المبعثرة في المكان، وتركت الحرية لدموعي بالانهمار. لا يمكنني وصف تأثير ذاك الدواء الرهيب. طمأنتني الممرضة إلى أن الجلسة الأولى أصعب الجلسات، وها هي قد مرّت بسلام، وبعدها أعتاد وسوف أتعافى تماماً عما قريب... أعدت كلماتها في سرّي، ففهمتُ لماذا داهمتني ذكرى البخيل أولاً، ربما لأنه الأكثر قرفاً ومقتاً في ذهني...

إنه كالجلسة الأولى للدواء الأكثر صعوبة ونفوراً... استدرت عند الباب الخارجي لأنظر مواجهة إلى اللافتة العريضة الضخمة وقد كُتب عليها: «مركز الطب النووي». كنتُ منذ سنوات بعيدة أمرُّ قرب تلك اللافتة من دون أن ألحظها. كنتُ شابة متوهجة بالحب... كنتُ مبهورةً بأحمد، حبيب عمري، فلا أرى سواه وأنا أزوره في قسم الجراحة... لكن، كفى، لا أتحمل أن أنكأ ذكرى

تفوق ذكرى البخيل ألماً... سأترك الفيلم الثاني إلى الجلسة الثانية للعلاج...

* * *

كنتُ أحتاج إلى تلك الرحلة إلى اليونان كي تساعدني على تنقية روحي من السموم التي تركتها علاقتي بالبخيل. أرهقتني تلك الحالة، فما إن أستيقظ حتى يعصف بي غثيان حاد. أشرب قهوتي فأحسّها مسمومة، ويغلي دمي بالغضب والقرف. ليست هناك حالة أصعب من قرف الإنسان من نفسه. كنتُ أوبخ نفسي طوال الوقت كيف سمحتُ لنفسي بالتورط في علاقة مع البخيل؟!

يطفح القرف من كياني. مسامي تنزّ سماً. لا أستطيع شفاء نفسي بطاقتي وحدها، أحتاج إلى عونٍ خارجي، لذا سارعت إلى تسجيل اسمي في رحلة إلى اليونان لمدة أسبوعين.

التقيت وجيه على سطح الباخرة التي أقلعت بنا إلى قبرص أولاً. كنا وحدنا عند منتصف الليل بين ركاب الرحلة لم نستسلم للنوم. يبدو أن الخيبات لها مفعول خفي في جذب الناس إلى بعضهم، فقد تشابكت روحانا من النظرة الأولى في حميمية غامضة، وربما ساعدنا الجو الساحر للرحلة. كنا متأرجحين بين السماء والبحر منعتقين من أوجاع اليابسة.

بادرني بالتحية قائلاً:

ـ يبدو أنك تفضلين تأمل النجوم على النوم؟

لم يخفَ عني الحزن اللطيف في صوته، قلتُ له:

ـ كيف سأترك هذا السحر وأنام!

لم أشعر من قبلُ بالافتتان بالطبيعة كما أحسست وأنا على سطح الباخرة. كان هسيس الموج أشبه بمناجاة بين عاشقين والنجوم تلتمع في وشاح بنفسجي وقمر قريب مستدير متورد الوجنتين. كنتُ مستسلمة للنسيم العليل يداعب شعري كأصابع من حنان.

أشعل سيجارة. تنهد بضيق وسحب نَفَساً عميقاً من سيجارته. لم ألتقِ رجلاً عذب الحديث مثل وجيه، ولم أعش قبلاً تجربة مماثلة من تدفق حديث سلس وحميم ويستمر لساعات من دون انقطاع!

أنا نفسي كنتُ مندهشة، فما إن أطل علينا الصبح الأزرق الناعس ونحن نقترب من شاطئ قبرص حيث يبدو الشروق كغروب وشمس برتقالية تلامس سطح البحر، حتى كنا، وجيه وأنا، كصديقين عمز صداقتهما دهر.

وبرغم أننا لم نغفُ لحظة، فلم نشعر بتعب بل أحسسنا براحة عميقة، إذ تحرر كل منا من هموم قلبه. حدثته عن غايتي من الرحلة لأشفي روحي من سموم علاقتي مع البخيل، وحدثني هو عن آلام الخيانة التي

عانى منها طويلاً حين اكتشف أن خطيبته تكذب عليه، وكيف أنه تلقى رسائل مطولة أرسلتها إلى شاب تحبه في كندا في وقت خطوبته لها، وأنها لم تحبه يوماً.

أخبرني أنه ثري، ومن عائلة مرموقة، وأن الشاب الذي كانت تراسله خطيبته، أدرك أنها ستتزوج الثري وتضحي بحبهما، فانتقم منها وأرسل الرسائل.

تلازمنا طوال الرحلة، وجيه وأنا، كعاشقين لا يحتملان الابتعاد عن بعضهما لحظات. لم نبالِ بغمزات المشاركين في الرحلة. وفي وقت الحَر كنا ننطلق، وجيه وأنا، في رحلات استكشافية. كان عصب علاقتنا الحديث. كيف يتدفق الكلام بيننا بتلك السلاسة كأنه ينبثق من ينابيع روحينا العميقة. حرَض كل منا لدى الآخر الرغبة في البوح. كنت أحكي لوجيه عن تفاصيل تجاربي الحياتية كما لو أني أعترف له. ربما شجعني التعاطف الكبير في عينيه على الاسترسال في الكلام. وكلما توغلنا في متاهات الحديث ازدادت رغبتنا في البوح أكثر. أسعدنا أننا نُشفي بعضنا من مرارات تجارب مؤلمة لا تزال عالقة بذاكرتينا وأعصابنا، وهمست له حين تبادلنا القبلة الأولى في جزيرة هيدرا الناصعة البياض، بأني شُفيت تماماً من قرفي من البخيل.

سمّاني وجيه الساحرة، وقال بأني سحرته منذ الليلة الأولى على سطح الباخرة، وجعلته ينسى ألم الخيانة

لدرجة أنه صار يتحدث عن خطيبته والابتسامة تشع من عينيه...

كنتُ أشعر بأن سعادتنا مزدوجة لأننا ندرك أننا مصدر سعادة كبيرة لبعضنا البعض، ولأن كلاً منا سعيد بذلك الحب الشافي الذي هبط علينا من السماء كعناية إلهية. فكرت والرحلة تشرف على نهايتها في أن وجيه هو الرجل المناسب لأكمل معه مشوار الحياة، وأن هذا التناغم الرائع الذي وُلِد بيننا أكبر دليل على نجاح ارتباطنا في المستقبل.

يحمل الحب في طياته وعداً، هكذا أفهم، لذا كنتُ متأكدة من أن علاقتي مع وجيه ستنتهي بالزواج. لم يكن وجيه قادراً على إخفاء عواطفه تجاهي طوال الرحلة، فقد طلب ذات مرة من أحد الركاب في الرحلة، وكان يجلس إلى جانبي، أن يعطيه مكانه... وحين أصابني دوار البحر ونحن نقترب من جزيرة رودوس، صار يتوسل الركاب إن كان يحمل أحدهم دواءً ضد دوار البحر.

حين هبطنا إلى أرض الواقع وانتهت الرحلة التي كانت أشبه بحلم، بدأ وجيه يتوارى تدريجياً متعللاً بانشغالاته التي تراكمت أثناء غيابه، لكن حدسي لم يخطئ، فوجيه يهرب مني. وحين نلتقي يتأملني - برغم لهفته وشوقه إلي - بنظرة فيها حزن مُوجع... وأشعر

بأن قلبه يطفح بسعادة تشبه الألم حين يضمني إلى صدره. حاصرته، يجب أن أعرف ما الذي يعذبه، ولم يصمد أمام حصاري. شحب وانهار فجأة وقال كلامه بألم وصدق مما جعل جسدي يقشعر:

ـ أكون كاذباً لو قلتُ إني لم أحبك. لقد أحببتك كما لم أحب امرأة من قبل، ولا أزال أعتبرك ساحرة. أنتِ رائعة يا مريم، امرأة متقدة بالأحاسيس، تضجين أنوثة متوهجة وذكاءً متقداً، وأنا يفتنني هذا المزيج، لكن...

أخذ نَفَساً متلاحقاً كأنه يختنق، ترقق صوته حتى كاد يتمزق، وتابع كلامه أمام نظرة الإصرار في عيني:

ـ لا أستطيع تحمّل تجاربك يا مريم. ياه، لقد عرفتِ رجالاً كثيرين.

بدا كأنه يحدث نفسه. أخذتُ نفساً عميقاً كأني أحضّر قلبي ليتلقى خسارة عظيمة، كنتُ أنصتُ إليه مسترخية وهادئة ظاهرياً، لكني أشعر بأني مثقوبة مئة ثقب ينزف منها حبي.

ـ لكن تلك التجارب هي التي شكلتني وبلورتني، ولولاها لما كنتُ أنا التي أحببتَها.

ـ لكني أتعذب، أتعذب فوق قدرتي وقدرتك على التصور. آه يا مريم، لا أستطيع تحمّل أن يخترقك رجال غيري.

أشعرني بأني مشاع، وكأن أي عابر سبيل يستطيع أن يضاجعني. لا أعرف من أين أتتني تلك المشاعر، شعرتُ بأني منتشية بعذابي. سألته:

ـ لكن، قل لي، هل يُعقل أن أعيش بلا تجارب؟ ثم لِمَ تعتبر أن تلك التجارب تنتقص من قيمتي.

ـ لا أعرف، لكني صريح معك. لا يمكنني أن أتحرر من شرقيتي ولا يمكن لي أن أقتل ذلك البدوي في نفسي. لا يمكنني الزواج من امرأة ضاجعها العديد من الرجال...

ـ قلتُ ساخرة: ألديك عقدة فض العذرية؟!

ـ يمكنك أن تسخري ما تشائين. لكن صدقيني، هذه عقدة كل رجل عربي، ومخادع من يدّعي العكس.

ـ لكن، أنت تقول أنها عقدة، فلم لا تتحرر منها؟! ألست سعيداً معي؟

لم يُجب وجيه بأي كلمة. كان له نظرة آثم مخطئ بحق غيره، لكنه لا يملك شيئاً تجاه هذا الإثم.

فهمته، وأعدتُ تفسير كل علاقاته التي حدثني عنها. فشلت كل تجاربه العاطفية لسبب وحيد يتكرر أبداً: النساء يكذبن عليه؟! فهمت لماذا يكذبن. لأنهن يعرفن أنهن لو صارحنه بتجاربهن لما رضي بالزواج بأي منهن؟! وهو شاب ثري ولطيف وكريم، فيضطررن إلى الكذب والمراوغة للحصول عليه...

مسكين وجيه كم يتعذب. إنه يفتتن بامرأة ذات شخصية قوية، متعلمة، مثقفة، وذكية، لكنه يريدها في الوقت نفسه عذراء، وليس لها أي تجارب عاطفية... يبدو أنه لا يعرف أن هذه المعادلة يستحيل أن تتحقق لأن لا شيء يصقل الشخصية إلا تلك التجارب...

كنتُ أتأمل وجيه ولا أكفُّ عن الابتسام من شدة الغيظ... «شر البلية ما يضحك»! مسكين، يهده الندم هدّاً، لأنه رفض حبي، رفض حباً تذوقه وأسكره من السعادة لأن خياله يعذبه بماضيٍ وقد عرفت رجالاً غيره... لم يبقَ من وجيه سوى صور أثينا الساحرة والجزر التي شهدت سراب حبنا ووجهه العذب الشاحب ونظرة الضياع في عينيه التي تغلف كل المشاهد الخلابة، وتبطّنها أيضاً. أتسقَّط من حين إلى آخر أخباره: هل وُفق بالعذراء المثقفة والناجحة مهنياً واجتماعياً؟!

كم يسليني التلاعب بالكلمات. لا يُشفي حباً قديماً إلا حب جديد، ولا يداوي وجعاً قديماً إلا وجع جديد. لكني راضية بتلك المعادلة، فالطعنة التي وجّهها وجيه إليّ شفتني بطريقة ما من قرفي من البخيل.

## الجلسة الثانية

حان موعد الجلسة الثانية بعد عشرين يوماً. حاولتُ طوال الوقت أن أشحذ نفسي بالأمل مؤكدة لذاتي أن أصعب جلسة هي الجلسة الأولى كما أكد لي الجميع. وجدتني في هذه المدة أبحث عن قصص سيدات أجرين هذه العملية، وأسأل عن حياتهن ومصيرهن. وقد أسعدني أن أغلبهن عدن إلى حياتهن بشكل طبيعي، لكني لم أرغب أبداً في لقاء أي منهن.

لا يمكنني القول إنني اعتدت على منظر جسدي من دون ثدي. كنتُ أحس بألم وخزي أن جذعي الرشيق والمتوازن قد عُطب بتلك الطريقة... لكن بذور الأمل الغامضة كانت تتحرك في أعماقي مذكّرة إياي بحركات الجنين، يوم ذهشتُ من حركة الجنين الأولى في أحشائي.

ما إن وضعتُ حزام الأمان وانطلقت إلى مركز الطب النووي حتى احتواني صوته الدافئ. إنه بجانبي شاب

جميل فتنني منذ اللحظة الأولى: أحمد، الجرّاح الشاب ابن العائلة الثرية ووالد ابني الوحيد. فكّرت وأنا أقود السيارة بقلبٍ ثقيل ثقيل من عبء الذكريات، في أن نجاحي الأساسي في الحياة كان عندما نجحتُ في تعويد قلبي كيف يتلقى خسائره، وهذا النجاح انتصار عظيم في الواقع إذ صرتُ مهيَّأة لمواجهة نفسي بصراحة مطلقة، وأضحيتُ أملك تلك الحكمة التي يملكها هؤلاء الذين تقسو الحياة عليهم. تذكرتُ تلك المرحلة من حياتي بشفقة غامرة على نفسي وعلى تلك المرأة التي كنتها، يوم سكنني الحقد والشر مثل جميع الخاسرين، فقد خسرتُ الحب العظيم الذي اعتقدتُ أنه يكفيني مدى الحياة؛ خسرتُ زوجي وابني.

يوم التقيتُ أحمد كنتُ شابة ممتلئة حماسةً ومبادئ. أؤمن بأن الرجل هو إله حياتي، أعبده وأحبه وأخلص له. لا يمكنني أن أنسى تلك اللقطة يوم صحوتُ من التخدير، ولطالما أزعجني النوم بكوابيسه: عيناي ثقيلتان أرغب في فتحهما فلا أقوى، حلقي جاف، شفتاي يابستان، أطلب ماءً، لا يسمعني أحد أو إن صوتي واهن لا يصل إلى مسامعهم. يداي مصلوبتان على خشبتين، ووريدي مثقوب لكن أحمد بجانبي. وحين وضع يده الدافئة يربت على خدي كي أصحو تماماً من التخدير تمنيتُ لو تمتد هذه اللحظة إلى الأبد.

كان أحمد الطبيب الشاب الذي أسعفني يوم أصبتُ بالتهاب حاد في الزائدة الدودية، ولولا ذلك الالتهاب لما التقيته ولعشتُ بطريقة مختلفة ربما.

فذات مساء أصابتني آلام حادة في خاصرتي. كنتُ أسكن في المدينة الجامعية في سنتي الأخيرة في الهندسة. اتصلت بصديقتي الطبيبة النسائية، شخّصت لي للحال التهاب زائدة وقادتني إلى الإسعاف حيث كان أحمد مناوباً.

أذكر كيف التقيته أول مرة منطوية من الألم والدموع تملأ عينيّ، ونظراتي تائهة في وجهه الجميل بضراعة ورجاء. كنتُ أصرخ:

ـ ارحموني، ارحموني، فهذا الوجع لا يحتمل.

تُرى، هل اختار لي القدر اللقطة نفسها للبداية والنهاية؟! فقد أحسست وقتها، برغم ألمي، بجاذبية الطبيب الشاب: صفحة وجهه البيضاء، عينيه العسليتين بأهدابهما الكثيفة، قامته الممشوقة، وذلك الحنان الدافئ المشعّ منه. مسح دموعي وأعطاني إبرة مسكّنة، ثم جلس بجانبي وشرح لي أن العملية سهلة. كنتُ خائفة وقد هدّني الألم.

قلتُ له وأنا أتثاءب من النعاس:

ـ أخشى ألا أصحو من التخدير.

ضحك:

ما رأيك لو نشترط؟

قلت وصوتي يزداد ثقلاً:

ـ على ماذا؟

ـ إذا صحوتِ من التخدير تدعينني للغداء.

ـ أكملتُ: وإن لم أصحُ، أكُن قد مت.

وجه أحمد الجميل بحوافه الغائمة هو أول ما رأيت حين صحوت من التخدير. قبلتني صديقتي وهي تغمز قائلة:

ـ حظك حلو، أمهر وأجمل طبيب أجرى لك العملية، ثم ها هو يهتمّ بك بشكل غير عادي.

أعتقد أنني أحببتُ أحمد منذ البداية. أخبرني هو أيضاً في ما بعد أن قشعريرة قوية هزته حين التقاني أول مرة، واعترف لي بأنه ظلّ مرتبكاً طوال العملية وهو مرتعش بعواطف جياشة نحوي. بقيتُ في المشفى ثلاثة أيام وأحمد يزورني كل يوم يغير الضماد بنفسه. وفي يوم خروجي ذكّرني بالشرط بيننا، وأنني مدينة إليه بدعوته إلى الغداء.

لم أكن أعرف أن أحمد ثري إلا حين جلستُ بجانبه في سيارته المرسيدس، ولم أفهم لماذا انقبض قلبي من ثرائه. لم أعرف طوال حياتي مشاعر اشتياق متأججة نحو رجل كما أحسستُ نحو أحمد. كنتُ أشعر كيف أن حبي يُضفي عليّ نبلاً، وأسعدني أنه يشتاق إليّ بقوة.

صار كل شيء فيّ يشع. أحببته كحلم عمر توسّلتُ أن يتحقق، وشرحت له إيماني بأني أعبد الرجل الذي أحبه. صارت تتفجر أفكار إبداعية في مخيلتي، وأقضي الليل بطوله أخيط له قمصان بيضاء للمشفى، وأنتظره صباحاً عند إشارة المرور التي يتوقف عندها كل صباح. وكم بُوغت حين رآني مسهدة من النعاس أعطيه القمصان البيضاء وقد خبأت بينها وردة حمراء.

صار أحمد في صميم كل شيء حولي، وحين أقف أمام المرآة أدرك كم أفكّر فيه. لكن حبه لي كان مختلفاً عن حبي له. فأنا أحس بأن كياني يشع بالحب لأحمد ولا توجد إعاقة بين حياتي وحبي، أما هو فكان حبه لي كقوة خارجة عن إرادته، وفي لحظات أشبه بومضات يُشعرني بأنه يتمنى لو يتحرر من سطوتي، لكني كنتُ ألوم نفسي على تلك الأحاسيس المضلّلة. لم أكن أهتم للتفاصيل الصغيرة في علاقتنا، فالحب الجارف يغمر كل شيء ويموّه حقيقة أفكارنا. فحين طلبتُ منه ذات يوم نبيذاً لنشرب نخب علاقتنا التي دخلت شهرها السادس، أمطرني بأسئلة دقيقة ومتلاحقة إن كنتُ أشرب الخمر، وإن كنتُ أستمتع به؟ ثم ما رأيي بامرأة تحتسي الخمر؟ وبرجل يشربه؟ كنتُ أجيبه وأنا أضحك من مظهره الجدي وقلقه في طرح أسئلة أجدها تافهة. ما كان باستطاعتي وقتها أن أحس بأي خلفية لكلامه،

ولم يطمئنَّ إلا حين أكدّت له أني لا أشرب الخمر إلا قليلاً وفي المناسبات فقط. وحين طلب إليّ ألا أتذوقه أبداً بعد الآن وعدته وأنا أمسك بيديه وأقبلهما، وأثبّت نظراتي المتيمة في عينيه الواسعتين هامسة له:

ـ أنت إلهي.

كرسّت نفسي لأحمد. أسعدتني رغبته بالاستئثار بي وأرضت أنوثتي غيرتُه. لم أعترض حين طلب إليّ أن أبدل ثيابي وأن أمتنع عن لبس البناطلين الضيقة والقمصان بدون أكمام. قبلتُ هداياه وكانت كلها قمصاناً فضفاضة بأكمام طويلة وتنانير طويلة واسعة. لم أعد أصبغ شفتي بأحمر الشفاه الفاقع بل اكتفيتُ بالألوان الشاحبة الوردية التي بالكاد تُلاحظ. منعني أن يوصلني أحد زملائي في العمل بسيارته. وقدّم إلي في عيد ميلادي الذي احتفلنا به في مطعم فخم وعلى ضوء الشموع هدية ثمينة: دائرة من الذهب في قلبها حبة من الألماس تشّع كالشمس. سألني بعد أن غمر وجهي بالقبلات:

ـ لم تسألي عن معنى هذه الهدية؟

قلتُ:

ـ المعنى واضح، فأنا في قلب حياتك.

قال منتشياً بالمعنى الذي يقصده:

ـ المعنى الأدق أنك ثمينة كالماس بالنسبة إلي، وأريد أن أسجنك داخل صدري.

أبديت اعتراضاً لطيفاً مداراة امتعاضي:

ـ ألا تري أن كلمة سجن تتعارض مع الحب؟

ـ أبداً، فالحب يعني الاستحواذ، أن تكوني لي وحدي.

ـ أنا لك يا أحمد.

سكتُّ وأنا أشعر بأن قواي بعثرت فجأة واحتجتُ إلى فترة كي أجمعها. أخذت نَفَساً عميقاً وأنا أقول:

ـ ألا ترى كم أنا مُلكك!

كنتُ متلهفة كي أهب نفسي لأحمد. لم يكن حتى الشهر السادس من علاقتنا قد حدثني عن الزواج، ولم يطلب مني ممارسة الجنس برغم رغبته القوية فيَّ. لكني ذات مساء حاصرته فلم يستطع التملص. أسعده أنني عذراء، ضمني بقوة وهو يهمس بصوت فَرِح:

ـ كنتُ مرتعباً ألا أكون الأول في حياتك.

سألته:

ـ أإلى هذا الحد تهمك عذريتي؟!

تأملني بغرابة وغضب:

ـ ما هذا السؤال التافه؟ طبعاً تهمني.

هممتُ بأن أتكلم، لكنني لم أجرؤ. كان ثمة ناقوس خطر يدق في داخلي ويُنذرني ألا أقرب تلك المواضيع الشائكة معه: تلك المواضيع التي يمكن أن تتحول إلى

شرخٍ يُبعدنا عن بعض، بينما أنا لا أتحمل تلك الفكرة إطلاقاً.

لم أكن حتى ذلك الوقت أعرف أحداً من أفراد أسرته. حدثني بشكل مقتضب عن والده البعيد الذي اشتغل عشرين عاماً في السعودية ليجمع ثروة ضخمة ويشتري مخازن وعمارات. وأخبرني عن أمه التي يعبدها ويعتبرها أماً مثالية ويؤمن بأنها وراء نجاحه ونجاح أخواته. كان ابنها المدلل الذي أنجبته بعد خمسة بنات. كانت تتباهى بتفوقه في دراسة الطب. كنتُ آمل كل يوم أن يبادر أحمد ويقدمني إلى أسرته. أبدى حماسة ليتعرّف بأهلي الذين اعتبروه منذ الزيارة الأولى واحداً من الأسرة.

صار الإعلان الرسمي لعلاقتنا ضرورياً. لكن وفاة والده أجلت الخطوبة. وحين رغبتُ في تقديم العزاء لأمه وأخوته رفض قائلاً: سأقدمكِ إليهم في الوقت المناسب.

حين أستعيد بذاكرتي تلك الأيام، تبدو لي كحلم ساحر. كنا نعيش حالة انخطاف علاقة مباركة من الله. هكذا كنتُ أشعر. لم نكن نفهم سر هذا الانجذاب بيننا، فنحن بحالة ظمأ دائم لحب لا يعرف الارتواء. كان يحدق في عينيّ ويشد شعري الكثيف الذي يثيره قائلاً:

ـ أنا مريض بك، يصيبني دوار كلما اقتربتُ منك.

فأسأله بغنج:

ـ وهل تريد أن تشفى من الدوار؟

يتنهد قائلاً:

ـ وهل أستطيع؟

كان يحب أن أهمس له «أنتَ إلهي» ونحن في معجزة هيامنا العاطفي. لم يخطر ببالي أن تتناغم روحي إلى هذا الحد مع روح أخرى. كنا كعازفين يعزفان ببراعة مقطوعة موسيقية.

سألته ذات مرة:

ـ لِمَ لا تقل لي أنتِ إلهتي؟!

فرد بسخرية خفية:

ـ هذه العبارة تقال للرجل فقط.

وحين قرأ الخيبة في عيني قال:

ـ أنا أمزح معك. لكني لا أحب استعمال كلماتك. ليبتكر كل منا جُملَه.

قدّمني أحمد أخيراً إلى أمه. كم يشبهها. كان يمكن أن أحبها كثيراً لمجرد أن لهما الوجه نفسه، لكني قرأتُ الرفض في عينيها من النظرة الأولى التي تلاقت فيها عيوننا: أنا منفتحة نحوها بعفوية وحب ولهفة، وهي منطوية ومتعالية تجاهي. نظرتْ باستنكار إلى رأسي الحاسر، فهي تغطي رأسها بمنديل أزرق محكم بشدة حول ذقنها، وتلبس جلباباً أسود فضفاضاً. لم تسألني

سوى سؤال واحد: «كيف تعرّفت بابني». لم تسألني أي سؤال غيره.

ترجّع صدى سؤالها في أذني على الشكل التالي: من أين أتتنا هذه المصيبة؟

بدا الوقت معها ثقيلاً كرصاص يخترق روحي، وحين انتهت الزيارة التي لم تستغرق سوى نصف ساعة، شعرتُ بأني نزفتُ قواي وخرجتُ من بيت المرأة التي عبثت بحياتي مُنهَكةً ومشتتة الذهن وأنا أتوجس صعوبات غامضة.

قلتُ لأحمد: أمك لا تريدني.

فردّ بعصبية مفتعلة: لا تتفوهي بحماقات.

ـ من الواضح يا أحمد أنها لا تريدني

ـ أنتِ مخطئة، كل القضية أن أمي متعلّقة بي كثيراً، ولا يمكنها التسليم بأن امرأة ستخطفني منها.

ـ تخطفك منها! ألا تريد أن تفرح بك وتُزوّجك؟

ـ بالتأكيد، لكن تعلقها الشديد بي يجعلها تخشى انشغالي عنها.

لم أقتنع بحجج أحمد، وأكدت لي الأيام صدق أحاسيسي. فقد تقدم وحيداً لخطبتي مما زاد حبي له لأنه صمم على اختياره برغم معارضة أهله.

زرتُ أخواته في بيوتهن إكراماً له برغم عدم اقتناعي بالأمر، إذ كان يفترض بهن أن يباركن لي. وبعد شهرين

من خطوبتنا جاءني متنططاً من الفرح ليزف لي بشرى عظيمة بأن والدته باركت خطوبتنا وتريدني أن أزورها. زرتُ والدته إكراماً له. ولم يستطع لطفها الزائف أن يخفي رفضها لي الذي كان يزداد حدّة إلى أن قررتُ أن أواجهها على انفراد وأظنها كانت تتوقع تلك المواجهة.

بادرتها بسؤالي: لماذا ترفضينني؟

ردت في الحال: لأنكِ لستِ من طينتنا.

تسرّع قلبي من المفاجأة: ماذا تقصدين؟

ـ أنتِ إنسانة جيدة. لكن زوجة أحمد يجب أن تكون من طينتنا.

ـ أتقصدين لأني لا ألبس الحجاب؟

ـ إنه أحد الأسباب الثانوية، لكن أحمد يحتاج إلى امرأة مختلفة.

تُدهشني وقاحة تلك المرأة، تابعتُ بإصرار:

ـ لكنه اختارني، وهو يحبني.

ردت بسخرية: إنه واهم، وسيصحو من وهمه عاجلاً أم آجلاً.

كانت شديدة الاعتداد بنفسها، ومؤمنة بأفكارها لدرجة أحسست بأنه من العبث إضاعة الوقت معها في النقاش، لكني استأنفتُ المعركة وقد أغواني العراك بيننا.

ـ كيف يمكنك الحكم على حبه لي بأنه وهم؟!

ـ لأن ما يجذبه نحوك فورة الشباب؛ بتعبير أدق نزوة جنسية. أما الزواج فشيء مختلف، إذ يجب أن يختار كل إنسان شريك حياته من بيئته.

استمرت خطوبتنا نصف عام كانت تتخللها شجارات عنيفة كلما تحدثنا عن والدته. لم يكن أحمد يتحمل أن أنتقد أمه بكلمة. كنت أعرف أنه يعاني صراعاً داخلياً أليماً بين حبه لي ورغبته في إرضائها، لذا امتنعت عن ذكرها أمامه. كنت أعرف أنها تبذل قصارى جهودها لتجبره على أن يتخلّى عني ويهجرني. أعرف ذلك من نظرات الإعياء في عينيه، ثم صار يتملص من سؤالي: متى سنتزوج؟ مؤكداً لي أن الوقت قريب، وأنه يجهز عيادته التي اشترتها له أمه في أهم شارع في المدينة. لكنه اتصل بي ذات صباح ورجاني أن أسرع إليه. وجدته وسط المأذون والشهود منهاراً من الانفعال. بادرني قبل أن أسأله:

ـ أرجوك لا تسأليني أي سؤال. سنعقد قراننا الآن.

قاطعتنا والدته بعد الزواج. وبرغم سعادتي أننا اجتمعنا أخيراً تحت سقف واحد وأنه لم يخذلني بل انتصر لحبنا وتزوجني، إلا أنني لم أشعر لحظة واحدة بنشوة المنتصر، بل ظل قلقي يتعاظم داخل قلبي. كان هناك جانب معتم في روح أحمد لا أستطيع بلوغه، وصارت تنتابني نوبات ذعر غامضة من احتمال فقداني

كلَّ شيء دفعة واحدة. وحين كنتُ أبوح له بمخاوفي كان يضحك ويتهمني بالجنون ويضمني بقوة إلى صدره مؤكداً لي أنه لم يعشق ولن يعشق امرأة كما يعشقني.

اعتقدتُ أن والدته غاضبة علينا وتقاطعنا معاً، لكني اكتشفت بعد أشهر كم كنتُ مغفلة، فقد كان أحمد يزورها كل يوم معللاً تأخره بأنه منشغل في العيادة. وحين واجهته بتلك الحقيقة التي لا يمكنه إنكارها، غضب غضباً جنونياً متهماً إياي بالتلصص عليه. أحسستُ بالفزع وأنا أكتشف فيه جانباً غامضاً ومخيفاً ظل غائباً عني، لكني كنتُ أستمد طاقتي على التحمّل من عناد حبي الكبير له، خاصة بعد أن أثمرت بذرةُ الحب في أحشائي، ما كان يطمئنني إلى أن علاقتنا متينة بعمق الحب واللهفة بيننا ما إن يضمنا سرير واحد.

أحس بالأبدية وأنا في أحضانه يحدّثني عن المستقبل ناشرَين خططنا التي لا يكفيها عمر واحد. للحظة ما لم نكن نصدق أننا سنموت، فالموت مجرد مزحة ثقيلة لا تقرب عاشقين. أخبرني قبل أن ألدَ بأيام أننا سنزور والدته، ولأول مرة تمردت على قراره وقلت محتجة:

- هل نحن لعبة بين يديها، تخاصمنا وقت تشاء وتصالحنا وقت تشاء!

وجن جنونه كالعادة لأني أتيت على ذكر أمه.

لم أتراجع وزدت:

ـ ألا تهمك كرامتي؟ أنا زوجتك.

يا لقسوة نظرته وهو يحدّق فيَّ، انغرست نظرته في عيني كمسمار.

قال: اسمعي أنت تقولين لي أنتَ إلهي، وأنا أقول لك أمي إلهتي. فهذه المرأة عظيمة، ولن تستوعبي عمق عطائها وعظمتها. ولولاها لما صرت ما أنا عليه.

تمنيت صادقة لو يُقنعني أحمد بعظمة أمه، لكني لم أجد أمامي سوى إنسانة حقودة تزداد كرهاً لي. وحين ولدتْ ابني لؤي حملته بافتخار وهي تنظر إلى ابنها بوَلَه قائلة:

ـ إنه صورة عنك.

ثم استدركت أني موجودة فرشقتني بنظرة عاجلة قائلة:

ـ الحمد لله على سلامتك!

أذكر أنني ارتعشت من سموم الحقد في صوتها، ومنذ ذلك اليوم شعرتُ بأن حياتي تدخل في نفق ضبابي جعلني أحس بأنني أعيش حياتي كمن شيّد بيته على حافة هاوية.

مانع أحمد بعد عطلة شهرَي الأمومة، في عودتي إلى عملي. كنتُ سعيدة بتعييني مهندسة في شركة

الإنشاءات، وقد استمتُّ في الدفاع عن حقي في العمل وعن أهمية هذا العمل لنفسي ولإحساسي بأنني أحقق ذاتي، لكنه رفض مجرد الحديث عن العمل مستنداً إلى ما كنتُ أخبره به بأنه ليس لدينا عمل فعلي، وبأنني أقضي معظم وقت عملي في الثرثرة وشرب القهوة وتباذل أحاديث لا نهاية لها عن البرامج التلفزيونية والفضائح الاجتماعية. ولكن، على الرغم من ذلك، فقد كنتُ أحب عملي وأتأمل أن يتحسن.

من لقنّه هذا الكلام: «الزوجة الصالحة جنتها بيتها، ثم إننا أثرياء ولسنا بحاجة إلى راتبك الهزيل».

هل تغيَر أحمد؟ أم إن شعاع الحب تراجع فاسحاً للحقيقة المُرة أن تتكشَّف.

بدأ مرحلةَ الارتياب بي والشك في تصرفاتي. طالبني بلباس محتشم ولم يسمح لي بمسحة ماكياج، وطلب إليّ صراحة أن ألبس مثل أمه. لبستُ الحجاب والمعطف الطويل وتركت عملي. وبرغم ذلك لم ينقص حبي له. اعتقدتُ أن عليَّ بذل جهود إضافية لفتح أقنية حوار بيننا. وكلما كان حواري سلساً ومنطقياً وهادئاً كان ينغلق على نفسه معتصماً بالصمت ومعمّقاً الهوة بيننا. كان ينبّهني - من دون أن يدري ربما - إلى أن افضل وسيلة لخلق شرخ بين الأشخاص هي الصمت. لم يكن الموضوع مجرد لباس شرعي أو حجاب. في الواقع بدأ

أحمد يرفضني، كما لو أنني جسم غريب دخل حياته. صارت معظم صفاتي سلبية وبحاجة إلى تعديل برأيه.

أقام الدنيا وأقعدها ذات يوم لأنني سمحت لزوج أختي بأن يوصلني إلى البيت. كان يصرخ:

ـ هذا رجل غريب، فكيف تختلين معه في سيارة!

وجدت نفسي مذعورة وصامتة وأنا أتفرج على صرح حبي يتزلزل وينهار. هو مصرّ على الهدم وأنا مصرة على البناء. أستيقظ كل صباح مشرقة وأنا آمل أني سأفعل المستحيل لإنقاذ علاقتنا من الضياع. كان أحمد بدأ حرباً جديدة معي، صار يحاربني بابني. فكل صباح يأخذ لؤي إلى أمه، ولا يعود به إلا مساءً. ما مبرر إبعادي عن ابني وقد تركت العمل لأتفرغ له ولزوجي. استنزفت قواي في الحوار معه، ومرّات كثيرة في الشجار، لكني عرفت أنه لا يصغي إليّ وأنا أتكلم، فهو محصَّن ضد أفكاري التي يحسها تشكل خطراً عليه. يحاول أن يحولني من حبيبة إلى جارية. صرت أفتعل الصداع كي أحمي نفسي من انتقاده المتواصل، وأصبحت أستسلم لنوبات بكاء عاصف في الحمام حتى أخفف احتقان روحي المتألمة.

الشيء الوحيد الذي لم يتصدع بيننا هو علاقتنا الجنسية. ظل الجاذب الجنسي بيننا حميماً. الجنس وسيلة التعبير الأمثل بين امرأة ورجل؛ اللغة التي لا

تعرف المجاملة. لم أحس بأنه هو الرجل الذي أحببته إلا فوق فراش الجنس. هناك فقط، أحس بأمان وأطمئن نفسي إلى أنه لا يزال يحبني ويرغب فيَّ.

ولم يبقَ لي من فرص لمحادثته بهدوء إلا حين أكون ملتصقة به، فأهمس إليه وأنا أتحسَّس أنفاسه:

ـ أحمد، لماذا صرتَ قاسياً معي، ألا ترى أن زواجنا يتصدع.

يضمني إليه بقوة:

ـ مريم، أنا أحبك بجنون لكن أرجوك افهميني وافهمي بيئتي.

أتذكر قول أمه: لستِ من طينتنا!

ـ لكن يا أحمد يجب أن نحترم بعضنا في اختلافنا في تصرفاتنا، فأنا أكثر من عجينة ترغب في تشكيلها كما تريد.

فيعتصم بالصمت ويستأنف جولة غرامية جديدة.

بدأ أحمد مرحلة جديدة من شكوكه اللامنطقية، فصار ينقّب في ماضيَّ، ويسألني إن كنتُ أحببتُ قبله وسمحت لشاب بلمسي. واعترفتُ له صادقة بأنني كنتُ على علاقة مع شاب قبله. بذل جهوداً جبارة ليكبح غضبه. وبدأت أسئلته البوليسية تحاصرني:

ـ هل ضاجعكِ؟؟

ـ كلا.

ـ ما شكل علاقتك به إذاً؟

ـ مداعبات وقبلات...

ـ ماذا تقصدين بالمداعبات؟؟؟

ـ أحمد، لم يعد للماضي أي قيمة. ثم إن في حياة كل فتاة تجربة عاطفية أو أكثر.

ـ أجيبي عن سؤالي: ما حجم المداعبات؟؟

ـ لم أعد أذكر، مداعبات سطحية.

ـ ماذا تقصدين بسطحية، ألم يلمس جسدكِ؟؟

كنت أصمت وأنا أتفرج على أمارات جنونه وغضبه تنهش روحه وملامحه، وأتردد: هل أكذب؟ لكن لا أعرف لماذا تستهويني الحقيقة دوماً، أهي نوع من هوى؟ لماذا أرغب أكثر في قول الحقيقة، ولو كنتُ أدرك سلفاً مدى الخراب الذي ستحدثه.

قررتُ القول له صراحة إنه كان يداعبني مداعبات غير سطحية، وإنه داعب جسدي وقبله وأنا عارية تماماً.

خفتُ منه حين التمع بريق الجنون في عينيه. كزّ على أسنانه ثم قال هازئاً:

ـ إذاً، عذريتك مزيفة.

ـ أبداً يا أحمد. أنتَ تعرف.

ـ من تسمح لرجل بمداعبتها عاريةً تكُن كأنها فقدت عذريتها.

يُشعرني أحمد حين يتحدث عن العذرية، كأنها سور أو حصن تختبئ الفتيات خلفه خوفاً من خطر الرجال. لم أعد أعرف من منّا يستحق الشفقة أكثر: أنا أم هو.

ينهشه الشك، وتطيّر صراعاته الداخلية وهلوساته قدرته على التفكير المنطقي. صرت أنا الحبيبة والعدوة! وبدلاً من أن يكون الصغير مصدر الفرح والاستقرار في حياتنا، تحوّل إلى مشروع شجار مستمر لأن أحمد مصرّ على أن يصحب ابنه كل يوم إلى عند والدته. وكنتُ أضطر إلى اللحاق بابني إلى منزل «المستبدة» أتفرّج عليها كيف تطعمه وتحممه وتهدهده حتى يغفو.

ما كنتُ لأصدق ما يحدث لولا إنه يحصل معي. كنت أراقبها بعينين ذاهلتين صامتة وأصرخ فيها:

ـ أنا أمه، أنا من يجب أن تعتني به.

وكانت ترمقني بكره واستخفاف وتقول:

ـ هذا ابن أحمد، بغلاوته تماماً.

اضطررتُ إلى اللجوء إلى الأقرباء والأصدقاء، أشكو إليهم معاناتي وتعاستي، لكني لم أحصل على أي فائدة، فقد بقيت حياتي كما هي، ألهث وراء ابني كل يوم وأستجدي زوجي أن يرأف بي ويتفهمني.

كنتُ حتى ذلك الوقت عاجزة عن تخيّل حياتي من دون أحمد. وأهمس له في لحظات الهدوء بقلبٍ منكسر: أنت إلهي، لكني أقولها والحزن يملأ كياني. حاولت

تحمُّل كل ما يصدر عنه كما لو أن تصرفاته وسلوكه طارئة وغريبة عن جوهر كيانه، ولن يلبث أن يعود أحمدَ الذي عرفته وأحببته. وغذيّت في روحي وهمَ أن الحب الكبير يحتاج إلى تضحيات كبيرة. كنتُ أخدع نفسي بتلك الشعارات الطنانة كي لا أواجه حقيقة أن أحمد يمسخني ويحولني إلى مجرّد جارية يشعر معها بنشوة أن يكون رجلاً. افتقدتُ الإحساس بالأمان، وكنت أشعر كل لحظة بأن شبح أمه مسلّط على حياتي يهددها بالتدمير: إنها تمسك مصيري بيدها.

بدأت أعاني نوبات من الانهيار، أقضي الليل بطوله ساهرة أقاوم أشباحاً وأفكاراً سوداء وتشاؤماً لا أنجح في مقاومته. لم يكن لدي سوى طفل صغير أستمد العون والأمل منه، وأتخيل في قلب الليل مريمَ التي كنتها: حرّة، مرحة ببنطال الجينز والشعر المتطاير الطويل، وبالضحك العفوي الخارج من القلب. كنتُ حرة وصرتُ جارية! ما قيمة الإنسان إن لم يحس بكرامته؟ لكنني ظللت متشبثة بأسرتي، بل تعلّقت بها أكثر لأني أحسها مهددة بخطر خارجي مخيف مقنَّع بقناع المحبة.

ثم بدأت مرحلة الهذيان كما سميتها. صار أحمد يحدثني عن الانفصال، وأننا مختلفان كثيراً، وكل واحد منا من طينة مختلفة. يا للسخرية! يتحدث عن الطلاق وجسده ملتهب بالشوق إلي وهو لا يزال يُقرّبني بالهوى

المحموم نفسه. ولطالما ذكّرته في لحظات وصالنا الحميم بحديثه عن الطلاق فيدفن رأسه في صدري ويقول مستغفراً: مريم، أنا أعبدك.

أعرف كم هو صادق وضعيف... لكن، ما أصعب أن نحب إنساناً ضعيفاً.

صرتُ أتمنى الموت لأمه. لكن، هل المشكلة في أمه أم في ضعفه، وانسحاقه تجاهها، وتجاه عقلية بائدة وبالية لا يجرؤ على مواجهتها برغم عدم قناعته بها، ولا على الوقوف في وجهها.

كنتُ قد وصلتُ إلى مركز الطب النووي. فاجأتني الممرضة بباقة ورد أبيض نضرة أبهجتني للغاية: ورد ممن؟!!

اعتقدت أنني أعرف، لكنها ابتسمت وقالت:

ـ من الطبيب مسعود.

مفاجأة غير متوقَّعة. هل من عادة الأطباء إرسال باقات ورد إلى مرضاهم؟!

الدكتور مسعود! لم يخطر لي أن أفكر فيه كرجل مطلقاً. إنه الطبيب الذي أجرى لي العملية ويعرف جرحي جيداً. رجل في الخمسين أو بعدها بقليل، ذائع الصيت، متزوج وأولاده في الجامعة. ما الذي يدفعه إلى إرسال ورد لي؟! إنها لفتة إنسانية لا أكثر، هذا ما

أكدته لنفسي وأنا أعطي ذراعي للممرضة التي أكدت لي أن الجلسة الثانية ستكون أسهل بكثير.

اخترقت النقاط الأولى للسائل وريدي، وشعرتُ بجسدي يرتعش كما لو أن حمى تهزّه، وبدأت أسناني تصطك. استنجدت بالممرضة. قاست ضغطي وطمأنتني إلى أن وضعي ممتاز، لكن يبدو أنني خائفة. هل كنتُ خائفة إلى هذا الحد؟ السماء أكثر وهجاً هذه المرة، وتغريني بأن أكمل الفيلم الخاص بأحمد وأعرضه على شاشتها اللامحدودة.

عليّ أن أهرب من وجع الدواء إلى وجع الذكريات. مازحتُ نفسي: إلى أين وصلنا في الفيلم يا مريم... ضغطت زراً وهمياً في ذاكرتي فابتدأ العرض على خلفية السماء.

تم الطلاق كما لو أنه دعابة سمجة. لم أصدق أن أحمد قادر على أن يطلقني وهو يشتهيني إلى حد الهوس والجنون. لم أستوعب الكارثة. هل الحياة هذيان؟ ما جعلني أصدّق أن الطلاق حصل في الواقع أنهم خطفوا ابني: لؤي رهينة عند جدته!

كيف سأصدق هذا الجنون! وأن أحمد طلّقني! كيف طلّقني ولا تزال أنفاسه حارة فوق مسام جسدي. أذكر تلك المرحلة، وكيف غدا كلامي صراخاً، وكم ذرفتُ دموعاً سخية. كنتُ أشعر بأني فقدتُ روحي، ولم أعرف

كيف سأفكر في تلك الكارثة سوى أن أؤكد لنفسي أن ما أعيشه كابوس سوف أصحو منه. تحوّل نومي إلى كابوس رتيب وقاتل، أصحو برغم المهدئات على دموعي وصراخي، أطلب ابني وزوجي. لم أملك سوى معاتبة الحياة، فقد جعلتها مشجباً أعلّق عليه وجعي، متهمة إياها بأنها السبب في ما حصل لي.

استسلمت لدوامة الهذيان والألم. ما الذي حدث لحياتي؟ كيف تبعثرت أسرتي؟! متى سيعود أحمد نادماً مستغفراً؟! لم أكن أصدق كيف يتحمل أحمد بُعدي.

تكاثر الفضوليون حولي، يتفرجون باستمتاع على جرح طازج لامرأة شابة قُصفت سعادتها وبدأت فوضى الأفكار تنتشر حولها.

«لا تزالين شابة وجميلة، أديري ظهرك للماضي. أحمد لا يستأهل دموعك وحزنك، وسوف تتزوجين رجلاً يفهمك وذا شخصية قوية وليس مجرد خاتم في إصبع أمه».

«من حسن حظك أنه أخذ الطفل. ستكونين حرّة وهذا يسهّل زواجك من جديد».

«حاربي حتى تستعيدي طفلك».

«لا تحاربي من أجل صغيرك، فهو سيأخذه من حضنك عاجلاً أم آجلاً».

«اذهبي وعيشي خادمة عند حماتك. مثّلي عليها، إن كان هدفك العودة إلى زوجك».

«كرامتك فوق كل اعتبار».

«مصلحتك أهم من كرامتك».

«اطلبي منه تعويضاً مالياً كبيراً، فهو ثري وتنازلي مقابله عن الصغير».

«الخطأ خطؤك، صرتِ جارية له. كيف سمحتِ له بأن يُبعثر حياتك ويعيد ترتيبها كما لو أنه اشتراك. انظري إلى نفسك: لقد تركتِ عملك وبدّلت طريقة لبسك، وها هي النتيجة: طلقّك؟!».

هذيان، هلوسة، كلام يخنقني. الحياة كابوس حقيقي. وحدها ابنة عمي صديقتي وزميلة دراستي، أقنعتني بأن الحل بأن أعود إلى عملي. ذكّرتني بأنني مهندسة ومتفوقة في دراستي. كانت تعتني بي كطفل مريض وتجبرني على أن آكل وأشرب العصير، وهي التي أغوتني بأن أسافر إلى دبي وأعمل فيها، خاصة أن أخي متزوج ومستقر هناك منذ سنوات ويعمل مهندساً في شركة بناء كبيرة. بدا اقتراحها في البداية جنوناً، لكنها لم تملَ من إقناعي:

ـ إنه الحل الأمثل يا مريم: السفر! صحيح أنك سوف ترحلين بعيداً عن طفلك وأصدقائك، ولكنها فرصة لك

ولأحمد لإعادة تقييم علاقتكما ولإخراس الناس الذين يتسلّون بنقل الأخبار المسيئة عنكما.

كنتُ لا أزل أشتاق إلى أحمد برغم طلاقي منه، وأحن إلى وصاله. فما حدث أفظع من استيعابه، فكنتُ من شدة ذهولي أشعر نفسي كالسكرانة، فهذا التحول الجذري في حياتي هزّ توازني النفسي بعمق، وكلما نظرتُ إلى وجهي في المرآة أقرأ نظرة ذعر وعدم تصديق.

أضناني البحث عن أسباب منطقية لطلاقي. كنتُ أقضي أياماً طويلة مستنفدة بالقلق، وأتحسَّر بكل كياني ألماً من تخلّي أحَبّ الناس إلى قلبي عني. أعطتني الحياة درساً قاسياً في الغدر: كيف تطعنني بسكين اليدُ نفسُها التي قدّمت إليَّ ذات يوم وردة!

أفكر في أحمد؛ الرجل الذي كان قطعة مني، كيف صار بين ليلة وضحاها منيعاً مستحيلاً. تصيبني تلك الحقيقة بمشاعر متناقضة، فأحس بأني أنوس بين قوسَي الذهول والألم.

أشعر تارة بأنني تمثال من الألم، وأخال نفسي تارة أخرى صنماً من الذهول. وفترت مع الأيام رغبتي في معرفة الحقيقة، فما حاجتي إليها وأسرتي قد نُسفت نسفاً وصارت حياتي خراباً. غدا لؤي جرحاً نازفاً

باستمرار في قلبي، فكيف يمكن لطفل أن يتحول إلى خنجر مغروس في قلب أمه؟!

كنتُ كمن يقف عاجزاً أمام لغز، غير مؤمنة بأن الطلاق حدث فعلاً. كيف طلّقني وقد ضاجعني بكل ذلك الحنان والشهوة قبل يوم؟!!

أحسستُ حين تسلمت ورقة الطلاق بأن عقلي يتجمّد، وأخذتُ أفكر في أصناف الطعام التي أعددتها للطبخ. كان من عادتي تحضير عدة أكلات معاً. كنتُ أبحلق في ورقة طلاقي وأفكر في من سيأكل كل هذا الأكل الذي أعددته؟ ما هذا الهذيان! كأن هذه هي المشكلة الجوهرية. بالتأكيد هناك خطأ رهيب، هل أصاب أحمد مسّ؟! كانت بيجامته لا تزال مطوية عند حافة السرير. إنه لا يزال هنا، يسكنني، فكيف أرسل إلي ورقة الطلاق؟؟!!

أشعر الآن حين أستعيد تلك الذكريات كم كنتُ خائفة أن أحزر الحقيقة، وكنتُ أتجاهل الشعاع القاسي الحقود الذي ألمحه في وجهه وهو ينظر إليَّ.

اقتحمتُ عيادته بعد أيام من طلاقنا. أذكر أن شوقي إليه منعني من انتظار المصعد. صعدتُ أربعين درجة لاهثة بقلب ينبض بالحب والألم، مدركةً برغم فوضى مشاعري أني لا أعرف شيئاً سوى أن أحب. كنتُ مشتاقة إلى وجهه، وأن أطيل النظر إليه، وأملّي عينيَّ

منه. وما إن تلاقت نظراتنا حتى فهمتُ أن قلبه ينزف أيضاً. لا أعرف إن كان قد تقيّوه باسمي أم إن أنفاسه اللاهثة قد أصدرت صوتاً خُيّل إليّ أنه يناديني.

آه، كم أحبك يا أحمد. ارتميت بين ذراعيه مشتاقةً. كيف استطاع أن يقاومني في تلك اللحظات برغم شوقه الذي يفضح أمارات الشهوة في جسده... أبعدني هارباً بنظراته من حصار عيني. في صوته ارتعاش حاول إخفاءه. أشعل سيجارة كمن يحتمي بأي شيء كي لا أقترب منه. سحب نَفَساً عميقاً وقال بصوت مترجرج:

ـ مريم، أنا متألم مثلك لكني مقتنع بما فعلت.

صرختُ:

ـ والحب، أين ذهب الحب، لماذا تزوجنا إذاً؟ ما الحكمة في هذا الطلاق؟

أشاح بنظره ملاحقاً الدخان. قال كمن يحفظ شعاراً من دون أن يؤمن به:

ـ الحب يمضي، لكن الخلاف يظل موجوداً.

ـ ما هذا الكلام الغريب! كل ما تقوله خطأ، خطأ...

ـ لا، يا مريم، ما أقوله هو عين الصواب. لقد فكّرت طويلاً. خطأنا أننا لم نُصغِ إلا إلى صوت القلب، أما صوت العقل فقد غيبناه. نحن مختلفان، كل واحد من بيئة مختلفة.

ـ ما هذا الهذر المضحك! نحن أسرة صغيرة متحابّة ينتظرها مستقبل سعيد. لماذا تدمرنا؟!! لماذا تبعد الصغير عني؟ ثم إنك تحبني، أعرف كم تحبني.

بدأ صوتي يخونني وكلماتي تتشتت. انهمرت دموعي كالطوفان. من أين أتتني تلك الموهبة في ذرف الدموع. كان هياجي شديداً لدرجة أن أحمد انتفض وأطفأ سيجارته ورجاني أن أبتلع قرصاً مهدئاً، بينما دموعه تنسكب على صفحة وجهه المحتقن بشدة.

دفعتْ يده بعيداً، وأنا أرتجف من الألم وعدم التصديق:

ـ لا أريد أقرصاً مهدئة. أريدك أن تقبّلني، أن تضمني بين ذراعيك. ماذا دهاك؟! يا إلهي، ماذا دهاك؟ كيف تطعنني؟ لقد نفّذتُ رغباتك، ولبستُ الحجاب، فماذا تريد أكثر من ذلك؟

ضمني بقوة بين ذراعيه وجسده يرتجف. لم يهرب هذه المرة من عناقي، ولم أشعر بأنه رغب فيَّ يوماً كما ذلك اليوم. ارتمينا على الأرض نفنى في وصال أبدي. كنا نلتهم بعضنا. حين أستعيد تلك اللقطة وأنا ممددة الآن على سرير المرض الخبيث، يُدهشني ذلك الحب الهائل في ذلك الوصال البعيد الخرافي كما لو أنه حدث في حلم!

وحين ابتعدنا منهارين من الحب والإنهاك غطى وجهه بيديه خجلاً من ضعفه. رجاني أن أرحل وألا أعود إلى لقائه.

تمنيت في تلك اللحظة لو أصفعه، لو أشبعه ضرباً، لو أغرس صدره بسكين. هممت بأن أصرخ: أأنت مجنون... لكنني رجوته بصوت مخنوق:

- فكّر في الجريمة التي سوف ترتكبها بحقي وحق ابننا. لا تتسرّع باتخاذ قرار سوف تندم عليه طويلاً. أنا أنتظر رجوعك إلى الصواب.

لكن أحمد لم يتراجع عن قراره. مسكين هذا الرجل. لم أستطع أن أحقد عليه برغم الألم العميق الذي سببه لي. لقد فهمته أخيراً. كان يحبني بقدر ما يخافني، ولا يحس نفسه ضعيفاً إلا تجاهي، فأنا امرأة ذات سطوة هائلة عليه. يشعر بأنه يفنى في حضوري، يتبدد، يصيرُ رجلاً من ضباب. إنه يعبدني، فأنا أشعل جسده وعواطفه. لا يستطيع أن يحبني بهدوء وحياد، فهو لا يأتيني إلا ظامئاً ملتهباً ويريدني أن أطفئ استعار مشاعره، لكنه يؤمن في الوقت نفسه بأن وراء تحرره من حبي انتصاراً عظيماً لشخصه.

من أين أتاه هذا اليقين؟!! لا أعرف تماماً، ربما يستصغر نفسه ويحس بالخجل حين يدرك كم أؤثر فيه، وكم هو أسير جاذبيتي. يشعر حين يكون معي

بأنني أسرقه من بيئته. يتذكر حياته الماضية بخجل وحنين، فقد خان أعزّ الناس ـ أمه ـ بارتباطه بامرأة لا تشبهها، بل ليست نسخة عنها؛ أمه التي وهبته عمرها وظل حتى عمر المراهقة ينام على صدرها مستسلماً لحكاياتها وصلواتها وعواطفها السخية. أمه هذه وجّه إليها طعنة قاتلة بزواجه مني؛ أنا الدخيلة الغازية التي تشرب الخمر وتسبح بالمايوه، وسمحت لرجلاً بملامستها ومداعبتها.

لقد اقتلعتُ أحمد من دنيا استقراره لأقدّم إليه المتعة والحب، لكنه يشعر معي بأنه أسير وليس حراً. لم أكن واهمة أبداً حين كانت تنتابني تلك المشاعر بأنه كلما ازداد حباً لي ازدادت رغبته في الهروب مني، فهو ينشد الهدوء والاسترخاء والأمان، ويشعر معي بالخطر والهيجان والإثارة والتحدي. صحيح أني تركتُ عملي ولبستُ الحجاب، لكنه يعرف أني فعلتُ ذلك عن عدم اقتناع، بل لعله شعر باشمئزازي الخفي من عقليته وعقلية أهله. عرفتُ في ما بعد أنه لم يكن قادراً على مواجهة أحزان قلبه وحده، فكان يبدد وقته في أحاديث سخيفة مع شلة من أصدقائه، ويقف كالمشلول متفرجاً على أيامه الذاهبة في الهباء، يتأمل تعاسته وقسوته على نفسه، لكنه لم يتراجع عن قراره لأنه مؤمن بأنني قادرة على نسفه من جذوره لو بقي معي،

ويمكن أن أشكّله من جديد كما يصوغ نحات قطعة من حجر. لم يعد يهمه سوى أن يراقب يوماً بعد يوم تصاعد القسوة في قلبه، وما من عزاء له سوى ولعه المجنون بابننا. يحبه بجنون ليس لأنه ابنه فقط، بل لأنه ابن مريم، المرأة التي أحبها حدَّ الإدمان وطعنها. أخبرني المقربون منه بأنه حين يبتسم يشعر المرء بأن شيئاً يقبض قلبه!

إلى أي حد كنتُ قادرة على اتخاذ قرارات نابعة من أعماقي؛ أعماقي المشوَّهة المشتعلة بحريق كبير؟ هل كنتُ قادرة على التفكير بمنطق وعقل حين قررتُ السفر إلى دبي لأعمل في الشركة نفسها التي يعمل فيها أخي؟ حملتُ أوراقي كالتائهة، أضع عليها الأختام الضرورية للسفر. اعتقدتُ أنني سأسدد طعنة كبيرة لأحمد بسفري، وسيشعر بمعنى ابتعادي. كنتُ في الواقع أسعى من خلال هروبي إلى غاية أهم؛ غاية منبعثة من قلبي العاشق؛ غاية هي الأمل نفسه بأن بقاء الصغير في حضن والده سيكون أكبر محرّض ليتذكرني دوماً وليُرغمه على التغلب على ضعفه واستعادتي. لعل هذا الصغير الذي لم يكمل عامه الأول، يقدر ببراءة طفولته ونقائها على أن يشفي الكبار من سموم أحقادهم.

آمنتُ بأن أحمد سوف يعود بعد أشهر قليلة نادماً يرجوني أن أعود إليه، ويطلب المغفرة. كنتُ أعيش تلك

اللقطة المتخيَّلة المعزّبة طوال الوقت، وأنوّع الحوارات التي ستحدث بيننا. وآمنث بأن هذا اليوم آتٍ لا ريب فيه. صرتُ لا أتوقف عن تخيّل لحظة العفو، وأجد في الصفح لذة عظيمة.

نارٌ تأكل أحشائي، ودموع سخية لا تنقطع، وامرأة على حافة الانهيار؛ هذا ما كنته في الطائرة التي حملتني إلى «منفاي» الطوعي. تغيّم صورتا أحمد ولؤي وأنا أستعيد من خلالهما جذوري التي تركتها في الوطن، وتتراقصان فوق بحيرة الدمع. لقد تحولت حياتي إلى مجرد صورة في حقيبة يد. لاحظت المضيفة حزني فغمرتني بعنايتها، وحين طلبوا إلى المسافرين ربط أحزمة الأمان لأن الطائرة سوف تحط في المطار انفجرتُ بنحيب حار، وقد أدركث هول ما أقدمث عليه. انفجر حبي للؤي كانفجار خزان هائل في روحي. أي جنون أن أتركه؟! كم أثار انهياري تعاطف الركاب: شابة تبكي بكل جموح روحها. مشيت في صالة الانتظار أجرُّ حقيبة خيبتي. تحلّق حولي أولاد أخي، وأخي وزوجته. نسيث في تشتتي أن أقبّل الصغار، كنث منهارة تماماً، وحين لمحتُ وجهي في مرآة السيارة خفتُ من نظراتي؛ نظرات فظيعة فيها يأس هائل لدرجة أن نورا ابنة أخي التي كانت في عمر لؤي أخذت تبكي. ذكّرتني بلؤي. أجلستُها في حضني وضممتها إلى صدري متنشقة

رائحة النقاء. هدأت في حضني وكفّت عن البكاء كأنها عرفت بحدسها الطفولي أنها ستهديني هدوءها لأهدأ. كنتُ أقبّل رأسها وأنا أناجي: لؤي، لؤي...

مَنْ غيّر بلده فقد غيّر كل شيء في حياته. هل اكتشفتْ تلك الحقيقة متأخرةً، أم إن أحداً قالها أمامي. لكني أدين لطفلة في عمر لؤي بجعلي أتوازن وبدعمي لأقف على رجليّ، فقد تعلّقت بي تلك الصغيرةُ على نحو غريب. كانت لي بمثابة رحمة وعون إلهيين حين كدت أفقد الأمل كلياً. صارت لا ترضى أن تغفو إلا في حضني. كنتُ ألاعبها وأُطعمها خانقةً دموعي ونزف روحي، وكنتُ شديدة الدهشة من قدرة امرأة مسكونة بالوجع على إدخال الفرح إلى قلب طفلة.

لكني صرتُ ألاحظ الغرابة في تصرفاتي، إذ صارت تنتابني وساوس عجيبة فيصيبني هلع شديد عند عبوري الشوارع متخيلة أنني سأموت حتماً بحادث سير. وصار منظر طفل بعمر لؤي يجعلني أرتعش قلقاً، وأتخيل ابني مريضاً، ثم أصبحتُ ضحية نوبات مفاجئة وغير مبررة من نفاد الصبر إزاء أتفه الأمور.

عرفتُ في ما بعد أنني أموّه جراح روحي بتلك الوساوس. تعامل أخي وزوجته بذكاء مع جرحي إذ رفضا التحدث عنه. عاملاني كما لو أنني عازبة، حتى إن أخي كان يتعمد أن يتجاهل حزني ويتحدث معي عن

العمل وضرورة تطوير معلوماتي الهندسية لأحقق نجاحاً في العمل وألفت نظر رؤسائي. تألمت في البداية من أخي واتهمته بالقسوة، فهو لم يواسيني بكلمة، ولم يكفكف دموعي، لكني أدركت أن أسلوبه هذا كان أكبر حافز لي لتجاوز ألمي الخاص، إذ وجدتُ نفسي بعد أشهر من العمل في الغربة معتصمة بالصمت الأقرب إلى الاحتقار لكل ما عشته مع أحمد، وله تحديداً. وبرغم أنني كنتُ أشتاق إليه كثيراً وأقضي ليالي طويلة متمنية وصاله، إلا أن حقدي عليه أخذ ينمو... المهم أنني تجاوزتُ خطر الانهيار الكامل الذي لا شفاء بعده.

ما أدهشني أنني استطعتُ أن أجد بين أنقاض الكارثة بصيص أمل، وأخذ هذا الأمل المحيّر الأشبه بسراب ينمو يوماً بعد يوم مخترقاً يأسي الرمادي الكثيف. فمن أين انبثق هذا الشعاع الوردي الدافئ الذي يومض في روحي فيدفئ أطرافي المثلجة من نقص الحب؟ أجهدتُ نفسي من التفكير، فعرفتُ أني لا أزال متأملة أن أعود إلى زوجي، وكنتُ أنتظر تلك العودة انتظاراً آلياً من دون أن أفكر كيف ستحصل.

لم أكن معتادة على هذا القدر من الحَرّ والقيظ، لكن أسعدني أنه مرآة أشواقي اللاهثة. أشعر وأنا أتسكع ليلاً حيث يصير الجو لطيفاً في طرقات مدينة غريبة ومذهلة بإغوائها، بأنني أبحث عن قلبي، وأقتفي آثار

حب ضائع. أناجي أحمد ولؤي، وأعتذر من صغيري لأني تركته وأعده بأنني سأرجع إليه قريباً. أستعيد حواراتنا الطويلة ـ أحمد وأنا ـ وخططنا المستقبلية التي نُسفت كلها. صرتُ أفكر في وجه الشبه بين الحب والموت، فالرجل الذي أحببته قدّم إلي حباً عظيماً وموتاً عظيماً أيضاً. تُرى، هل الحب والموت وجهان لعملة واحدة!

صار علي التعرّف إلى الإنسانة الجديدة التي صرتُها، فقد تبدّلت طباعي. وكان أكثر ما يؤلمني الرغبة في البكاء بعد الغداء. لم أفهم سبب تلك الرغبة، لكني عرفت أنها تذكرني بالقيلولات الدافئة مع أحمد. لا ينتظرني الآن سوى الفراغ الموحش. أتمدد على سرير الغربة محاولة تجاهل جسدي الصارخ بالشوق، مرتعبةً من مجرد التفكير في ملامسة مكامن اللذة. أحاول التخفيف من توتري بأن أناجي أحمد كأنه بجانبي. أحثّه على الكلام، لكن خيالي لم ينجح مرة واحدة في جعله يتكلم.

أشعر كيف يُظلم وجهي ويشحب يوماً بعد يوم، فأنا أعيش حالة من رعب الانتظار. تمر الأيام والأشهر وأستيقظ كل صباح والدموع تملأ عيني. أقف عند النافذة أمنح الأبنية نظراتي المشتاقة، وأهمس باسم لؤي بتضرُّع. يسحقني شوقي إلى لؤي سحقاً حتى أبدو من شدة الانسحاق فاقدة الحس.

أغلّف روحي باللامبالاة وأخرج من غرفتي للقاء أخي وأسرته. تقفز نورا وتجلس في حضني فتسطع روحي بومضات السعادة.

لاحظ أخي أن صوتي يرتجف في الصباح حين أتحدّث معهم. تُرى ما سبب اختلاج صوتي صباحاً؟! كأنه يتذبذب مع مشاعري ويحتاج إلى قوة تضبطه. عرفتُ السبب بعد تفكير طويل، فأنا أرغب كل صباح في بدء الحوار مع زوجي وابني، ويفيض الكلام المحبوس في روحي إلى فمي، لكني أتنبه إلى غيابهما فأصوغ كلاماً آخر متناسباً مع حالتي المستجِدة والوجوه الجديدة حولي، فألجم صوت أحاسيسي وأخنق كلمات شوقي.

أذهب إلى عملي في الشركة الإيطالية الضخمة التي يعمل فيها أخي؛ شركة عملاقة لديها مشاريع كثيرة في دبي. أشعر بالعجز وأتخيل أنني غير قادرة على رسم خط. ولكن، برغم الوهن الكبير في روحي والدموع التي تغلّف عيني، فثمة شعاع تحدٍّ يُجبرني على المضي في طريق مجهول؛ طريق لا أعرف نهايته. يعربد فجأة شعاع عبثي في روحي، فأتضجّر من مصيبتي وألمي وأسمع صوتاً متحدياً يصرخ بي: ألم تملّي الحزن؟! تُدهشني تلك المرأة العبثية التي أخذت تنمو على

حساب المرأة الرومانسية في أعماقي. من أين انبثقت؟! أكانت غافية في أعماقي أم ثراها ولدت بعد المصيبة؟

صرتُ أفكر في هؤلاء البشر الذين لا يوجعهم شيء ولا يشعرون بتأنيب الضمير. لا أفهم كيف يفكر هؤلاء البشر وكيف يتصرفون. إنهم يعيشون ممتلئين بذاتهم لدرجة لا يشعرون بأنهم يسممون حيوات أقرب الناس إليهم، ويعبرون الحياة من دون أن يلامسوا جوهر الأشياء ومن دون أن يكسرهم حب حقيقي أو عاطفة إنسانية نبيلة.

لم أتوقع أن يكون العمل ملاذي، فما إن أجلس وراء مكتبي حتى تنقلب حالتي المعنوية تماماً. أبالغ في الرقة واللطف مع من حولي كأنني أستحثهم على أن يكونوا رحماء معي. ليس مثل الحنان دواء للقلوب المنكسرة. وقد بكيث من السعادة يوم أحضرت لي زميلة هدية تذكارية بعد عودتها من رحلة سياحية وشكرتها على تلك اللفتة الإنسانية الرائعة: الذوق أساس الضمير.

قدّم إلي العمل عزاءً من حيث لا أتوقع، فمعظم زميلاتي مطلقات أو يعانين من مشاكل زوجية تهددهن بالانفصال كل لحظة، فكنت أستعيد في ليل وحدتي الطويل تلك الأحاديث، وأحاول تصنيف معاناة النساء، فأجد نفسي أمام تساؤلات، أحتار من يجيبني عنها،

فأنتصب واقفة في قلب الليل أشبك يدي أمام صدري وأنظر إلى السماء البعيدة حيث تلتمع نجوم صغيرة كأفكاري المشتتة؛ نجوم تضيء هنا وهناك. توحدني السماء القصية مع ابني وزوجي، فأحس بروح الله تراقب عباده، وأسأله بلهفة: هل قُدّر لي أن أمر بتلك التجربة القاسية!! أأنت من أردت ذلك؟ أرهف السمع كي أسمع الجواب؛ أرهف السمع أكثر فأكثر فتنهمر دموعي من دويّ الصمت، ثم لا مفر لي من ابتلاع حبة صغيرة وردية لأغرق في النوم.

مرّت الأشهر الأولى للطلاق وإحساسي بجسدي غائب، جسدي الفتيّ الذي اعتاد الاندماج بجسد يحبه ويمتّعه... كنتُ وقتها مرضوضة من الصدمة، فأتذكر كلَّ صباح مصيبتي وأعيد إنتاج أزمتي. أشعر كل صباح بأن الحياة تصفعني، وكم من المرات رغبتُ في الانهيار والاستسلام لليأس التام. أليست الراحة في عدم المواجهة. لماذا، إذاً، لا أنهار وأستسلم لليأس؟ صار جوع الجسد بعد أشهر طويلة من الغربة، يذلني ويلحُّ عليّ فأضطر رغماً عني إلى تخفيفه بإمتاع نفسي مهزومة ومنكسرة عارفة مقدار ضعفي. كنتُ أمتّع نفسي متخيلة أحمد ملتصقاً بي، أستحضر بذهني جسده الفتيّ الشهي. لم أكن أعرف من قبلُ وقاحة الغريزة. إنها تعوي في قلب الليل وفي ازدحام العمل ووسط الناس مطالبة

بحقها من الإشباع. لا تخجل من الطلب وكلما حاولتْ قمعها ازدادت شراسة.

تُرى، ما دواء جوع الجسد هذا؟! سؤال لا يمكن تجاهله. صرتُ أحتقر نفسي لأن صور خيالات جنسية تحفّ بخيالي دوماً وأنا في قمة انشغالي بعملي، ثم بدأ جوع الجلد يولّد في عقلي أفكاراً مجنونة. لِمَ لا أقيم علاقة مع أحد المتوددين لي في العمل؟ لقد طلّقني أحمد وتحمّل بعدي! الإهمال جريمة حقيقية... يوقظني فحيح الشهوة من النوم ويجعلني أتحسس جسدي متخيلة أن أحمد يخترقني، ثم مللتُ من الحلم نفسه، فصرت أتخيل رجالاً آخرين مبهَمين.

أصرخ: أين الرجل في حياتي؟ صور فاحشة تغزو خيالي، أشعر بلذة خُلبيّة. لِمَ لا أستسلم للغواية. الجنس شفاء وحياة، والأهم أنه مخدر للآلام.

لكن، هل سأهب جسدي لرجل آخر غير أحمد!! مستحيل. فسوف أنتظره مهما طال الوقت. لكني صرتُ شهراً بعد شهر أتململ من الفضيلة؛ تلك الفضيلة الزائفة التي تتغذى من القهر والحرمان. ثم ما الجسد وما الروح؟ وما جوع الجسد، وجوع الروح؟ ترى ما العمل؟ أقف حائرة منهكة ومشتتة تجاه الصراع الشرس بين الفضيلة كما لُقّنتها، وعفوية جسدي الفتيّ الذي يرفض الإذعان لمفاهيم غريبة عن طبيعته.

كنتُ أتصل بأحمد من وقت إلى آخر ويتصل بي ليطمئنني على لؤي، وعلى نموه وطلوع أسنانه وخطواته الأولى. أقبض على السماعة بقوة أكاد أهرسها كأني أتمنى لو أقبض على الصوت المتسلل عبرها؛ ذلك الصوت الذي كان قلب حياتي.

قررتُ بعد عام ونصف العام الرجوع إلى بلدي. سأبقى قرب ابني، سأسترده. إن قرر أحمد عدم الرجوع إليّ، فهو حرّ، أما ابني فهو قطعة مني، ولن أقبل بعدُ أن أعيش بعيدة عنه...

لم أفهم أبداً لِمَ قَسَتْ علي الحياة بوحشية، فكل الهدايا التي حملتها لصغيري انتهت إلى التدمير والتحطيم لأن أحمد سافر إلى أميركا مع الصغير ليكمل اختصاصه في الجراحة التجميلية...

ـ ألم أقل لكِ إن الجلسة الثانية أسهل من الأولى.

أفقتُ من غيبوبة الذكريات... تأملتُ الممرضة بعينين زائغتين، مسحت عرقي، وقالت لي وهي تسحب الإبرة من وريدي:

ـ الدكتور مسعود في مؤتمر علمي، قال إنه سيتصل بك حال عودته...

دعتني الممرضة إلى شرب فنجان قهوة في مكتبها، لم أشأ رفض دعوتها. قاومت الغثيان وشربت القهوة، لكني تقيأت فجأة ما شربته كما لو أنني أتقيأ الذكريات.

الجلسة الثالثة

نظري معلّق بزرقة السماء، كأنها تذوب فيّ. كم أحس أني بعيدة عن حياتي. كم أنا مهزومة، وخائفة، وأحس بالحسد للأصحاء. للأسف، لا يقدّر الإنسان نعمةَ أن يكون بصحة جيدة. أدرك بقلق التحوّلات الروحية العميقة التي تهزني، وأشعر دوماً بأن هناك شيئاً ينهشني من الداخل. لعلها خلايا السرطان تسرح في دمي، ويُرهقني دوماً إحساسي بثقل مُنهك على كاهلي: إنه ثقل الحاضر؛ ثقل حياتي الحالية بلا مستقبل.

كم صرتُ مطيعة، أستسلم للممرضة تغرس الإبرة في وريدي وتحدد سرعة السيروم الممزوج بالأدوية القاتلة للخلايا السرطانية وللبهجة. تبدو لي حياتي بعيدة وغريبة عني. أدرك مدى خسارتي، أكرر لنفسي مراراً: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلاّ المرضى. تدمع عيناي؛ أبكي بسبب الضغط العصبي الشديد الذي أعانيه، وأشعر أحياناً بأني أصابُ بالغباء لشدة هذا الضغط العصبي. أسمع في الخارج دوي الحياة، وأستعيد مشاهد بشر يأكلون بشهية ويمشون بسرعة.

كم صرتُ أحس بالغثيان كلما شممت رائحة طعام واخزة. في أعماق قلبي نداء، نداء حار لكل ما هو ممتع وجميل ودافئ: أريد أن أعيش. بي لهفة للحياة، للعيش. ما أحلى أن نعيش! أتحوّل لشدة ما أحب الحياة إلى شعلة حب في كائن من لحم ودم. تجتاحني موجة غثيان تعصف بأحشائي ويتصبب عرق بارد من جسدي، ثم لم أعرف تعباً يشبه هذا التعب. إنه يهدُني هداً. أغمض عيني. يجب أن أتقبّل هذا العذاب، فهو مجرد عبور. يجب أن أدفع ضريبة صحتي الجديدة؛ يجب أن أدفع ضريبة العبور من ضفة المرض إلى ضفة الصحة. تهزني رعشات متلاحقة. تقرقع أسناني، دموعي لزجة. كم أحس بلهفة إلى ابني، أهمس باسمه: لؤي، لؤي، ثم يعلو صوتي أكثر. يُطربني صوتي المضمَّخ بالحب. كل مرة ألفظ اسمه بطريقة مؤثرة ومختلفة... هيا لأهربْ إلى الذكريات، فها هي السماء تساندني وتنقّي صفحتها من كل غيمة عابرة. فلأحاولِ الاسترخاء كي تتسلل أفكاري بنعومة من ذاكرتي. أبتسم هازئة، صرت حفنة ذكريات ومشاعر... وتنفلت على الشاشة العريضة صور من ثقب في ذاكرتي

وجدتُ نفسي في وضع كريه ولاإنساني: العيش من دون رجل. ففي هذا البلد لا يوجد حل وسط: إما الزواج أو العنوسة. كنتُ أراقب تحوّلات روحي وجسدي كما لو

أنني حالة للدراسة، وكلما طالت المدة التي تفصلني عن عالم الرجال شعرتُ بشيء يتعقّد فيّ، كدملة يتسمك جدارها ويصبح وصول الدواء إلى قلبها مستحيلاً. أتأمل الحزن الوحشي الملازم للكبت، وأصرخ بعد صمت طويل طويل: لا شيء باطلاً، كأن يمر العمر بالحرمان من أجل أن عليّ الحفاظ على عفة زائفة؟ من أجل أن أترك جسدي يذبل؟ ورغباتي تموت.

أن أعيش هنا في تلك العقلية الجامدة فأمامي احتمالان: إما أن أصير بلهاء، أي أسلّم بما يرسمونه لي وأقنع نفسي بأنني مؤمنة به، أو أشك في كل شيء وأعيد إنتاج حياتي، بمعنى ما أن أغدو فيلسوفة. وقد اخترتُ الاحتمال الثاني الشائك والخطير، فبدأت أفكر في حياتنا والقيم التي تتحكم بها، كما لو أنني أتفرج على فيلم مثير. القيمة الأولى التي رُبينا عليها نحن النساء، هي الخوف من الحرية، ومن الرغبات التي هي بطانة الحرية.

أن تعيش المرأة رغباتها العفوية وانفعالاتها، يعني ألا تكون محترمة! يُرعبني هذا الربط الخطير الذي لا يستنكره أحد لأنه صار من مسلّمات تفكير المجتمع الشرقي. تتكاثر الأسئلة في ذهني انطلاقاً من تلك الحقيقة: ما معنى امرأة سوية إذاً؟!! يفرز عقلي جوابهم الجاهز والمعلّب: أن تلتزم المرأة بالنموذج التقليدي

للإنسانة التي يقولون عنها أخلاقية وصالحة، أي ألا ترتكب نزوة ولا تتمرد ولا تضجر، ثم أن تكون سعيدة بالدور الذي عليها القيام به: أم صالحة، أخت صالحة، زوجة صالحة... لكن، لا يوجد تعبير عشيقة صالحة، لأن الانفعالات العاطفية والعلاقات الحميمة تدخل ضمن إطار المحرَّمات.

كنتُ أراقب بعينين قلقتين تصاعد نسبة التعنيس وذبول الشباب البطيء! ترى، كيف سيعيش هؤلاء الشباب ـ تحديداً النساء ـ بدون زواج؟! كنتُ أعرف عشرات الفتيات ذوات التحصيل العلمي العالي فاتهن قطار الزواج لأسباب عديدة على رأسها الأزمة الاقتصادية، فتثير كآبتهن في نفسي شفقة وألماً. لا يملكن وسيلة للتأقلم مع ظروفهن وتلك العقلية المتخلّفة المسلَّطة على رقابهن كحبل مشنقة. لا يملكن سوى محاولة سحق غرائزهن كلياً، لكن يبدو أنه يستحيل سحق تلك القوة المؤسِّسة للحياة تماماً، ومن المحال وَأْدُ تلك الغرائز التي تفور من ينابيع خفية في أرواحنا وتفاجئنا من وقت إلى آخر بفورات جامحة تكاد تطوح بحصانة العقل... فالحل يكون بالصبر الذي يفوق صبر الحمير، ومحاولة إبعاد تلك الغرائز قدر الإمكان من مجال الوعي ورفسها إلى ظلام اللاوعي وجعلها تعيش منبوذة في هامش ضبابي خارج يومنا، ونسمح لها من

وقت إلى آخر بأن تتغذى بأفكار مجنونة وفاحشة ولامعقولة، لكن المهم ألا تهدد أمن العقل وقيمه الراسخة في أعماقنا والمتوارثة جيلاً بعد جيل... يجب أن نكون كما ينتظر منا الآخرون...

كنتُ أتأمل بقلب حزين ومتعاطف نساء رائعات كيف يذوين من الحرمان والكبت، وكيف يستسلمن لتلك السلطة المجهولة المقنَّعة التي تُمارَس على النساء بشكل موارب وبمجرد التلميح!! لم تكن هناك وصايا صريحة كالوصايا العشر، فالنساء يعشن بالتلميح ما يجب أن يكنّه: إن لم تتزوجي فيجب أن تكوني محترمة، أي ألا تتخذي عشيقاً، وألا يمسَك رجل كي لا تفقدي احترامك لنفسك واحترام الناس لك.

حياة المرأة هنا ـ إن لم تتزوج خاصة ـ أزمة حقيقية. تنبهتُ إلى أن المبالغة في امتداح عفّة النساء وتقدير سمعتهن العطرة ليست سوى شكل مخادع لإخضاعهن. ما قيمة امرأة صارت سمعتها في الوحل! كيف لعشيق أن يمرّغ سمعة امرأة، وينقل فتاة محترمة إلى خانة العاهرات! يضيع عمر مئات النساء الرقيقات المحرومات من التحسّر، التحسر على الشباب وعلى العمر الذي يذوي سنة بعد سنة... صرتُ مولعة في تحليل النظرات، كيف تفقد النظرة تألقها مع العمر وبسبب الحرمان واليأس... كيف تُصبح شخصية أولئك الفتيات العانسات

مُرهقة ومتشائمة وشاحبة... وما معنى الاستسلام لتلك السلطة المجهولة التي تمجّد العفّة كما لو أنها مجد إلهي.

لكن الخضوع لتلك القيم السائدة يعطي إحساساً بالسلام الزائف، ويعني من جهة أخرى عدم إثارة صراع مع المجتمع، وعدم إثارة غضبه ونبذه. قالت لي إحدى صديقاتي التي نجحت في سحق غرائزها: أشعر بالضآلة.

لم أقبل بأي شكل من الأشكال أن أكون إحدى أولئك النساء، خاصة أن معظمهن صرن لا يملكن سوى الكراهية سلاحاً وحيداً يقاومن به الظلم الواقع عليهن. صرن يكرهن بعضهن والناس حولهن لأسباب تافهة ومُختلَقة، ويعشن زخم كراهيتهن بقوة الزخم نفسها لحُب لا يمكنه أن يتحقق. كانت أحقادهن تعني صرخة في وجه المجتمع: طالما حُرمنا من زخم الحب فلنعش زخم الكره.

كانت رغبات أولئك النساء (العانسات) تُتلَف وتتعفن كثمرات ناضجة أهملت عن عَمد في زوايا الحياة القصية، فتلفت ببطء مدمّر للأعصاب. وهكذا، كنتُ مستنفرة كلياً بمراقبة تلك المظاهر التي تبدو طبيعية وتحمل في طياتها تشويهاً كبيراً للزخم الأنثوي الرائع الذي تنبع منه الحياة. أكثر ما يُحزنني أن أسمع أولئك

النساء وأراهنَّ يتهكّمن على عفتهن كوسيلة تخفيفية لتمردهن، ثم إن مبالغة المرأة في الاهتمام بشكلها ـ الشيء الوحيد الذي تملك سلطة عليه بعد أن ذبلت روحها ـ تعويض عن الحرمان. كنتُ ألاحظ فتيات كيف تحولن بالموضة والماكياج إلى صواريخ جنسية حقيقية، لكنهن لا يسمحن بأن يلمسهن رجل!! كن يمتلكن أجساداً مثيرة من أجل لاأحد!

ربما تعلمت أو تفاعلت بشكل مختلف مع تجارب الحياة القاسية، فخرجت بشعار: لا أحد له سلطة علي سوى سلطة ضميري. فأنا أنثى حرة، سيدة مُطلقة لست بحاجة إلى وصاية أحد على روحي وجسدي. ولكنْ، ثمة سؤال قضَّ مضجعي وحيرني: كيف سأعيش؟! سؤال أربكني، وتمنيت الهروب منه، فطالما رفضت الشكل المفترَض بامرأة غير متزوجة أن تلتزم به، فكيف سأعيش إذاً؟!! أدهشني هذا الخواء، هذا اللاجواب، هل يُعقل أن يكون الجواب لاشيء! كنتُ أجلس في الحميمية الصامتة لليل أحاول رسم حياتي، وقررتُ بعد تفكير اتخاذ عشيق من طبقة فقيرة، فهذا أفضل من اتخاذه من طبقة المثقفين الذين يعتبرون أنفسهم آلهة ويفضحون تجاربهم الجنسية كما لو أنها خبطة صحافية، ويتباهون ويستعرضون علاقاتهم الغرامية. الجنس في هذا البلد امتياز للرجل، وعارٌ على المرأة؟

فكيف سأحل اللغز؟! لم يكن ميلي الجنسي يُخجلني، بل صرتُ أقدّر تلك الطاقة الحيوية وأحميها من التلف، لذا قررتُ وأنا مفتحة العينين أن أغويه ـ عشيقي الفقير ـ.. كان مجرد نادل في مطعم، شاب جميل يلبي طلباتي ويوصل لي الطعام الذي أطلبه، متزوج ولديه طفلتان، لكنه يطمع بأن تنجب زوجته صبياً، وكنتُ أعطيه بخشيشاً جيداً وأراقبه كيف يدس المال في جيبه وهو يُمطرني بالدعاء.

صرتُ حرة ومتحدية إلى الحد الذي كنتُ أقول فيه لنفسي: ليس هناك أجمل من تحقيق أفكار مجنونة، فمن حقي أن تكون لي أسراري وعالمي الخاص. طيبْ، ماذا أفعل حين تنتابني حالات اشتياق هائلة إلى رجل، حين أحلم لأيام طويلة برجل لا وجه له، لكني أحتاج إليه بكل كياني، وحين يحل الليل الطويل وأنا مثابرة على مصارعة أشواقي وغرائزي مستسلمة للنوم أخيراً كاستسلامي لليأس... وحين تأتي أيام العطل والأعياد فتبدو لي مفزعة بفراغها وساعاتها البطيئة التي تحرق أعصابي، فأكرس نفسي لإضاعة الوقت...

لم أملك يوماً القناعة بأن أعيش وحيدة من أجل مجد العفة ذي الرائحة العفِنة. لا أعرف أين قرأت تلك العبارة: «جهنم هي أن نعيش بلا حب». حاولت في مرحلة من حياتي أن يكون شعاري في الحياة: الزهد.

لكن رغبتي في نسيان توقي إلى الرجل كانت أقوى محرّض لإثارتي. أنظر إلى نفسي في المرآة فأجد صورة امرأة هدّها التعب من الصراع مع رغباتها. أفكر كلما طال الزمن الذي يفصلني عن الرجل، كيف تصبح الحياة عصيّة على الفهم، وأشعر كما لو أن عينيّ تنظران من خلال ضباب، وتصير لأفكاري حوافّ غائمة كأنها كتابة مبللة بالخوف، وأطيل التفكير في الموت. هل تقي العلاقةُ الجنسية من رهبة التفكير في الموت؟ المحصلة قنوط كثيف، ولكن، كانت تولد من قلب هذا القنوط قوة خبيثة تدفعني إلى افتعال نزوة من دون أن أعرف كيف، ولماذا؛ نزوة تطوح بكل الحجج المنطقية والعقلانية؛ قوة تنسفني من جذوري ووضعي الاجتماعي وتلقي بي في أحضان رجل، لا يهمني منه سوى أنه شاب وجذاب، وأظل أياماً بعد تلك النزوة لا أجرؤ على التحدث مع نفسي ولا النظر إلى وجهي في المرآة.

انقاد لي النادل المسكين كالمنوَّم مغناطيسياً. لم أقل له كلمة واحدة قطُّ جعلته ينتبه إلى عيني ويفك كَنَه تلك النظرة العميقة كبئر بلا قرار؛ تلك النظرة الفاترة والمتعطشة في آن وترى شبهاً لها في عيون النساء المحرومات والمكبوتات... لم يتطلب المسكين أي جهد لغوايته، شعرتُ كيف انتعشت بشرتي الذابلة ـ الحياة

ذكر وأنثى ـ. وظلت عيناه في اللقاء الأول مذعورتين وزائغتين، لم يفهم ما يحصل، وكيف يمكن لرجل مُغدَم مثله أن يضاجع امرأة ثرية ومتعلمة ومثقفة ومن طبقة اجتماعية راقية. حسدث الرجال، فالرجل مهما تكن طبقته يحق له أن يضاجع خادمة من دون أن يحس بالدونية أو تأنيب الضمير.

فكّرتُ إن كان عليَّ أن أعطيه مالاً، فالرجل يعطي ـ المرأة الدون ـ مالاً حين يضاجعها، لكني قررتُ أن أقدم هدايا إلى أولاده. أعطاني عشيقي الفقير متعة صافية وأعفاني من نفاق المثقفين وكلامهم المشبَع بالكذب والتملُّق. إنه مجرد رجل نقي صامت، التقى الأنثى المتمردة والثائرة في أعماقي.

يبدو أني عقدت النية على السباحة ضد التيار، لكن المشكلة تبدأ في ما بعد هذا الوصال الرحيم، إذ تستيقظ تلك الإنسانة المستبدة في أعماقي وتبدأ بازدرائي واحتقاري. أشعر بأن المتعة والكراهية متلاصقتان لدى المرأة، فلكي أشعر بالمتعة علي أن أكره نفسي وأحتقرها في ضعفها! وأظل أياماً مشوشة بإحساس الخزي، شاعرةً بأني أحطّ من قيمة نفسي وأنا أنحدر إلى مخلوق أدنى مني. أشعر بأني أعيش تحت مستوى الكرامة، وأنظر بمرارة إلى تلك الحالة من هياج الشوق التي دفعتني إلى أن أضاجع رجلاً وضيعاً. لكن

الجوع كافر. ألا تصح تلك العبارة على جوع الروح والجسد أيضاً! لماذا أتعذب كل هذا العذاب لمجرد نزوة؟!

صارت تلك النزوات المبتورة التي تبدو لي خارج كياني الإنساني وغريبة عني، تزيدني أسىً ومرارة. ولطالما قسوتُ على نفسي لأيام طويلة وأعود بعدها أرأف بحالي صارخةً في وجه الجلاّد الطالع مني بأن لا شيء يحدث من دون أسباب، وبأن لي حججي وأسبابي لخوض هذه النزوات. وكنتُ في فترة الهدوء التي تعقب صراعاتي، أستعيد بذهن صاف وقد تبددت غيوم الخجل والخزي منه، ما حدث، فأعذر نفسي وأجد الحكمة والإلهام في حياتنا الضبابية، فأنا لم آثم بحق أحد، بل هي مجرد رغبة، ومجرد لهفة عذبة ومُغيَّبة دوماً من حياتنا، أسعى إلى أن أبعث فيها روحاً جديدة.

## الجلسة الرابعة

أهوي جلسةً بعد جلسة إلى حزنٍ سحيق. لا يحدثني جميع من حولي إلا عن حالتي الصحية وعلاجي، فيثيرون في نفسي اليأس والاشمئزاز. ألا يعني سؤالهم الوحيد عن صحتي ونظراتهم القلقة المتعاطفة أنهم ينكأون جرحي ويذكّرونني بمرضي. أظن أن خوفاً عميقاً معششاً في أعماقي أحاول تجاهله وقمعه، يدفعني إلى الاشتباه بكل إنسان، فأشعر بأن كلامهم مبطّن، ونظراتهم محيِّرة، وابتساماتهم إيماءات لأشياء لا يريدونني أن أعرفها.

استيقظتُ اليوم متجهمة. لم يهدأ هاتفي عن الرنين. تنبهتُ إلى أن صوتي يبدو مرتشحاً بالتحدي والإصرار على المواجهة، حتى ضحكاتي تصير ضحكات احتقار صغيرة لوجه السرطان البغيض.

هناك معركة خفية بيني وبين السرطان. وكنت برغم خوفي وشعوري بالاختناق من ذلك الزحام الرهيب لأحاسيسي المضطربة والقلِقة، مصممةً على هزيمة المرض، لكن يجب أن أعترف بأني لم أكن أدرك أن هوَة

اليأس عميقة إلى هذه الدرجة. لقد مررتُ بتجارب كثيرة، كنتُ أشعر فيها باليأس، لكن يأسي الآن كثيف وطاغ ولا مجال لخداع النفس فيه.

أشعر الآن بأنني مهدَّدة في صميم وجودي، وأن بساط الحياة سينسحب من تحت قدميَّ ببطء. أقود سيارتي، أتفرَّس في مظاهر الحياة حولي بنظرات شغوفة ومتحدية في الوقت نفسه. هل سأحرم من كل هذا الدفء وصخب الحياة حولي؟! أشعر بأني أتحوّل إلى قنّاصة فُرص، وعليَّ أن أقتنص كل مظاهر الحياة حولي لأنها صارت مُغلقة دوني. أنا خارج قوسَي الحياة أحاول خلق حوار حميمي مع نفسي لأرفع معنوياتي قبل وصولي إلى مركز الطب النووي. لكن أكتشف أني فقدتُ سلاسة العبارة. جُملي مفككة وعباراتي متقطعة وأشعر بفجوات من النسيان في قلب دماغي. لم تعد لغتي رشيقة طيّعة متدفقة. تُرى، هل أثّر الدواء في جهازي العصبي أم إن حالتي المعنوية المتدهورة تشوش ذهني. وكنت على الرغم من كل شيء أحس بتعالٍ على الوضع الذي أنا فيه: فأنا أكبر من نفسي وأكبر من مرضي.

أتفرّس في وجهي بمرآة السيارة عند إشارة المرور الحمراء: ما الذي بدّل ملامح هذا الوجه؟! تعبّر جميع قسمات وجهي عن الإهانة؛ إهانة ألحقتها الحياة بي...

دق قلبي في المصعد بعنف، غزتني ذكرى لهب لم أعرف مثله. إنه حريق مباغت لقلبي ولكياني كله... حاولت طرد صورة الرجل من لهب ذاكرتي لكني تراجعت، فسأستحضره ذات يوم إلى فضاء وحدتي وسأستعيد ذكرياتي الملتهبة معه...

هزتني قشعريرة قوية حين غرست الممرضة إبرة السيروم بيدي. اعتذرت الممرضة، خاطبتني بحنان:

ـ آسفة، هل آلمتك؟

ابتسمت لها أطمئنها إلى أن القشعريرة ليست بسبب وخز الإبرة، بل لاستعادة حريق في ذاكرتي.

أحس حين أتذكره بأنني أستعيد ذكرى ذلك اللهب الذي اشتعل في كياني طويلاً. رجل يشبه الحريق برغم مرور سنوات طويلة على لقائي به. لم أستطع أن أحل اللغز؛ لغز انجذابي إليه من دون أن يبذل أي جهد لاستمالتي، ومن دون أن يتطلب انبهاري به وقتاً أو كلاماً!

لا أبالغ إن اعترفت بأنني ذبت فيه، وقد سبب لي هذا الشعور الألم، فقد كنت أشعر دوماً بأنني أفقد السيطرة على نفسي حين أكون معه كأنني أسلّمه زمام روحي. لا أعرف لماذا بهرني بتلك الطريقة من المرة الأولى التي التقيته فيها. أهي هالة السلطة والشهرة التي تحفّ به؟

كان رئيساً لعدد من المؤسسات، فقد أسس جمعية «مناضلات» وهدفها الرئيسي الدفاع عن حقوق المرأة، وازدادت تلك الجمعية شهرة واتساعاً حتى صار لها شهرة عالمية. كما أنه رئيس الجمعية الطبية للأطباء النفسانيين وله مؤلفات هامة تُدرَّس في العديد من الجامعات، حَوْل خبرته العلاجية في الأمراض النفسية الخاصة بمجتمعاتنا، وكذلك الأمراض النفسية للمرأة العربية. وكنت مولعة ببرامجه في التلفزيون والإذاعة التي يتلقى فيها شكاوى من معذبين مجهولين فيحللها ويعطي آراءً عميقة ومبتكرة فيها.

اعتبرتُ نفسي محظوظة حين جمعتني به صدفة ظننتها رائعة. كان صديقاً لزوج صديقتي، وقد سكبت كل أحاسيسي في يدي حين ضمها بين يديه مرحباً بي ومحدقاً بعمق وإعجاب لا يخفيان في عينيَ. لا يمكنني خداع نفسي، فما كان يمور بداخلي بقسوة وعنف طوال السهرة هو حمى الرغبة. كنتُ لا أحوّل نظري عنه، وأرغب في تخزين كل كلمة يقولها وكل حركة يقوم بها.

لم أبالِ بأن الجميع لاحظ أني لا أحوّل نظري عنه منبهرةً به. سحرتني ابتسامته الساخرة قليلاً ودفء نظرته إلي الذي لا يخصّ به أحداً. أحببتُ أسلوبه في الكلام، فلم يكن لديه كاتب مفضّل أو فيلسوف مفضّل أو ممثل أو ممثلة يفضلهما على غيرهما. فلسفته في

الحياة ـ كما أحسستها ـ سخرية خفيفة من كل شيء: الحب، الإخلاص، العمل، القيم... إلخ. كان يبدو لي بلا قيم لكنه صاحب مشروع حياتي ضخم، فقد قام بجهود جبارة في مجال العلاج النفسي وتحرير المرأة، وتُعتبر مؤلفاته من الكتب الأكثر مبيعاً، وهي المرجعية لكل المهتمين بالثقافة.

خجلتُ من نفسي لعمق انبهاري به، فكيف يمكن لامرأة في السابعة والثلاثين من عمرها، بارعة في عملها الهندسي، وصقلتها تجارب الحياة وعواصفُها، أن تدور في فلك رجل مبهورة مهما كان؟

سألني:

ـ لِمَ لا تنتسبين إلى جمعية «مناضلات»؟

تضرّج وجهي بحمرة داكنة وقلتُ:

ـ أتمنى ذلك، لكني أخشى ألا أكون كفؤة.

ضغط على كتفي براحة يده فسَرت كهرباء في جسدي، وقال:

ـ إنسانة مثلك يشرفنا انضمامها إلينا.

عرفتُ من العشاء الأول الذي جمعني به، أنه أسرني وتركني بحالة عطش شديد للقائه. وفي اليوم التالي سافر من دون أن أتمكن من توديعه برغم استماتتي لذلك، فقد كانت مواعيده الصحافية مكثفة. أعادني هذا الرجل إلى مرحلة المراهقة التي ابتعدتُ عنها دهراً،

صرتُ أحلم به باستمرار أحلامَ يقظة تُخجلني، كأن أتخيل أني أراقصه ملتصقة به، أو أننا نتعشى على ضوء الشموع على وقع موسيقى رومانسية وكلمات شاعرية رقيقة! كنت أشتاق إليه بقوة، وأرتعب من سهام الرغبة المباغتة التي تطعنني في مواضع عديدة من نفسي. كنتُ أشتهيه كما يشتهي مريض السكري قطعة حلوى. لطالما حاولتُ إقناع نفسي بأن شوقي إليه ليس منطقياً، ولا يقوم على أسس معقولة.

انتسبت إلى جمعية «مناضلات» التي تدافع عن حقوق المرأة، وكتبتُ العديد من المقالات في المجلة الخاصة بها. ويوم تلقيتُ دعوة إلى حضور مؤتمر «العنف ضد المرأة» المنعقد في عمّان لمدة أسبوع، دخلتُ في حالة هياج من الفرح، وبدأت الاهتمام الهستيري بشكلي، بجسدي، ببشرة وجهي، بشعري. هل مسّني هذا الرجل بلهب الهوى؟! كيف صادرني وامتلك أحاسيسي؟!

شيء يشبه الصاعقة. يكفي أن تمر صورته ببالي حتى تنتابني انفعالات عنيفة. كنتُ أشعر كيف يشرق له جسدي لمجرد خيالات حارة تعبر ذهني، ولم أشعر طوال حياتي بهوى عاصف يهدد باقتلاعي من جذوري كما أحسستُ معه. لكن السؤال الذي يحيرني وأخشى

منه هو أن تكون شهرته تلعب دوراً رئيسياً في ما أشعر به حياله؟!

أستطيع الآن أن أفكر بعقلانية بعد أن بعدتُ سنواتٍ عن تلك الذكريات واستخلصتُ من تجربة مرضي مع السرطان حكمة فهم العالم. أستطيع الآن أن أقيِّم الأمور بمنطق: فليس هنالك ما هو أسوأ من أن نعيش أسرى شعورنا بالتفوق، فهذا الرجل المشهور الذي بهرني، مغرور إلى حدود الثمالة، ويحاول أن يعطي انطباعاً بأنه عفوي، ولا يتقصَّد إغواء مَن حوله بسلطته، وبخاصة النساء، مع أنه كان يتعمد أن يمارس في كل لحظة تلك الهالة من سحر السلطة.

كان المؤتمر في فندق «الهوليدي - إن». وصلتُ الفندق الفخم بخيال ملتهب بالهوى لرئيس المؤتمر. كنا أكثر من مئة وخمسين باحثة وحوالى سبعين باحثاً ومفكراً مشاركين في المؤتمر العالمي. كنتُ أشعر كيف أنني محمومة بالشوق، فاقدة السيطرة على ذاتي، أبحث عنه في كل مكان، أرصده كبوصلة في جميع تحركاته، وأغيّر موقعي كي أكون قربه دوماً.

تحرقني خيبة الأمل لأني أحسه مُلكاً عاماً، سيداً مُطلقاً، رئيس مؤتمر، وأنا مجرد واحدة من المشاركات. وكم دُهشت حين فوجئت بمشاعر غيرة قاتلة تحاصرني كشفرات حادة تقطّع جسدي. افتتح المؤتمر. تأملته في

بدلته الرمادية وربطة العنق الخمرية فوق قميص أبيض ناصع. كان في غاية الأناقة. ابتدأ بالابتسامة التي تسحرني، ولم أفهم من كلامه ومن محاضرته التي استغرقت ثلاثة أرباع الساعة إلا الإيقاع الحار الذي تضطرم به أحاسيسي. كل شيء فيَّ مُترَع بالخيال والرغبة. هل بحث عني وسط تلك الوجوه؟ كان هذا ما يشغلني. هدَني الشوق وفكرتُ في أنّ أشقى ما في الحياة هو الحرية. ألم تورطني حريتي في مشاعر ومواقف صعبة! تتالت المحاضرات وأنا منهكة بشوقي إليه ومكتوية به. انتظرتُ العشاء بصبر نافد، وكم أحسستُ بخيبة حين سلّم علي وقبلني على وجنتي بالطريقة نفسها التي مارس بها سحره وإغواءه على المشارِكات في المؤتمر. أجهدتُ نفسي كي أبحث عن خصوصيتي لديه، لكن عبثاً. لم أشعر بأنه متلهف إلى لقائي، ولا إلى الانفراد بي. إنه ملكٌ عام. كنتُ أراقبه بانتباه شديد، فلم يفتش عني مرة واحدة. ارتميتُ إلى مقعد بعيد في صالة الطعام الواسعة أتوسل الفراغ بعيني. وألعن اللحظة التي لبيت فيها الدعوة، متخيلةً أنني سأمضي هذا الأسبوع وسط عذاب لا يرحم. لكن هذا الرجل يُدخلني في ذهول الانخطاف، فها أنا أعبده وأتحرّق إلى لقائه، وأحاول تعزية نفسي وأوهمها أنه

يرغب فيَّ، وليس لي من دليل سوى حدس أنثوي خائب.

احتجتُ تلك الليلة إلى حبوب منومة كي أغفو. عشتُ كوابيس مشوشة مشحونة بمشاعر عنيفة غامضة، وخرجتُ في الصباح الباكر من غرفتي كأني أفرّ من الجحيم. جلستُ في صالون الفندق الشاسع أبحث عن نظرة إنسانية أعرف أنني لن أجدها، وأعرف أني لن أحظى بها. حاولتُ أن أهدأ. أسعدني أن جسدي رخو وحركاتي بطيئة بتأثير المنوم. تناولت فطوري وقد شعرتُ بأن وزني انخفض بسبب عنف انفعالاتي. ذهبتُ إلى حضور برنامج المحاضرات بذهن متعب. لم أكن أعرف أنه في مكتبه الخاص يستقبل المثقفين ويستمع إليهم. عرفتُ ذلك عند الظهيرة وأنا أتناول غدائي مع صديقة جزائرية نشأت بيننا فوراً صداقة متينة، عززتها الخيبات المشتركة المتراكمة بيننا. قالت لي إنها دخلت مكتبه وعرضت عليه رغبتها في ترجمة كتاب لكاتبة ألمانية أجرت دراسة مطوّلة عن العنف ضد المرأة. ارتجف صوتي وأنا أسألها:

ـ أين يقع مكتبه الخاص؟

قررتُ أن أزوره في فترة بعد الظهر. لبستُ أجمل فساتيني، وقد غادرتني للحال حالةُ الوهن التي أحسها، فقد دبّ نسغ الأمل في شراييني وتفتحت براعم الرغبة

العطشى. دخلتُ مكتبه فانتفض يسلّم عليّ بحرارة. كان لديه زوار، ولكنه دعاني إلى الجلوس. أثنى أحد الجالسين على أناقتي، فأحسستُ بسعادة طاغية كما لو أن إطراءه قدّم إليّ جواز مرور إلى عالم الرجل المشهور الذي أشتهي الولوج إليه. انصرف معظم الزوار ولم تبقَ إلا صحافية في عقدها السادس متصابية وخفيفة الظل دعتني إلى الجلوس بجانب الرجل الشهير لتلتقط لنا صورة. أمسك يدي وأجلسني على مسند كرسيه وقد التصق ظهري بكتفه، شعرتُ بنار الرغبة تلسعني، وتُضرم ما تبقّى فيّ من رماد خامد. قالت الصحافية:

ـ اللقطة رائعة، سأعطيكما الصورة قبل نهاية المؤتمر.

استأذنَتْ بالانصراف. لم أستوعب أننا صرنا وحيدين. كنتُ أتأمل مكتبه الواسع: الطاولة الكبيرة من خشب الزان محاطة باثني عشر كرسياً مع المقاعد الجلدية الأنيقة. صار قلبي يخفق بعنف وينتفض كما لو أنه دجاجة ذُبحت. اقترب مني من دون أن يتفوه بأي كلمة. سحبني من خصري، فاستجبتُ كالمسحورة. ألصقَ شفتيه بشفتي في قبلة إلهية؛ قبلة لها مذاق الخلود؛ قبلة أعجز عن وصفها. وظللتُ لسنوات طويلة أستعيد سحر تلك القبلة بلذة نادرة، وأسكر بالإحساس الفريد والمُدهش الذي تمنحني إياه، كما لو أنني أريد أن أضم

بداخلي تلك الحادثة ذات الانفعال السحري الذي لا يتكرر أبداً.

هل استغرقت تلك القبلة دهراً أم ثواني قليلة. لم يخطر ببالي احتمال تبادل قبلة في مكتبه بذلك الشكل المباغت، ولم أستطع أن أفكر هل ما حصل صواب أم خطأ. كنتُ لحظتها هائمةً في عالَم أثيري. ثم، كيف ألوم نفسي وأنا متكهربة به. وما لبثت أن هويتُ إلى عالم الواقع بدخول شلة من المشاركين في المؤتمر، رشفتُ الشاي على عجل وانصرفت. لم أكن أشعر بماهيتي. تحولت إلى روح تطير على جناحَي الهوى. اعتقدتُ أنه سيتصل بي في المساء، لكن الهاتف ظل أخرس. عذرته فهو الرئيس، وبالتأكيد مشاغله كثيرة. غفوتُ وأنا أستعيد طعم تلك النشوة السحرية. يا لرحيق تلك القبلة! مرّ بذهني خاطر عذبني: ألا يُعقل أن يقبل امرأة غيري بالطريقة نفسها التي قبلني بها؟

قصدتُ مكتبه في اليوم التالي. كان غاصّاً بالزائرين. رحب بي وهو يضغط بقوة على يدي ودعاني إلى الجلوس. أوصلتُ له عتبي بنظرة حزينة وطويلة فرد علي بابتسامته التي تزلزل أركان جسدي. لأول مرة أنتبه إليه كيف يتكلم ويتصرَّف، فقد رغبتُ بصدق في أن أعرف لِمَ يأسرني؟

إنه يؤكد أفكاره بنفي أفكار الآخرين. هاجسه آخر صرعة من صرعات الفكر. أحسستُ وأنا أتحرر من سطوة الهوى للحظة بأنه يرغب في أن يكون نجماً، وأن يجمع حوله نخبة من المثقفين الدائرين في فلكه. لم أعرف لماذا انتابتني مثل تلك الأفكار، أنا التي لا زلت أعيش إغواء ليلة أمس. مَن هذا الرجل الذي سحرني وأفقدني السيطرة على نفسي؟ إنه يدافع عن المرأة كما لو أنها فكرة مجردة بزخرفة كلامية آسرة، إنما من دون صدق حقيقي. لم يكن صاحب قضية يؤمن بها، بل صاحبُ مشروع يريد استغلاله لتحقيق مجده الشخصي، وليس تحرير المرأة بشكل حقيقي وجاد.

انتبه إلى شرودي، فسألني إن كنتُ مستمتعة بالندوات التي أحضرها. نظرتُ في عينيه بإعياء وعتب. ردّ مبتسماً وهو يشير إلى كاميرا صغيرة يستطيع من خلالها متابعة المحاضرات في الغرف كلها. لا أعرف لِمَ أحسستُ بإحباط شديد. سألتُ نفسي: ماذا أريد منه؟ ولماذا أنا بحالة انتظار هوسي له؟ عرفتُ أنه يقرأ أفكاري. سألني:

ـ يبدو أن أمراً ما يشوشك ويشغل بالك. واضح أن نومك مضطرب.

استأذنتُ بالانصراف وأنا أشعر برغبة قوية في البكاء، فقام يودعني حتى الباب. شدّ على يدي وهو يدسّ

ورقة صغيرة في راحة يدي كتب عليها رقم هاتفه الخاص. طرتُ إلى غرفتي لأتصل به في الحال:

ـ لماذا تتركني وحيدة؟!

لم أفهم فوراً قصده حين سألني:

ـ ما الرقم؟

ـ أي رقم!

ـ الغرفة

هوى قلبي وأنا أقول 723. ابتلعتُ ريقي وسألت بشجاعة:

ـ هل ستأتي؟؟

ردّ بثقة: بالطبع.

سألت بلهفة: متى؟

رد بالاقتضاب نفسه: سأتصل.

انسحبت من الحفل الضخم الذي تحييه مطربة مشهورة، وانسللتُ إلى غرفتي مدّعية الصداع، وغير مبالية بدهشة المؤتمِرين الذين استغربوا انسحابي، أسرعتُ أتصل به.

قال: سأكون عندك بعد قليل.

وكان هذا القليل ثلاث ساعات من الانتظار المدمر للأعصاب لدرجة أحسستُ باليأس والمهانة. فوجئتُ بعد منتصف الليل بهاتفي يرن وصوته الواثق البارد والفارغ من أي لهفة يقول:

ـ افتحي الباب.

فتحتُ الباب، كان هو بعظمته كاملة.

تذكرت الكاميرا في غرفته فسألته برعب:

ـ هل يعقل أن يراقبنا أحد؟؟!!

ضحك قائلاً: مستحيل.

رمى الجاكيت جانباً. طوقني بذراعيه بشهوة عارمة فظّة. كنتُ أرغب في أن نتكلم وأن نشرب شيئاً، لكني وجدتُ نفسي مختنقة. بشهوته وإلحاحه. لم أعرف كيف تحرر من ثيابه بلحظة وأجبرني من دون أن ينبس بكلمة على أن أتعرّى. حرّضته على الكلام حول أي موضوع فلم يقل سوى جملة وحيدة:

ـ تثيرني النساء مثلك.

سألت: أتقصد الشكل أم...

قاطعني متأففاً:

ـ أف، هل أنت ثرثارة في الفراش؟

اعترفتُ له بأني أحس بوَلَه وانجذاب هائلين نحوه، فضحك وهو يتعرف إلى جسدي براحتيه النهمتين، ويتحسَّس نهديَّ ويستفزه كبرياؤهما. لكن كم كانت خيبتي كبيرة وأنا أكتشف أنه عنين، وأن تلك العظمة والفخامة في شخصه يقابلهما شلل في ذكورته. لكن وَلهي به لم يتغير برغم عنانته. ولم يخفَّ انشدادي المجنون إليه على الرغم من عجزه الجنسي. يكفي أن

ألمسه، أن أكون إلى جانبه، تكفيني متعة تبادل الأنفاس والأحاسيس. فالحنان يفوق النشوة بما لا يقاس.

كم تبدو تلك الذكريات مهينة الآن، وصدى صوته يترجَّع في أذني:

ـ أخرجي كل العهر المخزون في روحك.

صدمني كلامه وقتها، فابتعدت عنه مرتعبة وأنا أسأله:

ـ أي عهر، ما هذا الهذيان؟

ضحك وهو يقول إنه تعبير شائع.

لم يبقَ الآن، من تلك الذكريات سوى مرارة هوى مريض. أكان هوى للرجل أم للسلطة؟ لكاريزما السلطة المتمثلة به أم لصرعات الفكر العصري التي يمثلها؟ للمؤتمرات الطنانة في أفخم الفنادق التي يفتتحها؟! كانت مضاجعة مبتورة وحيدة لم تتكرر ثانية، ولم يحاول الاتصال بي حتى للاطمئنان عليّ؟ كنتُ مجرد ثمرة لذيذة أراد تذوقها. أهذا هو المدافع الغيور عن حقوق المرأة؟! هل يفهم نفسية امرأة حقاً؟! هل يحترم فيها الإنسان؟ أم إن المرأة مجرد لافتة عريضة ليبرز من خلالها شهرته.

انتهى المؤتمر العالمي بمرارة كثيفة، احتجتُ إلى أشهر طويلة كي أخفف حدتها. علّمني هذا الرجل درساً مهماً عن خيانة السلطة، عن السلوك الخائن والمزيف

للرجال المهمين المتمتعين بسلطة على الآخرين، وخاصة النساء الوحيدات.

كنتُ ألمحه في ما بعد حين في برنامج تلفزيوني، أستعيد طعم المرارة نفسها وأتأمله بارتياب مستعيدة تلك التجربة المُهينة. وكان يحلو لي أحياناً أن أخفي الصوت وأتأمله كهيكل، كيف يتصرف هذا المدّعي. أراقب حركات يديه وابتسامته المنافقة. أصفنُ طويلاً بتلك السلطة التي يمثلها؛ سلطة منصبه الكبير التي تغذي ذكورته المنتفخة غروراً. شعرتُ بأن كل ما كتبه واستمر في كتابته وترويجه لا قيمة له لأنه لا يصدر عن روحه، بل مجرد كلمات طنانة وأفكار برّاقة لا يؤمن بها في العمق. وكم أميل إلى تصديق أنه في كل مؤتمر من مؤتمراته، خاصة تلك الداعية إلى تحرير المرأة، يصطاد امرأة تثيره فيستغلها، ويمارس عليها سطوة فحولته الناقصة، ويذلها في الفراش لمرة واحدة ثم يهملها عن عمد مستمتعاً بأن سلطته تذل المرأة المثقفة التي تؤمن بالمساواة، بينما لا يدلّ سلوكه سوى عن رفضه العميق للمساواة بين الجنسين. وكم كان يُفجعني أن جميع النساء المطعونات في حقوقهن وكرامتهن لن يتمكنّ من فضح رمز من الرموز الثقافية الفاسدة مثله...

تعلّق نظري بحبل كيس السيروم أراقب النقاط المتلاحقة، نقطة وراء نقطة، خيبة وراء خيبة... وسوف

تتراكم خيبات النساء الحالمات بالمساواة مع الرجل والمؤمنات بها، كحُفَرٍ صغيرة ستتلاقى ذات يوم وتشكل حفرة كبيرة لتدفن رجلاً متغطرساً وزعيماً ثقافياً زائفاً. لكن هل ستجرؤ امرأة مثلي حررها السرطان من الخوف ومن عشق الأضواء الزائفة، من الجهر بالحقيقة متشجعة برذاذ الدواء الذي يقتل الخلايا السرطانية وبذورَ الخوف المعششة في أعماق خلاياي...

## الجلسة الخامسة

يسربلني هدوء لطيف هذا الصباح، أحسه يغلّفني كوشاح من حرير. كنت في وضع نفسي ممتاز لتقبل العلاج الكيميائي لدرجة دُهشت من مشاعري. لم يعد لدي أي نفور أو رفض. لا أعرف ما الذي يفتنني في تلك الحالة وأنا مستلقية على الفراش، ونظري معلّق بالسماء التي تعرض لي حياتي كما لو أنها شاشة سينما. أشعر بأنني امرأة عند الحافة، خلفي الحياة وأمامي خطر الموت، أملك أعجوبة الإطلالة على العالمَين. ذُعرتُ في البداية، لكن حين تبدد هذا الذعر شعرتُ بنشوة. يتسلل اليومَ نسيم عليل إلى روحي فأشعر كيف تسترخي عضلات وجهي وترق بشرتي وتمتلئ رئتاي بهواء منعش. أهتف بكل كياني باسم سامح، وتطفح للحال الدموع من عينيّ: أين أنت؟ أين أنت يا أحبَّ إنسان إلى قلبي. يعصرني ندم قاس. أضع الشعر المستعار على رأسي الذي غدا أصلع تماماً، وألبس ثيابي الفضفاضة

وأنطلق إلى جلسة العلاج الكيميائي. أعود إلى ذلك الزمن الصعب، يوم كنتُ في قمة ضياعي مشتَّتة من الألم، مستسلمة لليأس، وسامح بجانبي أرسلته السماء لينقذني.

أتساءل لِمَ لم يكن أولَ رجل تذكرته، وهو أفضلهم. إنسان نادر! أأظلمه حتى في ذكرياتي؟! استعدتُ بصعوبة وجهَه، فملامحه مغشاة بضباب السنين، وحين تخطر ببالي تمتلئ نفسي رقة. أرقى صفة في الإنسان الرقة. إنها من صفات الأنبياء...

يعصر الندمُ قلبي في كل مرة أتذكره، وأشعر بالنقمة على نفسي لأني لم أتزوجه؟ لكن، إلى أي حد أستطيع أن ألوم نفسي. أقود السيارة بسرعة متلهفة إلى حضور الفيلم على شاشة السماء. هل أضع عنواناً للفيلم: «سامح»، أم «امرأة شتتها الألم»... أم أترك الفيلم، كحياتي، بلا عنوان.

ما إن غرست الممرضةُ إبرة السيروم في يدي حتى أغمضتُ عيني لأفهمها أن عرض الفليم ابتدأ، ولستُ راغبة في الكلام. نقطة وراء نقطة، أشعر بأني أعود إلى الماضي والذكريات مع كل نقطة. سطع وجه سامح فجأة حياً قريباً لدرجة الوجع، فخفق قلبي بعنف. كم أحس بشوق إليه. تركت دموعي الساخنة تنسكب على وجهي وأنا أهمس باسمه: سامح...

لا أظن أن الذاكرة أمينة، بل كثيراً ما تحوّر الأحداثَ وتُركّبها بطريقة مغايرة لما حصلت عليه في الواقع. ففي الوقت الذي التقيتُ فيه سامح، كنتُ لا أزال متيمة بطليقي. كنتُ مرضوضة من عنف الصدمة، وتسلل سامح برغم ذلك إلى حياتي، بل صرتُ بعد مدة لا أستطيع تخيل حياتي من دونه.

كان مدير الشركة الهندسية الكبيرة التي أعمل فيها، ومن أشهر المهندسين المدنيين في العالم. رجل مرموق يسعى الجميع إلى خَطب ودّه. لم يخطر لي إطلاقاً أن أثير إعجابه، أنا الغريبة المنشغلة بآلامي، لكن أمكنه بعمق فراسته أن يشعر بي. كيف أداري مشاعر القهر والانكسار، وكيف أخفي وراء ابتسامتي الشاحبة حزناً يائساً. لم أكن أعرف أنه وضع خطة مسبقة للتقرب مني عن طريق العمل، فلطالما كنتُ أجد نفسي دوماً مضطرة إلى استشارته وطلب العون منه، ولا ألحظ أنه منشدٌّ نحوي إلا حين أحدّق في عينيه. تنبهتُ إلى أنه لا يستطيع النظر في عيني من دون أن يرتعش، ثم صار وجهه يعبّر يوماً بعد يوم عن لطف وضراعة عميقين. أسعدني اهتمامه، فأنا الغريبة التي أشحذ عاطفة صادقة أجد رجلاً مرموقاً وخلوقاً يخصني باهتمامه، لكنه لم يحرك فيَّ ذلك الشعورَ الخفيَّ الذي يشد امرأة إلى رجل... ربما لأني كنتُ لا أزال أعبد الرجل الذي

نبذني. ولطالما تساءلت بعد أن خسرتُ سامح: لماذا لا نحب الذين يحبوننا؟! ما هو السر الغامض في آلية انجذاب امرأة إلى رجل؟

كان قد مضى عامان على وفاة زوجة سامح بحادث سير حين التقيتُه. كان حلمَ مهندسات الشركة العازبات... لكنه مسكين، أحب المرأة الأكثر تعاسة وضياعاً. لم يعد يخفى على أحد اهتمامه بي. ووجدتُ نفسي مع الأيام أحدثه عن أحزان قلبي، فأحس براحة عميقة وهو ينصت إلي بكل حواسه قانعاً بأن يبقى في الهالة التي تحيطني.

كنتُ أعرف أن قلبه يضطرب بشدة حين أبكي أمامه، وأشعر به يتلهف إلى أن يضمني، لكنه يلجم نفسه لأنه يوقن أنني متيمة برجل آخر غيره. وكم من المرات ضبطته يتأملني بنظرات كلها شوق ورجاء، فأشعر بأن قلبي ينسحق وينزف ألماً.

ولكن، ما أنا واثقة منه أنه لولا وجود سامح في حياتي في تلك الفترة التي كنتُ فيها ضعيفة ويائسة، لضعتُ، وربما استسلمتُ لسكينة اليأس. أصير معه امرأة أخرى، امرأة أكثر صلابة وتميزاً. أشعر بطريقة ما بأن حبه لي يرسّخني في الأرض ويمدّ جذوري عميقاً فيها. يردّني إلى الصواب دوماً لأنه ينتشلني كل مرّة من هوّة اليأس التي لا ينتج عنها سوى الأخطاء. لم أكن أريده

أن يصرّح لي بعواطفه كي لا ترتبك العلاقة بيننا وأخسره. فلم أشجعه مرّة على أن يكمل اعترافه بأشواقه وافتقاده لي خاصة بعد أيام العطل والإجازات. وكنت أضطره بطريقة غامضة في كل مرة يتشجع ليصرح لي بحبه، إلى أن يترك كلامه معلقاً.

لأول مرة ألتقي رجلاً يحمل صفة نادرة عند الرجال: الوداعة، وتغدو أكثر سحراً لأنها تقترن بثقافة وذكاء متقدين. كانت تلك الصفة بدأت تنقرض في هذا الزمن، وقد استفزتني وأعملث تفكيري في تفسيرها، فلم أجد سبباً لها سوى عمق فهمه للنفس البشرية.

صار سامح بطانة روحي، ولم أكن قادرة على الاستمرار من دونه. خلق لدي حافزاً لأطور نفسي، وشجعني كي أكمل تحضير رسالة الماجستير في الهندسة المدنية. كان يمنحني من وقته الكثير، ويشرح لي قضايا هندسية معقدة، ويقنعني بأني مهندسة ممتازة، وعليّ العمل دوماً لتطوير نفسي وتجديد معلوماتي. كان يعمق إحساسي بأني امرأة قوية وقادرة على تخطي ألمي الخاص حتى أقنعني فعلاً بأن عليّ تطوير نفسي وتغيير روتين حياتي. وكم أحس بالخجل حين أتذكر تلك اللحظات المُخجلة التي رغبتُ فيها في تعذيبه والانتقام منه، فأتجاهله وأعامله بجفاء لأيام وأتظاهر بالتململ من كلامه. لم يكن سهلاً على رجل

يعتدّ بنفسه أن يتحمل تلك المعاملة الفجّة من دون سبب، وخاصة حين تكون صادرةً مني، أنا التي أسكنها قلبه، فكان ينطوي على ألمه صامتاً من دون عتاب أو حتى من دون أن يخدشني بنظرة قاسية... فأرتد إليه نادمة معتذرة بنظرات دافئة. لكم أدهشتني قسوتي مع سامح، ولم أجد لها تفسيراً سوى أنه ربما تتولّد لدى الضحية رغبة في الانتقام لنفسها بأن تجعل لذاتها ضحية غيرها. لقد قهرني الرجل الذي عبدته ونبذني، فلمَ لا أنتقم لنفسي وأطعن الرجلَ الذي أسكنني روحه طعنة الغدر التي طُعنتها.

لم أكن للأسف، في تلك الفترة قادرة على مراقبة تصرفاتي ولا على تقويمها، فقد جمّدت المصيبة كل شيء في نفسي، خاصة تفكيري المنطقي الإنساني. لم أكن أقدّر سامح حق قَدْره، ولم أدرك أنه جوهرة نادرة، وأنني لولاه لكنت انتهيت في بئر اليأس. أتخيّل نفسي الآن كيف كنتُ منصاعة لرغبة شيطانية في نفسي لإيذائه، وكنتُ أحياناً أبكي أمامه طويلاً معبّرة له عن شوقي إلى ابني وطليقي. كنت أتقصّد جرح كبريائه بالحديث أمامه عن تلهُّفي إلى طليقي، وكان يصغي إليّ صامتاً، مكابراً، وهذا ما أغاظني في البداية، ثم كان يغير مجرى الحديث ببراعة فيقودني إلى عوالم جديدة بعيدة عن جرحي الشخصي.

نجح سامح في مداواتي من دون أن يعلّق بكلمة واحدة على ما أقول. لم يسألني مرة عن ابني أو طليقي، وذات يوم سألته:

ـ لِمَ لا تسألني عنهما؟

فنظر إليّ بحب جعلني أرتعش كما لو مسّتني كهرباء، وقال:

ـ أريد أن أمسح الغبار عن روحك لتضيء.

لم أعد أستطيع تخيّل يومي من دون سامح، فهو اليقين والمستقبل. صرتُ أتمنى لو تتحرك أشواقي نحوه، لكن عبثاً، لم تندلع تلك الشرارة. كنتُ أجبر نفسي على أن أتخيّله يقبلني أو يداعبني، فينقبض جسدي نفوراً. لطالما شعرت بواجب في تقبيله ومغازلته تقديراً له، وكنوع من عرفان الجميل لكل ما قام به من أجلي. وشعرتُ بأن من واجبي أن أزجّ نفسي في تجربة عاطفية معه عساني أحبه رغماً عني! صرتُ أسمح له بأن يمسك يدي وهو يقود السيارة، فيدهشني هذا الموات العاطفي الذي أحسه نحوه، وأتخيل للحال يد أحمد فأبتلع ريقي مهزومة، لكني كنت أرغب في أن أحاول مراراً عساني أولّد هذا الميل إلى الرجل الذي يُفترض بي أن أحبه. وكم عنّفت نفسي: أنتِ امرأة شاذة لا تحبين إلا الرجل الذي يذلُّك. اعتقد سامح أني صرتُ أميل إليه وأنني مستعدة للارتباط به، وحين عرض علي

الزواج شعرتُ بأني أكاد أختنق. لم أجبْ، وأخبرته أمام نظرته المشعّة بالرجاء والأمل أنني بحاجة إلى بعض الوقت كي أشفى من جرحي الذي لا يزال طازجاً. كنتُ لا أزال أتوهَّم وأعيش في الخيال مع طليقي وابني، ولا أملك أي رغبة أو إمكانية لبدء حياة واقعية جديدة.

أهم ما حققته أنني صرتُ بارعة في عملي الهندسي وحصلتُ على الماجستير بتقدير امتياز، وكل ذلك بفضل دعم سامح لي. هذا الرجل نعمة ربّانية بعثها الله إليَّ في اللحظات العصيبة في حياتي، وقد حرف مصير مستقبلي من الفشل إلى النجاح، ومن اليأس إلى الأمل، ومن الإحساس بالتخلي إلى الحب. كنتُ أعنّف نفسي طوال الوقت: عليك أن تحبيه وأن تتزوجيه. لم أعد أحتمل عبء انتظار سامح لقراري. صار حبه العنيف لي ضاغطاً ومستفزاً، ولم يعد راغباً في إخفاء مشاعره وراء قناع هدوئه. إنه يرغب فيَّ بكل ذرة في كيانه، وأنا أحسستُ نفسي مُلزمة به. مزيج من مشاعر الامتنان والشكر والإعجاب، وربما الشفقة أيضاً. ما أعجب كم تستطيع الشفقة أن تعبث بنا. إنها أقوى من الحب... لقد أجبرتُ نفسي على أن أضاجعه، وأهبه جسدي كما لو أنني في غيبوبة. أي جنون هذا الذي فعلته أنا التي استدرجته إلى الغواية معتقدة أنني سأحبه بعد أن

أخوض تجربة الجسد معه، أو أتقبل وجوده قريباً من روحي.

ليس مثل الجنس بقادر على تعرية حقيقة الإنسان. كنتُ أكره نفسي على تقبيله بتعابير وجهي المصطنعة في الوقت الذي كان يأتيني محترقاً بالشوق والرغبة. أرتمي بين ذراعيه وفي عينيّ يلوح هوى لرجل آخر. أدهشتني رهافته، فهو يعرف ما أشعر به. صار صوته مشحوناً بالأسى، وبرغم أنه بذل جهداً خارقاً لخنق انفعالاته، إلا أنه فشل، وأخذ يبكي من دون أن يستحي حين ابتعدنا كمتورطين. كم هو حساس ومثالي. ما أبشع أن نسبب الألم لإنسان أنقذنا من الضلال. قال لي:

ـ تأكدتُ من أنه ليس لك أي رغبة فيَّ، فلماذا إذاً سمحت بذلك الوصال؟!

لم أعرف بمَ أجيب. معه حق، لكني كنتُ أفكر في أنني ضاجعته برغم نفوري منه. ثرى، أليس ذلك أكبر دليل على أني أحبه؟!

تمخضَ هذا الوصال عن شعور مأساوي، وأكدَ لي أني لا أزال أحب زوجي. ولو أن يداً خفية جمعتني بأحمد في غرفة لالتحمنا في عناق محموم... تلاقت عيناي بعيني سامح في نظرة فظيعة فيها خيبة هائلة. فكّرتُ كم كان لقاؤنا مهيناً، فحين تهبُ امرأة عاشقة جسدها لرجل آخر، فتلك عقوبة كبيرة لها.

حين أستعيد تفاصيل ذلك الوصال اللامتكافئ، أحس بالشفقة والألم. أشعر بالشفقة على جسده اللاهث على عتبة جسدي يستجدي المتعة والحنان، بينما جسدي يرتجف طوال الوقت مستنكراً ما يقوم به. لطالما شعرت بروحي تنأى بعيداً كلما توغل هو في جسدي. وحين نظرنا إلى بعضنا مشتتين ومتفاجئين، اكتشفنا، كل على حدة، أحاسيسنا ومشاعرنا تجاه بعضنا. أدركَ أنه هروبي وأدركت عمق حبه لي، لكني لم أسمح لتأنيب الضمير بأن ينغِّص عليَ أيامي، فكفاني آلاماً. لم يعد باستطاعتي أن أتألم أكثر، لكني بعد تلك الخيانة لذاتي، كما تستحق أن أسميها، أحسست بأنني عبرث من ضفة إلى ضفة، فلم أعد مقيمة في المكان القديم نفسه. أحسست كأن حكمة حطَّت علي دفعة واحدة. لقد أضاء برق الحقيقة حياتي، فوجدتُ نفسي أتقبَّل قَدَري بجدية. حررني هذا الفعل ـ الخيانة ـ قليلاً من سطوة أحمد على مشاعري، فلم يعد ملتصقاً بي كأنه بطانة لروحي ولقلبي. صار هناك شرخ يكبر بيننا. لقد مكنتني هذه الخيانة من أن أبعد أحمد قليلاً عن خيالي، لكن للأسف فنفوري الجسدي من سامح أمر مؤكد ولا أملك حياله شيئاً. لماذا أنفر منه جسدياً مع أنه وسيم وشهم وكريم. وما الذي يجعل امرأة مثلي تشتهي رجلاً مثله؟

فسدت العلاقة بيننا بعد ذلك الوصال، فلم نعد قادرين على الاستمرار كصديقين، لكن ظل سامح سنداً لي بعد أن غلّف نفسه بالتحفظ، فصار يتهرب من الاختلاء بي، وأحس بابتسامته تنغرس كخنجر في قلبي. أدهشتني مثاليته اليائسة، لكني ما كنتُ أملك شيئاً تجاه الحقيقة، فأنا لا أتقبله كزوج وحبيب. فهذا النفور يفرض نفسه عليَّ بطريقة فظّة وواضحة لا يمكن تجاهلها. صار صعب على كلينا أن نستمر كما كنا بأوهام الحب والمستقبل المشترك. لقد قوّاني سامح وجعلني امرأة ناضجة وناجحة، قادرة على أن تشق طريقها في الحياة بثقة، وأخذ ينسحب تدريجياً من حياتي إلى أن اختفى كلياً حين قَبِل أن يترأس إدارة فرع للشركة في باريس.

أدركتُ عندها عمق خسارتي له، فأنا لا أتحمّل الحياة هنا إلا بدعمه. ظل سامح علامة الاستفهام الوحيدة المؤلمة في حياتي. كيف لم أتمكن من حبه؟! ثُرى، ألا يستطيع الإنسان التحكم بعواطفه إرادياً؟! وماذا فعلتُ بحياتي من بعده سوى أني ظللتُ أفتش بتوق كبير عن رجل له صفات سامح.

ينضح رأسي الأصلع بعرق بارد، ونوبات من الصقيع تزحف فوق أطرافي. تتوق روحي إلى سامح. لو أنه هنا

لكان احتضنني بحنان وقبّل رأسي الأصلع ومسحه بالعطر. لقد خسرته إلى الأبد وتراكم بيننا غبار الزمن.

ترى أين هو؟ هل لا زلتُ أعبر ذهنه؟! أم تُراه نسيني تماماً. يا لوجع الذكريات. أتراه تزوج ! كم أحسد تلك المرأة التي تكمل معه مشوار الحياة. ما أشقاني، لقد أحببتُ رجالاً كثيرين، ما عدا الرجل الذي كان يستحق أن أعبده.

## الجلسة السادسة

طمأنني الطبيب إلى أن استجابتي للعلاج ممتازة، وأنه واثق من أنني سأعود إلى كامل عافيتي بعد انتهاء جلسات العلاج الكيميائي. ابتسمت وهممث بأن أعترف له بأنني أستحضر في كل جلسة أحدَ رجال حياتي إلى ذهني، وأتسلى بالذكريات: أحييها وأتذوقها مكتشفة طعماً جديداً لم أحسه وقتها... حدثني الطبيب اللبق الناجح عن رحلته العلمية إلى أميركا، وأنه يتابع آخر تطورات العلم. ولكن، على الرغم من نجاحه المهني وشهرته، فإنني ألمح فراغاً في عينيه وشيئاً غامضاً لم أعرف كنهه!

أخبرني أنه سوف يُجري لي عملية أخرى، ويركب لي ثدياً اصطناعياً. رفضث وأجبته بشيء من الجفاء: لا أريد...

أحسه حين يتحدث إليّ يتفحص وجهي، ويدقق بتصرفاتي وكلماتي، ويذكرني كل مرة بكلام قلته في لقاء سابق، وأحاسيس وردات فعل عشتها من قبل: هل يهتم بمريضاته بالطريقة نفسها؟! لكن، لم أعد أبالي أبداً

بعالم الرجل، فأنا أحس بأنني كائن لاجنسي، وذلك يعطيني إحساساً حقيقياً بالأمان. لم أعد قلقة ومتعطشة للقاء نصفي الآخر... لا أحس بحاجة إلى نصف. لقد جعلني مرضي مكتملة بذاتي، وسعيدة بأنني تحررتُ من عبء انتظار أمل مبهج لن يأتي... ربما تكون السعادة الحقيقية حين لا ننتظر شيئاً، وحين نتفرج على مرور الزمن ساعةً بعد ساعة من دون أن نطلب شيئاً أو نرهق رؤوسنا بالأحلام... لا شيء يعذب مثل الأمل والحلم. كم هو جميل أن أعيش بلا حلم...

قدّم إلي بتردد هدية أحضرها لي من أميركا؛ هدية بسيطة كما قال؛ كتاباً لفيرجينيا وُولف ذكّرني بما قلته ذات يوم بأنني شغوفة بتلك الكاتبة وبنهاية حياتها المأساوية. تأثرت للهدية، لكني لم أحس بسعادة، بل تمنيتُ لو لم يقدّم إلي أي شيء. لم أتعب نفسي بالتفكير، فما عادت تلك الأفكار تغويني وتثيرني: «هل يهتم بي؟ أهو معجب بي؟! هل سيحدث بيننا انجذاب؟!». ألا يُرضي غروري أن طبيبي ذائع الصيت اصطفاني من بين النساء وقدّم إلي هدية. كنتُ في عالم آخر ومزاج آخر أستعد للجلسة السادسة بقلب منقبض بشدة ذكريات عشتها في ألمانيا ولا زالت تحاصرني، وأتمنى لو أطردها، فهي أكثر ما أمقت. تُرى، هل سيتمكن العلم من اكتشاف دواء ضد الذكريات! أو

ضد بعضها التي نرغب في محوها... عبثاً أحاول، فهذه الجلسة هي لتلك السنة التي عشتها في ألمانيا، سنة الجحيم والجنون مع زوجي الثاني. لا أصدق أحياناً أني عشتُ كل هذا الرعب والجنون. أشك في كل شيء، ولولا مخزون ذاكرتي من تلك الصور لأنكرتُ ما عشته واعتبرته هلوسات. «لا بأس يا مريم، لا بأس»، أخاطب نفسي برقة وتعاطف، «تحملي وجع الذكريات، فما إن تنتهين من أخذ الدواء حتى يتبخر كل شيء». واهتز جسدي بارتعاشة قوية من أول نقطة سائل دخلت وريدي. كنتُ هناك سجينة في مدينة صغيرة بألمانيا. ياه، كم كنتُ أطيل الوقوف أمام المرآة، تواقة إلى أن أكتشف في ملامحي نتفاً من السعادة، وأبحث في عمق نظراتي عن حيوية تدل على حياة. صار لوجهي منذ زواجي الثاني تعبير جديد لا يفارقه: «اللاتعبير»، كما سميته وكما يستحق أن يُسمَّى. وجه من يستسلم لمصيره. صار الخوف رفيقي الدائم في بلد الغربة. فأي قَدَرٍ معاكس يسيّر حياتي، وهل عليَّ أن أقوم من الحفرة لأقع في البئر.

هل قُدِّر لي أن أعرف كل الإحباطات في الزواج؟ لكن أسباب فشل زواجي الأول واضحة، وتكشَّفت لي بعد فترة بسيطة من الطلاق: الخلاف في البيئة والعقلية والتربية. أما زوجي الثاني، المهندس الذي عاش منذ

السادسة عشرة من عمره في أوروبا وتفوق في الهندسة وحصل على شهادة الدكتوراه في هندسة الجسور، الشاب الجميل المتحرر الذي يقاربني في العمر... الشاب الذي خفق له قلبي ولم أتردد لحظةً في أن أغلق مكتبي الهندسي وأترك عملي في أوج تألقه لأسافر معه، وأبتعد أيضاً عن ابني لؤي... زوجي الثاني هذا، أراد ببساطة تدميري. لم أفهم معاملته لي لدرجة أبقى مرتعدة خوفاً منه، فأحس بأني أعيش على حافة الجنون أو الانهيار. أحسست منذ الأيام الأولى لحياتنا المشتركة، بنقمته الغامضة على الحياة. في وجهه كره فظيع لكل من حوله، نوع من نقمة يسكن كيانه كله. كان ينفجر بغضبٍ أعمى لأتفه الأسباب، بل في الواقع بدون أي سبب. فإذا تعثر في مشيته بسبب انثناء في السجادة جُن جنونه من الغضب، وسال لسانه بأقذع أنواع الشتائم، وتكون حصتي من شتائمه هي العظمى. كلام مريع، فاحش، قذر. أغمض عيني وأنا أستعيد صراخه:

ـ يا قحبة، يا من تعيشين من فضلة حذائي عليك!

كدت أصاب بالشلل من شدة ذهولي مما أسمع. أتفرّج على نفسي في هذا الوضع المُهين. أدركت بحدسي أن أي كلمة مني حتى ولو كانت: «اهدأ يا حبيبي»، ستجعله يفور بالغضب أكثر فأكثر. أحس بالرعب حين أستعيد وجهه وهو أسير الغضب. حاولت أن أبسّط

المشكلة وأعتبره من نوع الرجال العصبيين الذين يفورون لأتفه الأسباب، لكني بدأت ألاحظ أن شخصه يعاني من اضطراب عميق. فكم من المرات رأيته يتفرّس في وجهي مرتاباً، بل يتفرس في وجوه الناس حوله بحقدٍ وشك. متعته إهانة الناس حوله والسخرية منهم بشكل مبطّن. كل من يقترب منه أو يدخل بيته يخرج مُهاناً مجروحاً. لم أكن أعرف أن في حياته جرحاً نفسانياً عميقاً يعود إلى طفولته. جرحه العاطفي الذي لم يندمل هو ما يدفعه إلى إهانة الناس. كان في السادسة من عمره حين وجّه إليه القدر طعنة بليغة لا يحتملها قلب طفل حين توفي والداه بانفجار الطائرة التي تقلهما إلى القاهرة.

كان من أسرة ثرية، والابن الأصغر المدلل بين ستة أخوة وأخوات، وله الحظوة في أن ينام في غرفة والديه. لم يستطع أن يتقبّل الكارثة، فقد انحرف مصيره إلى الأبد. صار يتلعثم بالكلام ورافقته تلك اللعثمة حتى سفره إلى ألمانيا حيث لجأ إلى مساعدة طبيب نفساني ليتخلص منها. انطوى على نفسه واستولت عليه عزلة قاسية لم يستطع أحد إخراجه منها. صارت في شخصه صلابة منفّرة، فكان يرفض أن يحاسبه أحد على تصرفاته، وتمرد على سلطة أخوته وأقاربه كأنه يُفهمهم أن لا سلطة لأحد عليه بعد وفاة

والديه. وظل في حالة نقمة مستمرة على الحياة، نقمة خفية. لم يخفق قلبه بالحب أبداً. تعايش مع أخوته في البيت الكبير تحت رعاية أخته الكبرى وتحت إشراف الأقرباء، لكنه ظل منطوياً على نفسه كأنه يعيش في محارة في قعر محيط. لا يعرف وجهُه الابتسامَ ولا الرقة. كان ناجحاً في مهنته، ووحده هذا النجاح يشفع له تصرفاته الفظَة. لم يتفوه يوماً بكلمة شكر أو إطراء لأحد حوله. داهمته أخته ذات يوم يعزف على البيانو والدموع تسيل من عينيه. دُهِشَتْ!! هل يبكي الرجل الحديدي؟! طار صوابه من الغضب حين ضبطته بهذا الوضع السري. أنكرَ أنه يبكي، وادّعى أن عينيه متحسستان. برع في العزف على البيانو الذي طالما عزفت عليه والدته. كان كمن يستجدي حضور والدته وهو يعزف الموسيقى التي طالما أحبت. كل صور طفولته مختزنة في تلك اللقطة: أمه التي كانت دنياه وسعادته، تعزف وهو مقرفص بجانبها أو جالس في حضنها مبهوراً بأصابعها الرشيقة. وها هو يحاول استعادة الماضي بطريقة ما. ها هو يحاول أن يستفز روح أمه على الحضور بعزفه الألحان التي عشقتها. لم يكن جسده النحيل يعيقها عن العزف بل كانت تعزف وشفتاها تقبلان رأسه من حين إلى آخر. يشعر حين يعزف بأنه يلمسها عن طريق أصابع البيانو. تردّه

الألحان إلى طفولته عندما كان يعيش في فردوس حبّها وحنانها قبل أن ينسف القدر دنيا طمأنينته السعيدة. استولى عليه بعد تلك الحادثة الرهيبة حلم القوة، وصارت الحياة بالنسبة إليه مشطورة بين قوي وضعيف، وكان منحازاً دوماً إلى القوي. لا يسمح لأحد بأن يناقشه في أفكاره وقراراته، بل لم تكن لديه أي رغبة في أن يشارك أحداً أفكاره، فحس المشاركة معدوم لديه. إنه وحيد بامتياز، وكل الفتيات اللاتي تقربن منه أثناء دراسته الجامعية خرجن مدمَّرات النفس. كن يسقطن في غرامه بسهولة، مبهورات بجماله وذكائه. يستميلهن في البداية ويُغويهن، ثم ينقلب فجأة لإهانتهن وتدمير معنوياتهن، واجداً لذةً مجنونةً في رؤيتهنَّ منهارات، ذليلات.

تزوج في ألمانيا بشابة ألمانية كانت زميلته في الاختصاص. أنجب منها طفلاً لكنها لم تستطع تحمّل ساديته. يشتمها ويضربها مرات عديدة. تدخّل الجيران واستدعوا الشرطة، وانتهت المسكينة في مصح للأمراض العقلية بعد أن طلقها متهماً إياها بالجنون. وحكم القضاء بحضانة الطفل لجدته. لم يشعر بتأنيب الضمير أبداً، بل صار يزور الوطن باحثاً عن زوجة عربية أهم صفة لديها الطاعة. لم أكن أعرف شيئاً عن حياته عندما التقيته... وقد جذبني في المرات الأولى التي

جمعتني به اختلافه وتمايزه. لقد نجح في خداعي وإغوائي كما فعل مع كثيرات قبلي. فيه شيء جذاب، غريب، وأعتقد أنني أسرته باللطف الذي يفتقده، ولا يعرف كيف يجده.

أحييث في روحه مشاعرَ بعيدةً غيَّبَتْها أحقاده. كان يستمتع مبهوراً بدفء مشاعري ولطف تصرفاتي، فيبدو كالمسحور كما لو أنني أقوده إلى عوالم عجيبة، لكنه سرعان ما ينفر معتبراً استمتاعه بتصرفاتي ضعفاً، بل اعتبر أنني سأسيطر عليه وأتسلّم زمام حياته وأسلبه شخصيته إذا ما استسلم لسحر لطفي. رجل يحتمي بالوحشية والفظاظة والقسوة؛ تلك الصفات التي غدت جوهر كيانه يخشى أن ينهار إذا تخلَى عنها. لم أصدق أني سأتعرض للضرب الوحشي والإهانات والحبس لأيام في المنزل، كما لو أنني حيوان في قفص. أخفى جواز سفري وحرمني من التدخين الذي كان سلواي الوحيدة، وكنتُ أتقبّل وحشيته بصمت كاتمة دمي الغاضب المحتقن في وجهي. ولطالما حاولت حلّ لغز هذا الرجل الوحش: ما سبب أحقاده؟! كانت ملامحه برغم وسامتها مشوهة دوماً بغضب كامن. قررتُ أن أهزمه بصمتي وتحملي... ولقيتُ بعض النجاح، فكان ينهار بعد أيام من جنون ساديته، فيبكي مبلِّلاً يديَّ بدموعه، يطلب الغفران ويشتري لي وروداً ودخاناً، ويقوم بأعمال

المنزل بإتقان، ويدعوني إلى الغداء في أفخم المطاعم. كان، للحظات، يعود عاشقاً كما توهَمته، وتتحول كل أحقاده ووحشيته إلى رقة عذبة بضربة سحر. لم أكن أعاتبه في لحظات الصفاء تلك، إذ كنتُ أعرف أنه سرعان ما ينقلب إلى حقيقته. كنت أخفي في لحظات هدوئه بعض علب السجائر والمال لأنها ستلزمني وقت جنونه الذي سرعان ما يعود بانفجار مفاجئ فيتهمني بالخبث وبأنني أتعمد الصمت حين أراه منفعلاً كي أدفعه إلى الجنون، وأنني إن كنت لا أعاتبه ولا أعبر عن انزعاجي من قسوته وإهاناته فلأنني خبيثة وأريد إبلاغه رسالة خفية بأني أحتقره.

أتساءل الآن لماذا لم يخطر لي أبداً أن أعاتبه؟ هل لأني راغبة في مسامحته، وأعتبر الغفران أعلى مرتبة في المشاعر الإنسانية؟! أم لأنني لم أعد أثق بوجود عاطفة سليمة معافاة؟! في أعماقي ندوب جراح، وما عدتُ أجرؤ على أن أهجس بعاطفة حب معافاة فيها فرح وتزهر تحت ضوء الشمس. وعلى الرغم من إدراكي فشل زواجي الثاني لكني تحملته بسهولة أكثر، فقد اعتدتُ سلوك درب الآلام التي كانت تعيد نفسها. أفكر الآن في تلك السنة المرعبة التي عشتها في ألمانيا مع مجنون... إن أساس العذاب والآلام النفسية هو النبل، ولو لم تكن روحي على درجة عالية من النبل لَما

تألمت... أستعيد وجهه حتى وهو نائم، يبدو متيقظاً مذعناً رغماً عنه لسطوة تلك القدرة الهذيانية للذكريات المُرَّة التي دمّرت سعادته... يا لتلك الليلة الهائلة: كان في لحظات ندمه النادرة، دعاني إلى العشاء في مطعم. شرب عدة كؤوس من النبيذ. حذرته من السكر فضحك بمجون، وأخذ في البيت يبكي ويرجوني أن أهدهده، كطفل صغير، ثم أخذ يدي وقبلها بحرارة وهو يناديني: ماما! هل لا زالت تعيش فيه صدمة طفولته إلى هذا الحد؟! لا أذكر من تلك السنة سوى انسحاقي، وقد تساوت لدي في الأشهر الأخيرة لحظات صفائه بجنونه، بل صارت لحظات صفائه تعذبني أكثر لأني أنتظر بعدها جنونه. أتذكر الآن بحنان شديد تلك الساعات الطويلة واقفةً خلف نافذة سجني أنشد العطف والحنان من طبيعة ساحرة، منصتةً إلى الشدو الدافئ للعصافير والسناجب؛ العصافير السعيدة التي لا تَشْتم ولا تصرخ، والسناجب المتنططة بحرية بينما أنا سجينة البيت. تذهب روحي إلى هناك، إلى طفلي الصغير يحمل حقيبته المدرسية ويذهب كل يوم إلى المدرسة ويعود ظهراً فلا يجدني، أنا أمه التي تفتقده حدَّ الموت والجنون، بل تنتظره جدّة يملأها حقد دفين. أتخيّله يأكل لقمة بعد لقمة من دون أن تتمكن الماما من أن تقول له «ألف صحة»، ومن دون أن تغسل قدميه

ويديه. لؤي، لو تعرف كم أحبك وكم أشتاق إليك... أقف لساعات من دون حراك خلف النافذة لاحقة روحي التي تطير إلى الوطن، محدقة في المنظر السرمدي أمامي حتى تمّحي الحدود وتذوب بين الأشجار والسماء.

## الجلسة السابعة

يلح رنين الهاتف منذ ساعتين. الرقم نفسه على شاشة جهازي الخلوي. أحس بسعادة خبيثة وأنا أرمق الرقم ببرود ولا أرد. أفكر بسخرية: كلما ازددتُ تجاهلاً له ازداد هيجاناً ورغبة فيَّ... كلانا لديه حرمان عاطفي، وما بيننا مجرد رغبة، رغبة نحمّلها فوق طاقتها، نريد منها فرحاً وإشباعاً ونشوة لكنها رغبة عجوزة ضعيفة الذاكرة ومحمّلة بتاريخ من الإحباطات.

أحسستُ بأن الهاتف الخلوي سينفجر من الرنين. ضغطت الزر ليأتيني صوته صاعقاً:

ـ أين أنتِ؟

زاد انفعاله من برودي، أجبته بتأفف:

ـ كنتُ أمشي.

ـ ولِمَ لا تحملين الهاتف معك؟

لم أرد. قلتُ له بسخرية:

ـ هل اتصلتَ كثيراً؟

ـ لم أتوقف عن الاتصال.

ـ أإلى هذا الحد مشتاق إليّ؟!

يبدو أن سخريتي وصلته، فقال:

ـ أتسخرين، أليس كذلك؟ لن تصدقي أني مشتاق إليك إلى حد الجنون.

لا يمكنني تصديقه. فما المبالغة في لهجته الحارة سوى دليل على زيف عواطفه.

ـ مريم، ما بكِ؟ أنتظر جوابك...

ترددتُ، لكني قررتُ أن أكون صريحة معه:

ـ اسمع، سأكون صريحة معك، يبدو ما بيننا مخجلاً.

قاطعني بحدة:

ـ اسمعي، أظن أننا انتهينا من هذا النقاش العقيم. أنتِ ترغبين فيَّ وأنا أتوق إليك حدَّ الهذيان، الأمر واضح وبسيط، فلمَ أنت مصرَّة على تعقيده؟

سكتُّ للحظة. معه حق، ما بيننا رغبة صريحة:

ـ أعطِني فرصة لأشرح لك ما أشعر به. أحس في الواقع بالخجل كوني سأسافر ساعتين لألقاك لأجل غاية وحيدة.

خجلتُ أن أقول: لأجل أن نمارس الجنس.

زاد كلامي من غضبه، فقال بما يشبه الصراخ:

ـ غريبة أنتِ، كم تميلين إلى تعقيد الأمور. مريم، أنا معجب بك كثيراً، ومشتاق إليك، ولا نعلم كيف ستتطور علاقتنا، لكن اسمحي لها بأن تتجسد، أن تتحقق، أن تغدو واقعاً نعيشه بكليتنا. لقد حضّرتُ نفسي للقائك

وألغيتُ كل مواعيدي في العيادة ليوم غد... وأراك فوق كل ذلك مترددة. لماذا؟ ثم إنني عرضتُ عليك أن آتي إليك لكنك رفضتِ. قلتِ إن الناس في مدينتك يثرثرون، ما الحل إذاً؟

- يبدو لي أن ليس هناك حل.

- مريم حبيبتي، لا تخيّبي أملي، أرجوك يا حبيبتي.

أحسستُ بمدى الزيف في كلمة «حبيبتي». تُرى كيف يشفُّ الصوت عن الصدق أو الكذب؟

لم يكن إلحاحه ما دفعني إلى قبول السفر إليه، بل أردتُ أن أحيي حماسة ماتت وشهوة يبست. أجنُّ حين تمر بي فترات طويلة وليس في حياتي رجل، وأشعر بأنني مهددة في أنوثتي، في جوهر هويتي كأنثى، ويبدو لي ذلك الحرمان لاإنسانياً.

كان طبيباً نسائياً لديه عيادة واسعة، وقد حقق شهرة كبيرة خاصة في مجال الإجهاضات الجنائية. عرفته حين قصدته ذات يوم لأخلّص إحدى صديقاتي من ورطة حملها من رجل متزوج، وفضّلنا السفر خوفاً من الفضيحة وانتشار الخبر، إلى مدينة بعيدة لا يعرفنا فيها أحد.

أحسستُ من اللحظات الأولى التي تلاقت فيها عيوننا بأني أثرت اهتمامه، ولم يُخف إعجابه بي طوال عملية الإجهاض التي كان يجريها برشاقة خبير.

كنتُ أتأمله كيف يتناول أدواته اللماعة بخفة وسرعة، ويدخل موسعاً تلو آخر في عنق الرحم. انقبض قلبي وأنا أشعر بأن الإجهاض جريمة حقيقية. لعله فهم تعبير عينيَّ الحزين بأني أطلب تفسيراً لعمله، فقال لي:

- يكون عنق الرحم قاسياً ومغلقاً بقوة، ويحتاج إلى توسيعه كي نُجري الإجهاض.

بدا سعيداً بأنه يتجاذب أطراف الحديث معي؛ حديثنا الذي كان يتقطع بأنين صديقتي، حيث لم يكن تخديرها عمومياً. سألته إن كانت صديقتي تشعر بألم، فنفى مؤكداً أن حس الألم عندها غائب كلياً، لكن الحالة النفسية للنساء أثناء الإجهاض تكون تعيسة.

تشعب الحديث إلى حياتنا الشخصية، فذكر لي أن زوجته الأولى فرنسية عاشت معه عشر سنوات ثم تركته لأنها لم تتأقلم مع أهله وأصدقائه، وأن خطأه الأكبر حين تزوج ابنة خالته لمجرد إلحاح الأهل بضرورة زواجه. قال إن أبشع أنواع التعاسة هي التعاسة في الزواج، ثم أبدى فضولاً ليعرف كل شيء عني، لكني تصنّعت على شفتيَ ابتسامة تعني أني لستُ راغبة في الكلام.

انتهت العملية الوحشية أخيراً. نُقلت صديقتي بمساعدة الممرضة وخادمة إلى غرفة داخلية تبدو مخصصة لراحة النساء بعد الإجهاض. مُددت على صوفا

عريضة. الغرفة معتمة، في زاويتها براد وفي الوسط طاولة صغيرة مغطاة بمفرش أحمر مطرز بورود حمراء ترفع المعنويات حقاً. تغطي ستائرُ من المخمل نافذتين عريضتين. أعدَّت الممرضة القهوة وقدمت فنجاناً إلى صديقتي التي بدأت تصحو والكوابيس تحفّ برأسها. تبادلث والطبيب رقمَي هاتفينا. أسعدني إعجابه بي واتصاله من وقت إلى آخر، وبدأت حرارة الاتصالات ترتفع. فاجأني ذات مرة بزيارته مكتبي فارتبكث بشدة ولم أعرف أين يمكنني أن ألقاه، وانتظرنا عتمة الغروب في شارع مهجور تفوح منه رائحة القمامة كي نتمكن من تبادل بعض القبلات والمداعبات.

كان غاضباً. عبَّر عن استيائه قائلاً:

ـ لا أفهم كيف تعيش مهندسة مرموقة مثلك في هذه المدينة الخانقة!

ضحكث من دون أن أعلق بكلمة.

أصرّ: كيف تعيشين هنا؟

قلت بسخرية: حياتي تشبه الغيبوبة.

وعدته بأن أزوره غداً. تخيلث نفسي كيف سأستحم صباح الغد، وأدهن جسدي بكريم معطر أهداني إياه حبيب سابق. يا للسخرية. عشيق يقدم هدية إلى حبيبته ليتمتع بها عشيق آخر! تذكرث كم من المرات اشتريت هدية لرجل لكن القدر يعبث بنا فأقدمها إلى

رجل آخر. يا للسخرية... يزداد يوماً بعد يوم إيماني بالسخرية كفلسفة في الحياة وكوسيلة مثالية للحماية من الألم. كنتُ أعرف أني سأضاجعه في عيادته، فلن أقطع تلك المسافة الطويلة لنتبادل غزلاً بريئاً، لكن ما بالي كئيبة هكذا؟ وكنتُ شبه واثقة من أن ذلك اللقاء لن يبدد كآبتي ووحدة روحي المديدة ولا إحساس خيبة الأمل المستمرة بأن حياتي سارت بطريقة لم أتوقعها. لكن ليست كل تلك الحجج كافية لمنع امرأة شابة مهجورة من إلقاء نفسها في أحضان رجل، أيّ رجل... هل أوصد نفسي ضد التجارب الحياتية؟! هل أترك روحي تذبل وجسدي يتشقق من الحرمان؟

فكرتُ في أنه ليس في هذا الزمن أفكار أخلاقية وأفكار لاأخلاقية، فالفيزيولوجيا تفرض نفسها. لا أريد أن أكون معقدة. ما معنى أني امرأة متحررة؟ ألا يعني أن أخوض تجارب عاطفية بالعفوية والانطلاق اللذين يقوم بهما الرجل؟! ألا يجب أن أؤمن بكل كياني بالمساواة. لكنّ ثمة شعوراً ينغصني. شيء من عدم التصديق أو الاقتناع. زجرتُ نفسي: كفى، لا أريد أن أفكر. سأسافر إليه، انتهى الموضوع.

استيقظتُ أبكر من المعتاد. يغطي الضباب الصباحي المزرق المدينة كوشاح من حزن. خرجتُ إلى الشرفة أتنشق الهواء الرطب. بدت مدينتي كامرأة يكدّها

الحزن. ياه، كيف تُشعرنا المدن بحزنها؟ هذا ما فكرت فيه عميقاً وأنا أستحم. سخرتُ من نفسي. ليس من عادتي الاستحمام إلاّ مساءً، لكن للضرورة أحكامها، وأنا اليوم في مهمة خاصة: مهمة المضاجعة، ولها أحكامها الاستثنائية.

وقفتُ عارية أتأمل جسدي في المرآة، أتأمله بعينيه هو. وخزتني إبر الشهوة حين تخيلته يضمني بين ذراعيه. إنه وسيم ورياضي. رجل في الخامسة والأربعين. تُغويني عيناه العسليتان وأنفه المستقيم ولونه النحاسي، لكن لا يمكنني تجاهل إحساس العار والخزي، فهذا اللقاء سيكون لقاء شهوة وليس لقاء حب.

المسافة بين مدينتي ومدينته ساعتان. حاولتُ الاستسلام لسحر الطبيعة. مرّ نظري على قرى عديدة، الفقر العاري هو السمة الأساسية للبيوت. لكن في قلب كل قرية ينتصب قصر ينتهك اطمئنان البيوت البسيطة حوله، ويسلبها سكينتها.

أحسستُ باليأس، ودفعتني تلك المفارقات الفجة بين القصور والبيوت البسيطة إلى التساؤل من عمق كياني: متى سنقاوم هذه المظاهر الفاسدة؟ شجعني اليأس على المضي في ما أنا مقدمة عليه. هكذا هي الحياة مشبعة بالظلم والألم، فلماذا أعمل التفكير في كل شيء

وأفلسف الأمور بينما أنا ذاهبة بكليتي للقاء عشيقي الجديد لمجرد قطف رغبة.

لم ينتظرني في المحطة كي لا يثير الأقاويل. طلبت تكسي واتجهت إلى عيادته. أدهشني أن أشعر بنعاس شديد. غضبت من نفسي: أهذا وقت النعاس؟ ففي انتظاري حفلة غرامية. كان باب العيادة مواربا والمكان غارقاً في الظلمة. أغلق الباب فور دخولي بالمزلاج، فغزت خيالي صور كثيرة من أفلام تصور رجلاً يغتصب امرأة.

لم يسألني كيف كانت الرحلة. حدثته كأني أريده أن يشعر بتأنيب الضمير بأن الشمس أحرقتني طوال ساعتين. تجاهل ما قلته. فتح الثلاجة وأخرج زجاجتي بيرة، صب المشروب المثلج في كأسين، سألني:

ـ هل تأكلين؟

قلت: لا أشعر بالجوع.

يُغرق مشاعري مزيج من نعاس وإحباط ويجعلني أفكر إن كان هذا الرجل يستحق عناء السفر. فكرت في أن ساعتين من السفر الشاق تنتظرانني في العودة أيضاً. انفجر حقدي تجاهه فداريته بابتسامة فجأة. شعرت كيف استبدلت وجهي الغاضب بوجه مستعد للمجاملة حتى آخر لحظة. كان يجلس قبالتي يتأملني بشهية كجائع يتأمل طعاماً. بدا جميلاً. أحسسته

مشحوناً بالطاقة ويريد أن يتحرر من عبء شهوته. هو لا يحبني بل يشتهيني. لماذا تهيننني تلك الحقيقة! تبخّر فجأة لديَّ أيُّ شعور إيجابي ولم أعد راغبة في فعل الحب. شعرتُ بأن روحي نائية وبعيدة بينما جسدي - الذي أحسه لا يخصني - بانتظار أن يقوم بمهمته مع جسد غريب.

مدَ يده وأمسك يدي. شدني إليه بقوة فاندفعتُ إلى حضنه، وقبل أن أتخيّل ماذا سيفعل انقضّ على شفتيَّ يعضهما. أحسستُ بالقرف من لعابه، فلم أتوقع تلك المباغتة. لعله يظن أنه ألهبني بتلك الطريقة. كنتُ باردة ومتأففة، فوضع يدي فوق ذكره المنتصب فلم أجد الشجاعة لأتملص منه ولأصرخ في وجهه: ما هذا؟! ألا يوجد غزل تمهيدي؟ ألم تسمع بالمداعبة ولمسة الحنان؟! أحسستُ بيأس صاعق وشعرتُ بكل مشاعر الخزي وخيبة الأمل، ثم صرتُ مستعجلة لإنجاز مهمتي كي أعود إلى مدينتي.

هيا، لأتركه يعرّبني فالأمر حاصل لا محالة. كنتُ أشعر طوال الوقت بأنني أختبئ خلف حاجز ابتسامتي، ورأيتُ أن من واجبي أن أطلق بعض التأوهات المنتشية الكاذبة. كان يصرخ منتشياً مفتوناً بجسدي الطيّع الذي يثيره. وظل باب روحي طوال الممارسة الميكانيكية مُوصَداً. فكرتُ في رغبات جسدي الغاربة. تجرأ شعاع

نور نحيل على اختراق طرف الستارة المخملية، الشعاع يرتعش ويتقطّع بجسد الرجل، بدا لي ارتعاش الشعاع انعكاساً لارتعاش روحي المتألمة. فكرتُ في أن سعادتي مع الرجل ـ أيّ رجل ـ تكون متحققة في تلك اللحظات من الحنان والرقة والعناق والتودد، وليست في لحظات الغزو الفظ أو تلك اللحظات التي تلهث فيها الشهوة كحيوان جائع. أمكنني أن أشعر بعظيم نشوته بينما أنا أفور غيظاً لأني لا أشعر بشيء. تمطّى منتصراً وسعيداً وهو ينفصل عني، غبّ من كأس البيرة وتجشّأ، فتعاظم غضبي. تجشأ كأنه قدّم إلي الدليل على انتصاره عليّ. مسح قطرات عرق عن جبينه وأعلى صدره. انتفضتُ فجأة وقد تذكرت أنني في الأيام التي يُحتمل أن أحمل فيها. سألته:

ـ أين الحمام؟!

زاد حنقي حين تخيلتُ مئات النساء المخدرات وقد تمددن على تلك الصوفا التي تمددت عليها صديقتي أيضاً. منعني من الحراك، قال:

ـ لا تخافي، لن تحملي...

ورأيته بلحظة يفتح علبة معدنية، ويُخرج مها قطعة معدنية لها شكل مقص، وعدة قطع من الشاش يصب فوقها اليود المركّز ويُدخل الشاش المبتل في فرجي.

انتفضتُ مذعورة من برودة السائل ومن تلك الحركة المباغتة الفظة التي أحسستها انتهكتني بشدة، صرختُ بغيظ:

ـ ماذا تفعل؟!

فقال:

ـ أخفضي صوتك فقد يسمعنا الجيران. اطمئني، لقد قتلتُ كل الحيوانات المنوية باليود المركَّز.

شعرتُ بأن رائحة اليود تنتهكني، وتخيلته يقوم بتلك الحركة الختامية مع كل عشيقاته. اتجهتُ إلى الحمام مختنقة من فرط الغيظ والانفعال. بدا وجهي قرمزياً محتقناً بالغضب. غسلته مراراً بالماء البارد. في أعماقي دويّ شتائم. كم أكرهه. سافرتُ إلى لقائه كالبلهاء لأقدم إليه متعة مجانية، ولم أشعر بشيء.

لبستُ ثيابي وأنا أرمق المكان بقرف وحقد، شاعرة بأن كل الأشياء موضوعة هنا لازدرائي. بدأت معدتي تتقلص من الجوع. سألته بسخرية:

ـ ألا يوجد أكل هنا؟!

ـ لحظة وأطلب طعاماً من المطعم.

وددتُ لو أصرخ به:

ـ ألم يخطر ببالك أن تحضر طعاماً؟

لم أعد قادرة على المكوث لحظة. حملتُ حقيبتي وهممتُ بالانصراف. لم يمانع كما توقعت، بل قال من

دون حماسة:

- ابقي واشربي قهوة...

انصرفت من عيادته محاذرة أن تلتقي عيناي بعينيه. وفي محطة الباصات اشتريت قطعة من الكعك التهمتها بسرعة متقززة من رائحة يدي العابقتين باليود. شعرتُ بالشفقة على نفسي وعلى جسدي الذي لهث طالباً النشوة وعاد خائباً.

طريق العودة طويل وكاف لتأمل خيبتي ومرارتي. القرف هو الشعور الطاغي ومحصلة مشاعر عديدة متناقضة. ما الشهوة سوى ذل، بل الشهوة هي الذل عينه.

أدهشني هول شبقه وموات جسدي بين ذراعيه. أين الحنان الذي تنبع منه كل الأحاسيس؟ هل انقرض؟!

شعرتُ في طريق العودة بشيء ينضج بداخلي برغم المرارة، شيء جعلني أكثر نضجاً وروعة. أحسست بذاتي تتبلور من جديد بعد كل رايات الهزيمة التي تخفق بها روحي. فلا شيء يبلور الروح إلا الخيبات.

وصلت أخيراً إلى بيتي بعد رحلة الشقاء المهينة. اندسست في سريري متلحفة بوحدتي الدافئة ومتقززة من رائحة اليود التي بقيت عالقة بأصابعي تذكرني بانتصاره عليّ برغم غسل يدي عدة مرات.

غفوتُ بعد عراك مع الأرق وبعد أن حاولتُ تهدئة روحي الهائجة بالغضب والإحساس بالمهانة. كنتُ مؤمنة ببؤس النساء المتحررات لأن ثمة شرخاً هائلاً بين المرأة والرجل، وأن التحرر الذي تعيشه طبقة معينة ليس سوى قشرة برّاقة خادعة تخفي داخلها عفن عقلية قديمة وعُقداً مكبوتة.

لم يتصل بي اليوم التالي ولا الأيام اللاحقة. أحسستُ بالمهانة على الرغم من تظاهري بأني لا أنتظر اتصاله. يا لوقاحة الرجل حين يُشبع غريزته. قبل أن يحصل على المرأة يلهث وراءها ككلب، وبعد نيله مراده يحتقرها.

فقدتُ طاقتي على الصبر فاتصلتُ به مساء اليوم الرابع وبادرته بسخرية صريحة:

ـ أراك قبل «العملية» إياها تتصل بإلحاح، بل لا تكفّ عن الاتصال كل دقيقة! وها أنت بعد زيارتي إليك لم تتصل ولو من باب المجاملة واللباقة الاجتماعية!

فاجأتْه صراحتي فتلعثم بكذبات متلاحقة. تعلل بأنه مشغول كثيراً، وبأن عيادته تغصّ بالنساء.

سألته بسخرية: كيف حال الإجهاضات؟

تجاهل نبرة الألم والسخرية في صوتي. قال:

ـ جيدة، أنا دوماً أساعد النساء في ورطاتهن.

ـ معك حق، ورطاتهن التي يسببها لهن الرجال.

أقفلتُ السماعة والغيظ يملأ روحي. قمتُ أتمشى على الكورنيش ونظري معلّق عند خط المدى. أرسل أنفاسي المحترقة فوق صفحته الزرقاء الباردة: مَنْ مثل البحر يطفئ لهيب روحي؟!

كنتُ امرأة وحيدة أشعر بالأذى، وأعرف أن الندم لن ينفعني. بدا البحر متعالياً ومزدرياً لكل ما يؤلمني. هزتني موجة من التمرد عبرت جسدي كشرارة كهربائية. بقيت أكثر من ساعة واقفة في مواجهة بحر ذي كبرياء، محاولة أن أستمد منه العون لضبط إعصار المشاعر الذي يهزني. ماذا أريد أن أفعل بحياتي؟ سؤال تفجّر كفقاعة في الفضاء بيني وبين البحر. هل الرجل هو قلب وجودي؟ هل أريد أن أعبّ من كأس الحياة بشراهة؟ ألستُ ضحية التركيز الإعلامي على المتعة الجنسية؟ ألا يربطون تلك المتعة بشرب كأس عصير وقضم قالب شوكولا ورش عطر مثير، وارتداء ثياب نظيفة، وحلاقة ذقن ونزع شَعر غير مرغوب فيه؟!

ألا يمكن أن يكون هذا الزخم الإعلامي الكبير والمختزن في جهازي العصبي، هو الذي يصور لي أن الحياة لا يمكن أن تعاش إلا بثنائية رجل ـ امرأة؟! هل حقاً هذه هي المعادلة؟ أصعب أنواع الشك حين يشك الإنسان في نفسه، وقد كنتُ في ذلك اليوم في أقصى صراع مع ذاتي.

## الجلسة الثامنة

أفقتُ على ألم الكآبة. لكأنها تشن علي هجوماً عنيفاً منذ الصباح. ترشح لثتي دماً، أحس بطعمه المعدني الكريه في فمي. يداي متوذمتان وغثيان يعصف بأحشائي. أقر لنفسي أني غُطبت، وعطب الروح أصعب من عطب الجسد. جلستُ على طرف السرير حائرة، ثم انفجرتُ ببكاء موجع؛ بكاء قَهر لإنسانة تحس بالهزيمة. كنتُ أردد بتأوه: أنا مقهورة، أنا مقهورة. رددتُ هذه العبارة إلى ما لا نهاية. كان يأسي من القوة لدرجة حدستُ بأنه لن تنفع محاولاتي مع نفسي لرفع معنوياتي. قررتُ ابتلاع قرص منوم والعودة إلى الغيبوبة. لن أذهب إلى جلسة العلاج، ولا أريد استحضار أحد رجالي. ليتني أمحوهم جميعاً من ذاكرتي.

لكن، ما إن تحركتُ لإخراج قرص المنوم من الدُرج حتى عصف غثيان حاد بأحشائي، فأسرعتُ إلى الحمام لأتقيأ عصارة مُرّة صفراء، وأخذ عرق بارد يتفصّد من جسدي، خاصة من وجهي ورأسي. امتدت يدي إلى رأسي حيث لم يبقَ سوى زغب ناعم. تفرجتُ على

حطامي بشجاعة. لأول مرة بدا لي الموت لطيفاً ورحوماً. حين تُهين الحياة الإنسان أشرف له لو يموت.

جسدي متلاشٍ كخرقة فوق الأريكة، لكن شيئاً من راحة بدأ يتسلل عبر أطرافي بعد أن لفظتْ سائل معدتي المُر وتعرّقتْ بغزارة سموم جسدي. لا يستقر نظري على شيء معين، فلماذا عيناي زائغتان كأني أفتش في الفضاء حولي عن شيء يؤرقني الحصول عليه...

استقر نظري على صورة بورتريه لي بشعري الكثيف المنسدل على كتفيَّ والابتسامة المشرقة التي تضيء وجهي. هذه صورتي منذ سنتين، هل كنتُ أعرف ماذا ينتظرني؟

لن أذهب اليوم إلى الجلسة وسأوقف العلاج الكيميائي الذي أحسه ألعن من السرطان. رغبتُ في فنجان قهوة وقطعة بسكويت. رشحت عيناي بدموع العطف على ذاتي. خاطبتُ روحي كما لو أني أواسي صديقة: «بسيطة يا مريم، احتملي قليلاً، لا تفقدي الأمل، هيا يا غاليتي اشربي قهوتك وكُلي البسكويت». كانت دموعي تنهمر سهلة فاترة تمسح وجهي كيدٍ من حنان أتجاهل حاجتي إليه.

القهوة صديقة مخلصة، مَن مثلها قادر على التعزية؟ وجدتني أهدأ بعد هجوم الكآبة العاصف عليّ. قمتُ

ألبس ثيابي وأحكم وضع الشعر المستعار على رأسي وأتوجه إلى مركز الطب النووي. صفحة عقلي بيضاء لا يرتسم عليها وجه أحد من رجال حياتي، وقلبي أشبه بقِربة فارغة، وبقايا دموع لا تزال عالقة بأهدابي.

استقبلتني الممرضة بابتسامة عصبية ترمقني بعينين مضيئتين كأنها تتفرج عليّ بانتباه مُحصية حركاتي وردود فعلي. فكرتُ في أن أخبرها كيف عصف بي الغثيان هذا الصباح، لكني آثرت الصمت، فلم يعد يهمني ما يجري لي. كأني منفصلة عن جسدي. طلبتُ إليها أن تحضر لي بعض الجرائد لكنها رمقتني بابتسامة مشاكسة وهي تقول:

ـ آسفة، لن أحضر لكِ شيئاً.

نظرتُ إليها ببرود. هل تظن أنني بحالة تسمح بتحمل مزاحها الثقيل؟! غمزتني بعينيها وقالت:

ـ سأحضر لك ما هو أهم بما لا يقاس من الجرائد.

دخل لؤي بإشارة من يدها. حبستُ أنفاسي وأنا أحدّق في هذا الوجه الذي أعبده، وصرختُ بكل كياني: لؤي. اندفع ابني إلى حضني وغمر يدي المصلوبة على حامل خشبي بقبلات دافئة. كان يجاهد ليبدو صوته طبيعياً وهو يقول:

ـ ماما، كم أحبك.

مسحت الممرضة دموعها وتركتنا في جنة الحب.

عرفتُ بغريزتي أن عليّ تمالك نفسي كي لا أنهار أمام ابني، فتلك الأحاسيس العاصفة التي تملأ صدري تغويني بالانهيار والبكاء في حضن طفلي الذي حُرمت منه. نجحت بعد جهد في الاختباء خلف وجهي كي لا يرى ابني فيّ صورة الأم المنهارة.

سألته:

- لؤي، كيف أتيت؟ من المفروض أن تكون في المدرسة.

ارتجف فم المراهق مُؤذِناً بالبكاء. عجز عن كبح دموعه. سالت دفقة دموع غزيرة على خديه الورديين وابتلّ زغب شاربه بندى أنفه. قال:

- أريد أن أكون إلى جانبك.

- هل يعرف والدك أنك هنا؟

- لا، لم أقل له، لكني طلبتُ الإذن من مدير المدرسة.

احتشدت في رأسي جمهرة من الذكريات، وخنقتني. أمسكتُ يده وأشبعتُها قُبَلاً. شعرتُ بأنه البارحة كان طفلاً في حضني أتشممه وأرضعه وألاعبه. هل حقاً خُطف مني ابني؟! وكيف يمر الزمن في غفلة من البشر؟ طلبتُ إليه أن يضع رأسه على صدري لكنه تردد. أحس كيف يضيء وجهي بفرح غامر. أحس بإشعاعه كهواء حار يلفح وجهي. أطلب إليه مجدداً:

ـ ما بك يا لؤي. ضع رأسك على صدري. أريد أن أضمك كما لو أنك طفل صغير.

نظر إلي بقلق قائلاً:

ـ أخشى أن أؤلمك.

طمأنته: لا يا حبيبي، لم يعد الجرح يؤلمني.

ركع لؤي بجانب السرير ووضع رأسه بحذر على صدري منصتاً إلى دقات قلبي المتفجر بالحب. شعرتُ بأن قبضة قوية تعصر قلبي وتُخرج منه كل الحب المخزون فيه والمتخمّر باللوعة منذ سنوات. لم نتكلم للحظات بدت أبدية، كنا مستسلمين لتلك السعادة الصامتة.

سأل: كم يخفق قلبك بقوة يا ماما. أهو من تأثير الدواء.

ضحكتُ. هممتُ بأن أجيب لكن صوتي اختنق. غريب ما أحسه. إن حجم سعادتي بحجم شقائي، وكلاهما لا يُحتمل.

رفع لؤي رأسه بعد دقائق. رمق وجهي بتعجب وشيء من خوف، سألني:

ـ ماما، إن قلبك يدق بقوة هائلة.

مسحتُ وجهه الذي أعبده براحة مكهربة بالحنان. أتأمله بعينين نهمتين. فكرتُ في أن الحب نَهِم الحنان أيضاً.

يبدو أن صمتي ضايقه، فقلتُ له بصوتٍ أحسسته كبخار روحي المتوهجة بالحب:

- لؤي، إن حبي لك لا يمكن أن تعبر عنه الكلمات.

فكرتُ في أن لحظة المواجهة بيني وبين ابني قد آن أوانها، لم تأتِ مبكرة ولا متأخرة. طلبتُ إليه أن يجلس على طرف السرير، وأن يظل ممسكاً بيدي. استسلمنا لتلك العاطفة الحميمة تغمرنا بعطرها، ونحن نلتهم بعضنا بنظرات شوق عمره سنين، تخمّر في قلبينا طوال سنوات. تأملت ابتساماته الساذجة. تذكرتُ مراهقتي. كنتُ أبتسم بلا سبب. غاص قلبي في لجّة من الحنان. ما أجمل الابتسامات الساذجة التي تحصل بلا سبب، إنها تُعبر عن روح مُحبة متصالحة مع العالم. تحكي نظراتنا قصة درامية لأم وابنها ظُلما، ولا ذنب لهما أنهما عاشا - رغماً عنهما - بعيدين عن بعضهما. كان كل منا يسكن روع الآخر. كنتُ أتأمل وجه ابني بوَلَه شاعرةً بأن كل ما عشته باهت ولا يساوي لحظة لقائي بلؤي. النافذة العريضة التي تعرض لي صُور حياتي، فارغة، مجرد صفحة زرقاء باهتة. ليس هناك سوى وجه لؤي، رجل حياتي الأوحد. فكرتُ في أني لستُ مهيَّأة لهذا القدر من الصراحة التي رغبتُ في أن أواجه بها ابني تلك المواجهةَ التي أحضّر لها منذ سنوات. ووجدت نفسي أبوح له عن ذاتي مدعومة بحبه وبتلك الخطوة

الهائلة التي قام بها لأجلي - هروبه من المدرسة ليبقى بجانبي - والتي تعني تدشين علاقة جديدة بيني وبينه من دون تدخلِ من أحد، وأحكي له قصة أم وابنها أرغما على الابتعاد عن بعضهما بسبب عقلية حاقدة متطرفة ترفض الآخر وتريد سحقه لمجرد أنه يختلف عنها.

كنتُ أحكي والكلام يتدفق من روحي مباشرة، وأحدق في عيني لؤي اللتين يزداد فيهما الذهول المؤلم. كم أنا آسفة يا لؤي، لقد عكّرتُ سلام روحك.

ظل وجه لؤي ساكناً مرتشحاً بألم يمتص كلماتي، ونظراته تزداد حنواً ورقة. كنتُ أتشرب الحب الخام المشع من وجهه. امتلأت عيناي بالدموع، قلتُ له وأنا أمسح دموعه عن وجهه:

- كم يُسعدني أنك تحبني يا لؤي.

- كثيراً جداً يا ماما.

- أتعرف يا لؤي، لم يمر يوم إلا ولديّ إحساس بأني أنتظرك وأنني سأواجهك بالحقيقة كما نفعل الآن. لو تعرف الليالي الطويلة التي قضيتها أبكي لبُعدك وأنا أضم صورتك إلى صدري. أتعرف، أحس بأني راغبة في شكر الله لأنه ابتلاني بالسرطان كي يعود ابني إليّ.

صرخ لؤي: لا يا ماما، لا تقولي هذا الكلام.

انهارت مقاومتي وأخذ صوتي يرتعش فبكيتُ في حضن ابني. حضن لؤي هو الأمان الدافئ الذي ظللتُ

أبحث عنه سنوات.

أخذ لؤي يمسح رأسي الأصلع براحتيه، ويقبّله بنهم وهو يهتف بحماسة المحب:

ـ أحبك يا ماما، أحبك يا ماما، وسأكون معك كل جلسة علاج.

ـ لا يا حبيبي، لن أسمح لك بالهروب من المدرسة بعد الآن.

ـ لكني أريد أن أكون إلى جانبك.

ـ سنلتقي كثيراً من الآن فصاعداً يا لؤي. ألا ترغب في ذلك؟

ـ بالتأكيد يا ماما.

ـ ياه، ما أحلى كلمة ماما يا لؤي، إنها تُشفيني.

ـ هل يؤلمك الدواء يا ماما؟

ـ لم يعد يؤلمني الآن. يصير العذاب وأنت إلى جانبي فرحاً.

استأذنني لؤي ليتصل بوالده. مددتُ له هاتفي الخلوي، ابتلعتُ طعم المرارة وأنا أتذكره بذاكرة شاحبة. كم أحببتُ والده ذات يوم، وكم أنفر منه وأحتقره اليوم.

لا يزال في كيس السيروم قليل من السائل. كم تحمّلتُ الدواء بشكل ممتاز بفضل لؤي.

داعب لؤي شعري المستعار وألبسني البوريك «الطاقية الجميلة» ـ كما سمّاها ـ. قال إن لون الشعر المستعار جميل ولمّاع ويبدو كما لو أنه شعري الطبيعي.

طمأنته إلى أن شعري سيعود إلى النمو بعد إيقاف جلسات العلاج. تظاهر بأنه يعرف ذلك. شعرت بأني بحاجة ماسة إلى المَرح والمزاح. سألته بصوت تتفتق البهجة من حروفه:

ـ لؤي، هل تصدق أن شعري سينمو حين سأوقف الدواء؟

ـ أكيد يا ماما.

ـ لكنه سينمو لأنك تحبني، هذا ما لا يعرفه الأطباء البُلهاء.

ضحكنا. في صوتي شيء يثير الضحك. ربما انتقلت عدوى رغبتي في الفرح إلى لؤي، صرنا نضحك ببهجة حقيقية ونحس بأن العالم كله يضحك معنا.

ـ ماما، هل تقبلين دعوتي لك إلى الغداء؟

لو يعرف صغيري كم أنفر من الطعام بعد الجلسات الكيميائية، وكم تحرَك فيَّ الروائح والطعوم غثياناً حاداً.

لكني وافقتُ بحماسة. رفع يده محذراً وقال:

ـ اسمعي، أنا من سيدفع الحساب.

تأملتُ حركاته وتقاطيع وجهه بوَجد، تنبهتُ كم يشبهني ابني. أعطاني هذا الشبه إحساساً بالأمان، ولا

أعرف لماذا حرّك في أعماقي نشوة النصر. كأني موجودة هناك بينهم، أولئك الحاقدين، الذين حرموني ابني. لم أعد أشعر بأني امرأة مبتلية بالسرطان تجلس في فراش المرض، بل صرت، من اليوم، امرأة معافاة تجلس في حضرة الوَلَه.

سحبت الممرضة إبرة السيروم من يدي وهي تربت على خدي بتأثر واضح وتقول لي بأن ابني رائع. دعت لنا بالسعادة، وتوقفت قبل أن تنصرف كأنها تذكرت شيئاً هاماً.

قالت: أتعرفين، وجهك هذه المرة مختلف تماماً عما عرفته من قبل. قومي وانظري إلى المرآة. ونقلت نظرها إلى لؤي لثعلمه أنه السبب.

سألني لؤي إن كنتُ أنزعج من قيادة السيارة. طمأنته إلى أني أحب القيادة بعد جلسات الأشعة ولا ترهقني أبداً. أدرك لؤي مدى حاجتي إلى ثرثرته، فحدثني عن رغبته في دراسة هندسة الاتصالات برغم أن والده يريده أن يدرس الطب ليرث «امبراطوريته» الطبية، لكنه تمكّن من فرض رغبته على والده. كنتُ أصغي إليه وقلبي يرفرف سعادةً، شاعرة بأن لؤي ينتقم لي بطريقة ما.

سألته: وأين ستدرس هندسة الاتصالات؟

- في لندن.

قلتُ بانفعال: لا يا لؤي، هل سنفترق من جديد؟

لم يُجب. غشيت وجهه سحابة حزن. نظر إلي نظرة كلها رجاء.

ـ ماما أرجوك، يجب أن تشجعيني أنتِ وأبي لتحقيق طموحي.

عشتُ هذا المشهد المؤثر كغريبة: أم وابنها في صراع بين العقل والعاطفة.

ـ معك حق يا لؤي، لا يجب أن نكون عائقاً في وجه مستقبلك.

في المطعم الفخم الذي اختاره لؤي كانت السعادة تتمثل لي في أشعة الشمس اللطيفة التي تغمرنا تاركة لوعة في قلبي. رأيتُ البصيص الخافت الذي كان يلتمع في قلبي والمشرف على اليأس، كيف تحوّل إلى شعلة لهب وامضة. كم أحس بعطش. لطّفت جرعات الماء قلبي الملتهب. وبرغم تحذيرات الطبيب ألا أشرب كحولاً بعد العلاج الكيميائي فإنني طلبتُ نبيذاً فاخراً له طعم المخمل؛ نبيذاً لذيذاً جعل دموعي التي ترشح بشكل غير مرئي من عيني، معطّرة. هل هناك دموع معطرة؟ مازحتُ نفسي. أشعلتُ سيجارة خفيفة النيكوتين. كنتُ مستسلمة لهدهدة الحب الذي يدغدغ بشرة وجهي بموجات لذيذة. ما أسعدني وأنا أقرأ حب ابني لي. أرى جسدي الواهي في عينيه ليناً مسترخياً

بعد كأس النبيذ. غاب إحساسي بأني معطوبة. نسيتُ أني بلا ثدي، وأعاني كآبة قاتلة وآلاماً قاسية في أنحاء متفرقة من جسدي. وجدتني من دون تصميم أحكي للؤي كيف أخذوه مني وهو لم يكمل عامه الأول، وكيف سافرتُ إلى دبي على أمل أن أعود بعد عام ليلتئم شمل الأسرة الصغيرة. حكيتُ له عن معاناتي هناك، وكيف كنتُ أنام والدموع تملأ عيني، وأفيق والدموع عالقة بأهدابي، وبأن طفلة صغيرة اسمها نورا وحدها كانت عزائي.

ـ من نورا هذه؟

ـ نورا ابنة خالك، في عمرك. كنتُ أضمها إليّ شاعرة بأني أضمك إلى صدري. تصور صدمتي يا لؤي حين رجعت بعد عام ونصف عام وحقيبتي محمَّلة بالهدايا لك، وصدري مُفعَم بالشوق إلى احتضانك والعيش بقربك، لكن كان والدك قد أخذك إلى أميركا...

منعتني الدموع من إكمال كلامي...

أمسك لؤي يدي يرجوني ألا أبكي. مسح دموعي بيده الحانية فوعدته ألا أبكي.

ـ ماما، أتعرفين، أبى يحبني بجنون.

ضحكتُ، آه يا لؤي لو تعرف كم أن والدك جبان وتعيس...

هممتُ بأن أتحدث عن والده، لكني تراجعتُ. لن أعكر روح حبيبي الصغير بالحقيقة. إنه مطمئن وسعيد لحب والده له. سألت ابني:

عجباً يا لؤي، لماذا لم يتزوج والدك ثانية، إنه شاب وثري وطبيب ناجح.

ـ لا أعرف يا ماما، إنه يرفض الزواج رفضاً كلياً.

فكرتُ في أن رفض أحمد للزواج هو نوع من تأنيب الضمير لأنه حرمني من ابني، وهو نوع من العقاب لوالدته أيضاً لأنها هدمت سعادته واستقراره بإقناعه بأني لا أناسبه وأني كافرة.

غيّر لؤي الحديث بلباقة. أخبرني عن ولعه بالكمبيوتر وعن تركيزه على دراسة اللغة الإنكليزية كي لا يجد صعوبة في الدراسة حين يسافر إلى لندن. كنت أستمع إلى ابني شاعرة بأنه صار لي مستقبل.

توقف لؤي فجأة عن الكلام كأنه تذكر شيئاً هاماً، قال:

ـ ماما، أتعرفين، كنتُ أريد أن أقول لك شيئاً.

ـ خير يا لؤي.

تضرَّج وجهه بالحمرة. ارتعش صوته ونظر إلى البعيد. أخذ نفساً عميقاً وقال:

ـ أتعرفين يا ماما، لم أكن أعرف كم أحبك إلا حين أصابك المرض وأجريتِ العملية. كنتُ أصلي لك كل يوم كي تشفي.

ـ أتعرف يا لؤي، لم يعد يهمني أن أشفى أو أبقى مريضة، المهم أنك إلى جانبي وسأراك كثيراً. أتعدني يا لؤي بأن نلتقي كثيراً.

ـ أعدك يا ماما. على فكرة، يحكي لي والدي عن ذكائك وتفوقك في الهندسة. يقول لي: إني يجب أن أفخر بك، فقد تفوقت على المهندسين الرجال.

ضحكتْ: أحقاً يقول والدك هذا الكلام

ـ أجل، لماذا تندهشين؟

ـ لأنه طلقني لهذه الأسباب.

لم أنتبه إلى أن أحمد يتقدم منّا بقامته الفارهة. كانت مشاعري لا تزال ملتبسة نحوه، فأنا أحس بواجب مسامحته، لكني أسامحه باحتقاري له؛ أحتقره احتقاراً ودّياً.

سألني باهتمام عن صحتي وأبدى انزعاجه لأني شربتُ نبيذاً.

كنتُ أتأمله موصلة له الازدراء الخفي الذي أحسه نحوه. أشاح نظره بعيداً. كم يكره ذلك الازدراء اللطيف الذي أظهره له.

لكن سرعان ما غمرتني شفقة على ذلك الأب المسكين، لقد ماتت مشاعره ما عدا ما يشعر به نحو ابنه من حب كبير.

سألت أحمد:

ـ إذاً، أنت موافق على أن يدرس لؤي في لندن هندسة الاتصالات.

ـ بالطبع، لن أقف عثرة في وجه مستقبله.

ـ وكيف ستتحمل ألم الانسلاخ عنه؟

ـ المهم مستقبله وسعادته.

بحلقتُ فيه متعجبة:

ـ أأنتَ من يقول هذا الكلام. لماذا لم تدافع إذاً عن سعادتك؟

امتعض أحمد من تعليقي الفظ، وأشار إلى النادل أن يحضر الحساب.

ـ على كل يا أحمد، حين يسافر لؤي سأعطيك بعض النصائح الهامة.

قاطعني بعصبية: نصائح حول ماذا؟!

ـ ليست نصائح، بل أساليب حياة عديدة جربتها بنفسي، تساعدك على العيش وخنجر مغروس في قلبك.

كان وقع كلامي فظاً ومباغتاً. أنا نفسي دُهشتُ مما تفوهت. رغبتُ في الاعتذار، لكن النادل أنقذني حين مدّ ورقة الحساب لأحمد فخطفها لؤي قائلاً: أنا الداعي.

أخرج حقيبة يده الجلدية الأنيقة ليدفع الحساب. كنتُ أتأمله بوجد وأهتف لنفسي: أنت حبيبي الوحيد في هذه الحياة.

أوصلاني حتى سيارتي. عانقني لؤي مطولاً ورجاني أن أهتم بصحتي ووعدني بأن يزورني كثيراً. وجدتني أتشممه بعمق محتفظة برائحته لتعزيتي. ناديته قبل أن أنطلق بالسيارة، كان قد ابتعد، سألته بصوت مرتفع:

ـ لؤي، أتعرف ما يجعل السرطان يموت.

بدا عليهما التأثر. أكملتُ كلامي وأنا أحس بأني أرتفع من الأرض إلى السماء.

ـ ألم تعرف يا لؤي: الحب هو الذي يجعل السرطان يموت.

## الجلسة التاسعة

صرتُ أنتظر جلسات العلاج الكيميائي انتظاراً آلياً من دون أن أفكر في شيء، بل رغبتُ في أن أغذّي في نفسي صفة كنتُ أمقتها بشدة، وهي قلة الانتباه. بدت لي حياتي لطيفة ولم يعد واقعي قاسياً وراضاً. كانت أيامي تتجرجر في ذلك الحزن الناعم بلا دموع، لكنّ ثمة أمرين ظلا يؤرقاني كثيراً: نغمة الانكسار في صوتي، إذ صرت أرتعب من أن صوتي الواثق المعافى لم يعد هو بل صار منكسراً ومهزوماً؛ والسبب الثاني الفزع المبالغ به من الليل. صار النوم يفزعني وأحس بهلع تجاه ظلمة الليل التي سرعان ما تكتنف روحي وتُغرقها في الظلام. تتكثف في الليل وحدتي، ولا يستطيع أحد أن يوافيني إلى قاعها حيث أقبع وحيدة أعاني الوحشة وأجتهد في إحياء الأمل في نفسي من غير جدوى. صرتُ أحتاط في الليل فأشعر بأنني أحصّن نفسي بأشياء تشبه الثقة بالنفس مثل موسيقى مؤثرة تتغلغل في تعاريج روحي المضطربة، وكتب تغريني بقراءتها، وذكريات لطيفة نادرة. لكني لم أعد أثق بالحنين ولا

بالذكريات، وأضجر من الكتب مهما كانت جذابة، وترهقني الموسيقى فلا أتحملها. يُشعرني كل شيء بالضجر والإرهاق، وكثيراً ما أقضي ليالي طويلة أصارع الأخيلة المفزعة لوحشة الليل حتى يبزغ الفجر الناعس المُرهق والمُسهد مثلي، عندها أشعر بأن بلاطة انزاحت عن صدري، وأن ملاكي الحارس عاد ليحط على كتفي ويقوم بدوره في حراستي من الأرواح الشريرة التي تعكّر سلام روحي.

لم أتوقع أن يتأثرن لمرضي إلى هذا الحد، فعلاقتي بهن برغم لقاءاتنا الطويلة سطحية، لكن باقات الورد الهائلة التي وصلتني منهن تركت في نفسي أثراً كبيراً. كنتُ واحدة منهن ـ جلسة النساء ـ كما أسميهن، واليوم فاجأتني الممرضة بباقة ورد عملاقة مع بطاقة كتبن عليها جملة: لن نجتمع إن لم تعودي إلينا يا زينة جلسة النساء.

بدت لي تلك العبارة البسيطة ذات ثقل هائل وعميق ووقع كبير في نفسي لن أنساه. نزعت البطاقة من الباقة، عصرتها بيدي وعيناي ترشحان بدموع الشوق إلى جلسة النساء. أحسستُ بالخجل والتقصير تجاههن، وفكّرت في أنه كان علي استحضارهن إلى ذهني منذ الجلسة الأولى لعلاجي. كم أحنّ إلى جلساتنا التي كانت تستمر ساعات، وكم يُغرقني الحنين إلى سماع

أحاديثهن وضحكاتهن ودخان الأركيلة يتصاعد من أفواههن. لم يكنّ صديقات بمعنى الصداقة، ومرات كثيرة قررتُ الانسحاب من تلك الجلسات مؤكدة لنفسي كل مرة أن وجودي معهن يرسخ إحساسي بالوحدة.

كنتُ الوحيدة بينهن التي حققت مرتبة علمية عالية وتفوقت في عملها. لم يكنّ يعملن، الصفة الرئيسية لديهن أنهن ربات بيوت. كنتُ أصغرهن وبعضهن في عمر والدتي، وكنّ برغم ذلك بطانةَ حياتي، أتحمل بواسطتهن الواقع المُحبِط الذي أعيشه فأشعر بأنهن يتواطأن مع واقعي لخداعي كي أتحمل الحياة في مدينة تُنتهَك وتتراجع مع الزمن؛ في مدينة تحولت من أميرة جميلة يخطب الجميع ودّها إلى امرأة مُعاقة تشبهني. كنتُ أتفرج على مدينتي وقد هدها الحزن، وأعاني من حالة غريبة من فقدان الصبر لكل شيء. كنتُ معهن فقط ـ صديقاتي النساء بامتياز ـ أسلم نفسي للضجر من الحياة، فوحدهن قادرات على امتصاص قلقي المتزايد مع الزمن. غريب ما يحدث لي، فكلما تقدمت بالسن وترسبت التجارب بداخلي صرتُ أخاف من توضيح صورة حياتنا، بل لم تعد لديّ رغبة في توضيح أي شيء. الانتهاك والفساد ينخران كل مظاهر الحياة حولي، فأهرع في المساء إلى بيتي كمن يحتمي من خطر خارجي سوف يداهمه بالتأكيد.

صديقاتي النساء اللاتي تجاوزن عقدهن الخامس، يقدمن إلي راحة لذيذة أشبه بالخدر. كان أزواجهن الخونة محور أحاديثنا كل مرة، وصرتُ أحفظ التفاصيل الدقيقة لخيانات الأزواج وأجد متعة وأنا أسمعهن يُعدن رواية قصص قصصنَها أمامي عشرات المرات، لكني لا أحس بالضجر أبداً، بل بالاستمتاع الكامل. لم أكن ألمس آلامهن في تلك القصص بل خيباتهن، إذ يبدو أن تلك الخيانات آلمتهن كثيراً حين كنّ شابات، أما وقد غدون جدات، فما عدن يملكن سوى خيبات الذكريات. كان وجودي بينهن أساسياً، أنا المتمردة التي لا أشبههن في شيء. كأن واجبي أن أملأ فراغ أرواحهن. كنت أشعر كيف يُحرقهن الفضول ليعرفن إن كان لدي عشّاق، وأتقبّل «نصائحهن» وأنا أضحك: «عيشي حياتك، لا تزالين شابة، من حقك أن يكون لديك عشيق لكن إياك والزواج، الزواج يعني العبودية». كن يؤكدن لي أن الزمن لو عاد بهن إلى الوراء لامتلكن شجاعة الطلاق، ولشرّعن قلوبهن للحب المتحرر من قيد الزواج. كنتُ متأكدة ـ مثلهن تماماً ـ أنهن لا يعنين ما يقلن، لكني كنتُ أتواطأ معهن، ونتظاهر بأننا نصدق ما نقول. أقنعن أنفسهن بأن من طبيعة الرجل الخيانة، وأن غريزة الرجل أقوى من غريزة المرأة، لذلك فهو مضطر إلى الخيانة!! كنتُ أرد عليهن ببرود، بأن العلم أكد أن غريزة

المرأة متساوية مع غريزة الرجل، وكل الفروقات التي يتحدثن عنها هي بحكم التربية.

لكني كنتُ أندم على كلامي حين أرى الأذى والحزن اللذين سببتهما لهن، فأتراجع وأؤكد لهن أن نظريات علمية أخرى أكثر تطوراً توصلت إلى ما يشبه استنتاجاتهن!

صرت عَصَباً هاماً في جلسة النساء، نحتسي البيرة أو الويسكي، ونأكل التبولة والمازوات اللذيذة وندخن الأركيلة ونتسلى بأعظم تسلية في العالم: الكلام.

جلسةً بعد جلسة مع نساء حياتي، فهمتُ أنهن يحتجن تحديداً إلى خيانات أزواجهن كي يشعرن بوفائهن البطولي، وكي يقدّرن سمو نفوسهن ونبلها. ومن يُشعرهن بالنبل سوى خيانة الأزواج؟ أقنعتْ كل واحدة نفسها بأنها ضحّت بحياتها لأجل أولادها. كم يحز في قلبي تأمل خيباتهن وحديثهن الأبدي عن خيانات الأزواج والعمر الذي ضاع في خدمة أُسرهن من دون أن يقدّر أحد تضحياتهن. لقد لبسن شخصية الجدات رغماً عنهن؛ تلك الشخصية التي تعني الزهد في مُتَع الحياة والاكتفاء بالعيش على فتات سعادة الآخرين القائمة على خدماتهن. كنتُ أعرف أزواجهن: رجالاً في عقدهم الخامس أو السادس، متصابين، يبتلعون الفياغرا ولديهم عشيقات أصغر من أولادهم!

أكثر ما يؤلم صديقاتي النساء، أنهن تحملن الأيام الصعبة مع أزواجهن، وكافحن معهم حتى جمعوا ثروات معقولة، فانصرف عندها الأزواج عنهن إلى العشيقات الشابات.

كان لدى إحدى النساء هوس في التلصص على زوجها، وقدمت رشوة كبيرة إلى عاملة في الهاتف كي تسجل لها مكالمات زوجها مع عشيقته، فتسمع غزله الفاحش وهي تحترق غيظاً وغيرة! كانت عاجزة عن صرف تفكيرها عنه وتموت حنقاً وهي تتخيله يمارس الجنس مع عشيقاته ويبلغ نشوته العظمى. أخبرتني أنه يملك طاقة جنسية هائلة برغم بلوغه الخامسة والخمسين، لكنها لم تَبُح لي أن هجره لها يؤلمها، فقد كانت عند تلك النقطة بحاجة إلى لملمة كرامتها والتظاهر بأنها لم تعد تحبه ولا ترغب في أن يقربها، ومن حسن حظها أنه وجد عشيقة ترضى بسخامه!

وحين كنتُ أسألها: لماذا لا تطلبين الطلاق؟

ترد للحال: من أجل الأولاد!

ـ لكن الأولاد كبروا وتزوجوا ولم يعودوا بحاجة إليك.

تضطرب نظرتها. تصمت. أحس بالندم. أكان عليّ أن أحرجها... إنها باقية لأنها تعيش على حساب زوجها، ولم يعد لها، وهي امرأة تجاوزت الخمسين، خيارات في الحياة، فهل بإمكانها الحصول على عشيق في العشرين

كالعشيقة التي يستمتع معها زوجها؟! وهل بإمكانها أن تعمل؟ وهي التي لم تعمل يوماً ولا تملك أي مؤهلات علمية!

ما الذي يجمعني مع النساء الرائعات اللاتي أشعر بنقص شديد إن لم أجتمع بهن كل فترة. أفكر فيهن الآن بحنين كبير وأنا ممددة على السرير الذي ألفته، وأتلقى العلاج الذي اعتدث على آثاره الجانبية الكريهة. إنهن مُخدّري واسترخائي. أشعر وأنا معهن كمن يستسلم لحرارة شمس لطيفة وهو مسترخ على رمل الشاطئ يرنو إلى البحر ولا يفكر في شيء. لكن شيئاً معقداً أحسه في علاقتي بهن، فتلك العلاقة الملتبسة بيننا تذكّرني كل لحظة بأنه كان بإمكاني أن أكون إحداهن لو رضيت أن يكون الرجل سيدي، وكن يشعرن بدورهن بأنه كان بإمكانهن أن يكنَّ مثلي لو تجرأن، وهن شابات، ورفضن سلطة الرجل، وبَنَيْنَ أنفسهن، وكن سيدات على ذواتهن، وليس مجرد جَوارٍ. كانت تلك العلاقة الملتبسة بيني وبينهن تزيدنا التحاماً ببعضنا.

كن يسألنني بشكل موارب كيف أعيش شبابي، وهو سؤال يعني تحديداً: أليس لديك عشيق؟! وكنت أضحك ولا أرد بأي جواب، فلا يكررن السؤال. أفكر الآن في أننا، نحن النساء، مهما كنا مختلفات لا نجرؤ على الاعتراف لبعضنا بحيواتنا السرية. وعلى الرغم من أننا

نقرأ الحقيقة في عيون بعضنا، إلا أننا لا نقولها بصوت مسموع، بل نهمس بها داخل ذواتنا همساً. كل واحدة منا تحس بالطاقات المكبوتة في أعماق صديقاتها، لكنّ أياً منا لا تساعد نفسها ـ ولا صديقاتها ـ على تفجير تلك الطاقات.

كان نظري موزعاً بين باقة الورد الرائعة وصفحة السماء الزرقاء؛ شاشة العرض التي أُسقِط عليها ذكرياتي. لماذا ابتعدتُ عنهن في محنتي مع أنهن اتصلن بي مراراً وزرنني. كم أنا قاسية مع صديقات حقيقيات. ربما كنتُ أتهرب من نظرات الشفقة في عيونهن، ومن عبارات العطف التي لا أطيقها؛ وربما لإحساسي بالهزيمة تجاههن، فأنا التي تفوقت في عملي وصار لي اسماً لامعاً في عالم الهندسة، أنهزم بالسرطان. وهن المحدودات في تحصيلهن العلمي وفي معارفهن وثقافتهن، اللاتي لم يعملن يوماً، صحتهن ممتازة ولا يشكين من أي علة جسدية! لكنْ، أيّ تفكير مريض هذا! سأتصل بهن وأنضم إلى جلسة النساء، مُخدّري الألطف في هذا الواقع المشحون بالضجيج. لم أنتبه إلى أن هناك بطاقة أخرى من فدوى. وما إن قرأت اسمها حتى هوى قلبي وأنا أتذكر خالد، أخاها الأصغر الذي جمعتني به علاقة خاطفة، لكنها تركت أثراً عميقاً في نفسي. عرفتُ خالد قبل أن ألتقيه بزمن طويل. رأيت صوره

وقرأت رسائله إلى أخته. كان ركناً في حياتها، فهو الذي دعمها لتشتري بيتاً بعد وفاة زوجها، وهو الذي تكفل بتأمين مصروف ولديها، واعتبر نفسه مسؤولاً عنهما. كما لو أنه والدهما. وبعد أن تخرج ابنها البكر من كلية الهندسة أمّن له عقد عمل في الشركة الهندسية الضخمة التي يُعتبر خالد من أهم مهندسيها. وفي كل مرة ألتقي فدوى يكون خالد معنا، فتبادرني بقولها:

ـ تصوري يا مريم، قلتُ لخالد إن الحَر هذا الصيف لا يطاق، فأرسل إلي بعد يومين ثمن مكيف هواء. خالد قمة في الذوق واللطف والكرم، لكن المسكين تعيس الحظ.

ـ لماذا، ألا تقولين إنه واحد من المهندسين القلائل الذين حالفهم الحظ في دبي وجمعوا ثروة.

ـ لأنه تعيس في زواجه. لم يعش يوماً سعيداً مع زوجته.

ـ ولِمَ يستمر معها؟

ـ لأنه إنساني ويعبد أولاده، لكن الحقيرة تحاربه بهم.

ـ كيف؟

ـ كلما فكر بالانفصال عنها بسبب الجحيم الذي يعيشه معها، تُقيم الدنيا عليه ولا تُقعدها. تقطع شرايين يدها أو تبتلع علبة فاليوم. تقوم بأفعالها المجنونة أمام أولادها وهي تزعق بأن والدهم يريد دفعها إلى الجنون

كي يتخلص منها ويتزوج بامرأة أخرى، فيذعن خالد لقَدَره ويضحّي براحته وسعادته في سبيل أولاده.

ـ لكن امرأة هستيرية مثل زوجة خالد، خطرة على أولادها. فأي مثال مرعب تقدمه إليهم؟!

ـ معك حق، لكن الأولاد مساكين، فهم مقتنعون بأن أمهم مسكينة وأنها تقوم بهذه التصرفات لأنها تخاف أن تفقدهم وتفقد والدهم إذا طلقها. إنهم يشفقون عليها، والشفقة أقوى من الحب.

ـ لكن ما ذنب خالد كي يعيش عمره تعيساً؟

ـ خالد لا يعيش لنفسه بل لأولاده. لقد أهمل ذاته منذ زمن بعيد. لا تتصوري يا مريم كم أحزن عليه. كان يستحق أن يتزوج بامرأة عاقلة تحبه وتُسعده.

صرتُ كلما التقيتُ فدوى أتعمد بطريقة خفية أن أسألها عن خالد، وتروي لي في كل مرة قصصاً تذهلني عن تصرفات زوجة أخيها. فذات مرة قرر خالد السفر إلى أثينا تلبية لدعوة أحد أصدقائه ليرفّه عن نفسه قليلاً، فما كان من زوجته إلا أن أعلنت ثورة عارمة على الصديق الذي دعاه وحده من دون زوجته، واتهمت الاثنين بالفساد، وأن غاية تلك الرحلة إقامة علاقات جنسية مع نساء ساقطات. وما كان من الزوج والأولاد إلا أن غرقوا في النوبات الهستيرية للزوجة، فاضطر خالد إلى إلغاء سفره.

لا أعرف ما الذي يشدني إلى خالد يوماً بعد يوم، هذا الغريب الذي لم أحدثه مرة واحدة. ربما أحببت فيه صورة الرجل المُضحي، فالتضحية صفة التصقت بالمرأة، ونادراً ما سمعتُ أو التقيت رجلاً، خاصة إذا كان ثرياً وشاباً، ضحى بحياته وسعادته في سبيل أولاده. ووجدتني مع الأيام عالقة في شباك عاطفية خيالية مع خالد. بدا لي هذا الحب الأفلاطوني لرجل مجهول، له فرادة ونكهة خاصة، وأجمل ما فيه أنه غير منطقي، ويسلّيني على الأقل في قحط أيامي وفراغها من العاطفة. خالد هو الرجل الحلم الذي يعيش في الخيال ونبحث عن شبيه له في الواقع. صرتُ أسلّي نفسي بالتفكير في حياته ولياليه الطويلة الشاحبة وإرهاق عمله وتلك المجنونة التي تسمم حياته وتُرهبه بتصرفاتها الخرقاء. وعشتُ بخيالي عواطف متخيَّلة حلوة مع خالد، تتغذى بما تسمعه من قصص عن حياته. وسمحتُ لنفسي مع الوقت بأن أداعب خالد وأقبله وأتعرّى أمامه. يساعدني الخيال للتحايل على حاجتي إلى الحب. لقد حوّلت هذا الحرمان إلى حنين إلى رجل بعيد اسمه خالد. كان يمكن أن يبقى خالد رجل الحلم لولا الحادث المريع الذي تعرضت له صديقتي وأدى إلى تهشم جسدها بالكسور. التقيت خالد بعد عام من فشل زواجي الثاني، كنتُ وقتها أبحث عن كتبٍ لكتّاب

يدّعون أنهم يعالجون التيبس في الروح، ويقدمون نصائح لبث الأمل في نفوس محبَطة. أذكر أنني كنت أجرجر ذيول فشلي الثاني في الزواج وأتسقَّط أخبار خالد ومعاناته مع زوجته الهستيرية كوسيلة للهروب من مشاعري المُحبَطة. وحين تعرضت فدوى لحادث السير الفظيع ورأيتها على حالتها المريعة في الإسعاف لم أصدق أنها ستنجو من الموت، لكن خالد الذي حضر بعد يومين أصرَّ على نقلها إلى أفضل مشفى، وجنّد لها طاقماً من أشهر الأطباء. كانت في حالة غيبوبة بسبب وذمة شديدة في دماغها وكسر في جمجمتها. وكان خالد يعرف أني أعز صديقة لأخته، وأظنها حدثته عني كما كانت تحدثني عنه.

أذكر النظرة الأولى التي تبادلناها ـ خالد وأنا ـ. شعرنا بأننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل، وبدا كأن ثمة شيئاً عالقاً بيننا؛ شيئاً غامضاً لكنه حقيقي ومؤكد، وأشبه ببرعم هوى غامض في طريقه للتفتح. حنين متخمّر طويلاً في روحينا، تفتق بشرارة مباغتة وُلدت من نظراتنا، وتسلل خارجاً من شقوق روحينا. كانت كل أحاديثنا عن أخته، وهل ستتجاوز الخطر؟ كنا نحكي ساعات بينما دوامات من الأحاسيس الحارة تتسرب خلف حديثنا وتلحمنا ببعضنا فنشعر بنشوة ذلك التواصل الدافئ واللامنطقي بيننا.

خالد رجل حقيقي يملك مشاعر صادقة، وليس كلامه مجرد كلام. صرتُ أحس بالذنب تجاه صديقتي، فإصابتها تقدم إلي سعادة بطريقة ما. أحببتُ روح خالد القادرة على تحويل الألم والخيبة إلى قوة وطاقة لإسعاد من حوله. عرفت كم ساعد شباناً باحثين عن فرصة عمل. كانت آلامي أعطتني خبرة فريدة في تقدير حجم آلام الناس فأدركت كم أن الحياة جرحت خالد كثيراً، لكنه استطاع بقوة قلبه وحدها أن يتحمل هذه العذابات. حدثني عن زواجه التعيس. قال إنه عبد في مؤسسة الزواج، ويضحي بسعادته من أجل أولاده. قدّرته لأنه لم يشتم زوجته بل اعتبرها مريضة بالوسواس. قال إنها من النوع الذي يحتاج إلى ضحايا دوماً كي تعيش، وعذرها لأنها تجهل أنها تسمم حياته وحياة أولاده ولا تملك القدرة على التحكّم بتصرفاتها. حدثني عن نوبات الغرام الهستيرية التي تنتابها، فتقوم من عز النوم لتقبل قدميه وتستغفره وترجوه ألا يتركها كي لا تقتل نفسها... خالد مشلول وعالق بشباك تلك المرأة كما تعلق ذبابة بشبكة عنكبوت. ولم أجد له بعد أن حكى لي طويلاً عن أشكال معاناته معها، أي عذر في الاستمرار معها، فلتقتل نفسها أليس أفضل من أن تسجنه في رعب أبدي وخوف من مسؤوليته عن انتحارها.

سألته: لِمَ لا تعرضها على أطباء نفسانيين؟

قال إنه فعل، وقد شخصوا مرضها على أنه نوع نادر وصعب من الوسواس القسري، وأخبرني أنها تُقبل أحياناً على العلاج وترفضه أحياناً بشراسة.

نسي خالد طعم السعادة. أفراحه سطحية وعابرة لا تترك وشماً في الذاكرة. وحتى لو ابتعد عن بيته يظل الوجوم مرتسماً على وجهه. إنه غير قادر على البهجة كشخص فقد إحساسه، فما عاد يميز بين السعادة والشقاء.

نشأ بيني وبين خالد تواطؤ غريب لدرجة أن كلاً منا يستطيع أن يقرأ أفكار الآخر بسهولة. لم يقل لي مباشرة إنه أحبني، لكنه قال إن كل كيانه ينبض ويضج بقوة حين يراني، وأخبرني أنني أنعشت ذاكرته وأيقظت عواطفه من سبات طويل. ولكنه، برغم ذلك، يتذوق طعم السعادة بحذر وخوف معي. كنت أقف وإياه عند حدود المجازفة. يعرف كل منا كم يحتاج إلى الآخر، لكن أياً منا لا يُقدم على اقتحام ذلك الفضاء الجميل المعطَّر بشذى الحب بيننا. ربما نتخيل أننا يمكن أن نخدش سحر هذا الشعور الشفاف كوشاح من حرير إذا تلامسنا. يخجل خالد من حاجته إلى حبي، بينما كنت حائرة ومترددة بشأن هذا الهوى المباغت: هل عليّ أن أحاربه أم أستسلم له؟ أنا المرضوضة المشاعر والعائدة

شبه مدمرة من ألمانيا. ثم إنني أعرف تماماً أن خالد سوف يعود إلى عالمه البعيد حالما يزول الخطر عن أخته، ولم يكن ذلك يؤلمني برغم أن دموع الوجد كانت تسيل عفوية من عيني حين أفكر في غياب خالد. ما أعرفه أننا علقنا في شباك هوى مباغت، لكننا نقف مشلولين حياله ولا نملك جرأة قطف الثمرة المحرَّمة.

كنا نقضي ساعات، خالد وأنا، إلى جانب أخته. كل منا يجلس على طرف سرير المريضة عارفين أننا نجلس على ضفتي حب يعاني إعاقات أكثر من تلك المسكينة المهشمة. تضفي عينا خالد المتشحتان بحزن جليل عليه نبلاً وأناقة. أتلذذ بإدراكي حاجته إليَّ وشوقه المحموم إلى احتضاني، وأنا أؤمن في الوقت عينه كم أحتاج إليه، وأرغب فيه، ولا أقوم بخطوة واحدة لإغوائه.

كنت أناقش نفسي كما لو أني أفكر في قضية لا تخصني: هل أسمح لهذا الحب بأن يعبّر عن نفسه؟ هل أسلم نفسي إلى خالد؟ وما الخطأ في ذلك؟ لماذا لا نقطف السعادة بالبساطة والجمال نفسيهما اللذين نقطف بهما عنقود عنب متدلياً من دالية؟

أي ضرر لو نستسلم لهوى التجربة ويعود بعدها كل منا إلى حياته؟ لماذا تعقيدات الأخلاق السخيفة التي لا تقدم شيئاً سوى مزيد من الكآبة وألم الكبت؟!

أعتقد أنه كان متردداً أكثر مني، ربما بسبب فرط رقته وإنسانيته. خشي أن يسبب لي ألماً أو أذىً. ليس خالد من النوع الذي يقطف اللذة ويُدير ظهره للمرأة التي وهبته نفسها. أحس به كيف يلجم عواطفه ويقمعها، لكن يبدو أن للحب منطقاً خاصاً، فهو يجاهد دوماً لمصلحته الخاصة. يشقّ الحب الحقيقي لنفسه طريقاً من دون أن يعتمد عوناً من أحد. يولّد في النفوس المترددة شجاعة مغامرة. وجدنا نفسينا ذات عصر مشحونين حتى الحدود القصوى بالرغبة. لم يحاول أي منا التفوه بكلمة. مشيت معه إلى حيث أراد من دون أن يطلب إليّ ومن غير أن آذن له. رافقته إلى منزله البعيد عارفة روعة ما ينتظرنا من دون أن نلمّح إلى شيء، وتبادلنا في المصعد عناقاً دافئاً بصمت تام. لم أكن أفكر في شيء سوى أني أعانق رجلاً أحبه كما لو أن ذلك يحدث في الحلم. كم كان عناقاً حاراً وبسيطاً ومنفلتاً من الرقابة الغبية والتافهة للموروثات والتقاليد. لم أتوقع أن يحدث هذا التناغم المثير والحار بين جسدينا، ومارسنا طقوس حب أزلي من دون وَجَل أو تردد، عارفين بحدس الحب وحده أساليبَ خفية إلى النشوة العميقة؛ نشوة الروح التي تضيء نشوة الجسد.

لم نعلّق عمّا حصل بيننا، ولم نتحدث عن ذلك الوصال. لم نَعِد بعضنا بشيء. كنتُ أعرف أن خالد

منجذب بأعمق كيانه إلى أولاده، وأنه اتخذ قراراً أن يهديهم حياته، ليس لإيمانه العميق بعظمة تضحيته، بل لأن تلك المرأة شلته وجعلته غير قادر على الابتعاد عن مجال مغناطيسها المسموم.

حتى لو صادف سعادته فإنه سوف يهرب. كنت متأكدة من ذلك، فخالد يخشى السعادة. لا يملك الثقة بنفسه بأنه أهل ليعيش علاقة حب سعيدة تحتاج إلى صيانة وشجاعة، وكنت أنا لا أزال مرضوضة المشاعر ولا أملك همة بدء علاقة جديدة مهما بدت واعدة بالسعادة. لذا تركنا نفسينا، أنا وهو، معلقين في فضاء علاقتنا كشذى وردة يعبر الفضاء ولا نعرف من أين ينطلق ولا إلى أين يتجه، لكننا واثقان من أن هذا الحب بيننا جميل وملائكي لا يترك ندوباً في الروح.

ودعت خالد بعد أن اطمأن من زوال الخطر عن أخته. لمست وجهه بحنان كأني أخزّن تفاصيله في راحة يدي. وبرغم تواعدنا على تدبير لقاءات في المستقبل وبرغم عناقنا اللاهث ونهمنا المجنون، كنا عارفين أن كلامنا مجرد كلام، ولن نبذل أي جهد كي نلتقي في المستقبل. وكم ذهشت من مشاعري في اللحظات الأخيرة لعناقنا، حين تمنيتُ بصدق ألا أراه ثانية برغم الوله الشديد الذي أحسه نحوه! ربما لأني فكرتُ حينها في أن الأشياء الرائعة التي تحدث فجأة من دون أن نخطط لها، يجب

أن تنتهي كما بدأت، فجأة وبلا ذيول، وبأنها لا تُستعاد، وأي محاولة لاستعادتها سوف تشوّهها.

تأكدت من تلك الحقيقة بعد أن سافر خالد. فبرغم اتصالاته الكثيرة بي وأشواقه الحارة التي كان يبثُّني إياها، وبرغم هداياه الرقيقة التي أرسلها إلي، لم يلمح إلى إمكانية لقائنا ثانية. وفي كل مرة أسأله عن ظروفه يقول الجواب نفسه: «غارق في العمل طوال الوقت»، وهو جواب لبق يعني ألا أفكر في لقائه.

أفكر الآن إن كان خالد قد سمع بمرضي. ألم تخبره فدوى؟ بالتأكيد أخبرته. تُرى لِمَ لم يتصل بي. يعطيني المرض وحده مَلكة فهم النفوس البشرية على حقيقتها. فخالد جبان، اختار أن يعتاد على تعاسته في الزواج من أن يتحمل جشع حب جديد مُتطلَب ومدهش.

يخشى خالد شمس السعادة المبهرة لأنه اعتاد أن يعيش كخفاش، وتأقلم مع عتمة أقبية الكآبة.

مرت سبعة أشهر على عملية استئصال ثديي. تُظهر الفحوصات الشعاعية الدقيقة سلامة عظامي من أي خلية سرطانية يُخشى أنها انتقلت إليها. مات السرطان - أو هكذا يبدو - وها أنا أقف بصلابة على رصيف الحياة، أدشن مرحلة جديدة في حياتي، أحب أن أسميها من باب الدعابة «مرحلة بعد السرطان». إنها مرحلة جديدة حقاً. لستُ واهمة أو مدّعية، ولدي إحساس بأنني وصلتُ إلى الشعور الصحيح في الحياة بعد تجاوزي تلك الأشهر السبعة. لكأن هذا المرض جعل لي جذوراً أعمق وأمتن في تربة الحياة. تلك الشهور الطويلة التي تحملتها متكئة على ذكرياتي، فهل هناك مخدّر أكثر من الذكريات؟ صحيح أن تلك الأيام الصعبة أجبرتني على الاعتراف بالقدر، لكني أشعر بأننا نملك الحرية في التعامل مع هذا القدر، فنحن أقوى منه إذا أردنا.

أشعر الآن بأني عبرتُ من ضفة إلى ضفة. لدي إحساس بأنني عشتُ كل شيء وخبرته، وأن كل ذكرياتي تداخلت مع بعضها وصارت كتلة واحدة أدفنها في قاع علبة كبيرة أشبه بالقبر. لم أتوقع أن يقوّي

تجاوُزي تلك المحنةَ نداءَ الحياة في نفسي. أسمع أصواتاً متحمسة قادمة من البعيد تُغويني بالحياة كما لو أني لم أعش قبلاً. أشعر بأن حياتي ما قبل السرطان مشطوبة ومُلغاة، ولم تعد ذكرياتي سوى أطلال. وهؤلاء اللطفاء المنتشرون على طول المرحلة ما قبل السرطان - رجال حياتي - أراهم رجلاً واحداً، وأتسلى بتبديل الحوارات والمواقف التي حصلت بيني وبينهم فأجعل أحدهم يتصرف ويتكلم كالآخر. تسلّيني كثيراً تلك الخيالات، وأكتشف أن لا فرق يُذكر بينهم. لكأن الزمن حوّلهم إلى عجينة متجانسة عنوانها الكبير: الرجل.

أتفرج على نفسي كم تبدلت في العمق، فما كنتُ أنتظره ما عدت أنتظره، لم يعد الرجل يحتل صميم حياتي، وأفكر دوماً في أنني - مثل ملايين غيري - ضحية تركيز إعلامي وثقافي متوارث عن مفهوم الجنس والحب كغاية في الحياة وعنوان السعادة والنشوة، ويُصوَّر لنا كهدف لا يُقاوَم وجاذبية لا مفر منها. لكني أشعر الآن بأن هناك هوىً أكبر من هوى رجل. هوىً غامض لأشياء لم أعرفها لكني متأكدة من وجودها. هوىً كوني مجهول للروح الشفافة التي تغلّف هذا الكون والتي أتوق إلى الذوبان فيها. أليس الحب هو كل إدراك متيقظ لجوهر الأشياء؟ فكرت في أن حياتي ظلت لفترة طويلة تتمزق وتتصارع فيها

المتناقضات، ومعظم علاقاتي الغرامية العفوية أو التي أقحمت نفسي فيها لأوهم ذاتي بأني أعيش، معظم هذه التجارب كانت ترميني في مستوى أدنى مني، ولا تشعرني بالتجانس. حتى أقوى مشاعر الحب التي خبرتها وعشتها بزخم هائل لم تنجح في تبديد تلك الفقاعة الكبيرة من الفراغ الروحي. كانت تلك الفقاعة الثابتة من الفراغ والوحشة تحيرني، فهي قائمة لا ينتصر عليها حب ولا إرادة. حتى الوهم عاجز عن تبديدها. اختفت الآن تلك الفقاعة العنيدة من الإحساس بالوحدة العميقة. أمازح نفسي وأقول: يبدو أن الأشعة والعلاج الكيميائي قتلاها. لقد توصلتُ إلى انسجام تام في كياني لم أعرفه من قبل، ولم أعرف لفترة طويلة كيف أصفه. يبدو أن مرحلة ما بعد السرطان تتطلب لغة جديدة لمفردات تعبّر عنها، وتوّصلت بعد صبر وتفكير طويلين إلى الكلمة التي تعبر تماماً عن حالتي، فأنا مقيمة في الشفافية التي تعني انسجاماً كاملاً وتواضعاً حقيقياً في شخصيتي، تواضُع من يفهم المادة الأولية التي صُنع منها نسيج الحياة الذي هو نفسه نسيج كل الكائنات الحية.

لم أعد أبحث عن شيء. لم أعد متطلّبة، هذا ما علمني إياه السرطان. صارت الأشياء تهرع إليّ من دون أن أطلبها. الطبيب الجراح الذي أجرى لي العملية

يخطب ودي، بينما أنا أتجاهل اهتمامه بي، وأصرُّ على هذا التجاهل. فما الذي يشده إلي؟! لم يرَ فيَ إلا الجانب المنهار والمريض والنَّكِد.

أتهرب منه بلباقة، فليست لدي شهية لأي علاقة، ولم تعد الوحدة تخيفني. أحب تلك السرنمة اللطيفة التي أعيش فيها بحيث أشعر بأني طافية في الفراغ أنظر إلى الأسفل وأتأمل حياة الناس ونفوسهم المعذَّبة بالأهواء، وأتطلع إلى الأعلى حيث أرى فضاءً لامحدوداً نقياً فأتوق إلى الاندماج فيه. لست من أهل الأرض ولا من أهل السماء، بل أنا بين بين، وأحب تلك الحالة الـ «بين بين» كما لو أنني تحررت من الجاذبية الأرضية وقوانينها.

لم أعد أتحمّل المواربة. واجهت الطبيب بصراحة:

ـ ما الذي يشدك إليَ؟

ترددث لحظة ثم أكملث ساخرة:

ـ جمالي بعد أن استأصلت ثديي!

تجاهل بنبرة الجفاء والسخرية وقال:

ـ بل تجذبني إليك روحك.

جواب جميل يصلح استعماله في رواية، أما في الحياة فيُضحكني.

ـ روحي! أتعتقد أنك تعرف روحي. أنتَ لم تعرفني إلا في أسوأ حالاتي، وفي خضمّ لحظات يأسي وصراعي

مع المرض ونوبات الكآبة القاتلة للعلاجات الكيميائية.

ـ كل ما تقولينه صحيح. لكن كل ذلك مغلّف بوشاح شفاف رائع هو نسيج روحك التواق إلى التحرر.

ـ التحرر! من ماذا؟

ـ من كل شيء دنيوي.

أربكني كلامه حقاً، ولا أعرف لماذا أجبته هذا الجواب اللامنطقي.

ـ لم يعد لدي ما أخسره.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا أعرف...

يبدو أن جُملاً معينة تنفلت منا لا ندرك أبعادها ولا معانيها، لكني في الحقيقة تأثرت بكلامه. هذا الرجل متميز حقاً، وللأسف لم أفكر فيه إلا كجراح ماهر. لأول مرة أنتبه إليه كإنسان له فرادته. يؤرقه موضوع الروح. زالت الحواجز بيننا بسرعة ووجدتني أخاطبه كصديق:

ـ أتعرف، لم أتخيل أن شهيتي إلى الحياة ستعود إليّ أقوى من ذي قبل. صار الوقت الآن ثميناً ولا يجب أن أبدده في التفاهات. لو يدرك الناس أن الحياة نعمة، إنها إبداع.

راقه هذا التعبير فكرره مستمتعاً بمعانيه:

ـ معك حق، الحياة إبداع.

- أرغب في أن أعرف أكثر عن حياتك، فأنا لا أعرف عنك سوى أنك جراح بارع.

- بارع ووحيد. هذا أنا باختصار.

- ليست الوحدة سيئة كما تعلمنا.

- ليست سيئة بمعنى من المعاني، لكنها مؤلمة بالتأكيد.

شجعه صمتي المتعاطف على الكلام. حدثني عن زوجته الإنكليزية التي أحبها أثناء دراسته في لندن، لكنها فشلت بعد الزواج في التأقلم مع الحياة هنا. أشعرَته بالذنب كونه اقتلعها من جذورها. تطلقا بعد عشر سنوات، ورجعت إلى لندن مع ابنته الوحيدة التي يعبدها.

تتفرس نظراته في وجهي وهو يتكلم كمن ينشد تعاطفي. ابتسم ابتسامة مهزومة وقال بألم:

- أكثر ما يؤلمني أن ابنتي تكاد تنسى جذورها. ها هي تصير كنبتة رخوة تتنكر لأهلها وبلدها ولغتها.

لفتتني رقته. هذا الرجل مرهف الإحساس. تعاطفت معه تعاطفاً مضاعفاً فكلانا خرم من ابنه الوحيد.

سألته: ألا تزورك ابنتك؟

- زارتني مرتين، لكن أمها لم تعد تشجعها على الزيارة. تزرع في دماغها أن المنطقة هنا محفوفة بالخطر.

كنا نقف في المكان نفسه كغريبين يتطلعان إلى أطلال ذكرياتهما. نما التعاطف بيننا كضباب شفاف يكاد يكون منظوراً. كنت في الحقيقة مبهورة بقدرته على قراءة أعماقي كما لو كنتُ كتاباً مفتوحاً بين يديه. صحيح أني ارتحت إليه، ولكن نفوري من فكرة إقامة علاقة معه أو مع أي رجل آخر يلحّ علي دوماً. لم أشعر يوماً في حياتي بنقاء الوحدة وشفافيتها كما أشعر في هذه الفترة. أيّ علاقة مع رجل تُقلق سلام روحي وتقدم إلي إحساساً لا أحتاج إليه. ربما تعبتُ من الحب، أو ربما لا أملك الشهية لأحب رجلاً. أعتقد أنني مللتُ، فما عاد الحب قادراً على غوايتي، صرت أؤمن بأن الحب مهما كان ملتهباً فله عمر محدود وبعدها يموت، بينما تغويني الآن سعادة لا تموت، ولا تُعطَب، وأثق بوجودها لكن عليّ البحث عنها.

مشاعري جديدة، ومفاهيمي عن السعادة تغيرت. لم تعد سعادتي مرتبطة بآخر. السعادة كما أفهمها بعد تجاوزي محنة السرطان هي ذلك التجاوب أو التناغم اللطيف بيني وبين العالم حولي. همي ألا يعود لي أعداء، لا في داخلي ولا في الخارج، وأن أعيش بسلام مع ذاتي، ولا يمكنني ذلك إلا في قبولي لواقعي. الشهور السبعة التي أمضيتها على سرير المرض تقف خلف ظهري، أستدير وأتأمل مرحلة الآلام النفسية والجسدية

الفائقة للطبيعة التي تحملتها. هل أفادتني تلك الآلام بطريقة ما. أقول بثقة: نعم. فبعد أن تكتوي الروح بالألم يخرج منها بخار من العذوبة والرضى والرقة. أشعر تماماً بأني أبعُدُ عن حدودي التي أعرفها. أقف على حافة جرف من نور روحاني مرتعش بسعادة لذيذة جديدة. عيناي تلتمعان بنظرة جديدة وأنفاسي معطرة بالفرح. وضعي الجديد بحالة تحفُّز كأني أصبو إلى اكتشاف سر، بل كأن اكتشافات جديدة تلوح أمام عيني، ولا يزال من الصعب علي التقاطها. أسكن هذا الهدوء الجميل بلا قاع، وأفكر بسعادة في أني متوازنة. لم أشعر يوماً بتوازني كما أحس الآن، مستمتعة بصحتي التي عادت إليّ. أحس بها كشيء مبهج ينبع من أعماقي المجهولة. أتذكر أفكاري العتيقة. لطالما اعتقدت أن السعادة تكون بالصحة والشباب، لكني أدرك الآن الجوهر؛ جوهر السعادة حين ننتبه إلى تلك الشعلة الإلهية الكامنة في أعماقنا.

ما كان لي أن أفهم جوهر الأشياء لو لم أعرف نقيضها. أفكر دوماً في أن البذرة يجب أن تموت وتتحلل لثورق نبتة خضراء يانعة.

ألتقي طبيبي من وقت إلى آخر. نتحدث لساعات. أرتاح إلى صداقته ولا أشتاق إليه أبداً كرجل أطارحه الغرام. يبدو أنه يلجأ إلى أسلوب خاص معي، فهو

يشدني نحوه شداً بطيئاً. لعله يرغب في أن يصير ضرورة في حياتي. أعرف كيف يفكر. رفض أن يتقاضى أجراً حين أجرى لي عملية زرع نهد اصطناعي، وبرغم رقته وإعجابي به فأنا عاجزة عن حبه. يذكرني بسامح، كلاهما من معدن نادر، والتقيتهما وأنا أعاني آلاماً لا تطاق. التقيت سامح وأنا أعاني آلام الحب السرطانية لزوجي الأول، والتقيت الطبيب وأنا أعاني آلام السرطان... لا أعرف إن كنت سعيدة أم كئيبة لأنه يحبني، بل لا أزال بحالة دهشة لأنه أحبني.

اتصل بي ذات مساء وسألني صراحة:

ـ ألم تتحرك مشاعرك تجاهي؟

لم أشأ أن أجرحه، لكن وجدتني أجيبه:

ـ هناك رجل وحيد في حياتي.

سأل بقلق وغيرة: من هو؟

قلت: ابني.

كنت صادقة، فابني أصبح كل كياني، وأريد أن أعوض حرماني منه. أحتاج إليه أكثر من أي شخص آخر في هذه الدنيا. أحتاج إليه كإله.

ليس هناك أجمل من هذا الشعور: أن نعيش من أجل الآخر، فأنا أعيش لأجل ابني ممتلئة به، أتابع نجاحه الدراسي وأحلم معه بالمستقبل. صار لي مستقبل وانتعشت في روحي الآمال. أصبح لؤي يقضي أوقاتاً طويلة معي، ونجح في فرض رغبته على والده بأن يقضي أياماً عندي. لم أستطع أن أغفو في المرات الأولى التي نام فيها لؤي في غرفتي. كنت أحدق فيه طوال الليل منصتة إلى الإيقاع اللطيف الخافت لأنفاسه، لاجمةً لهاتي المنفعل بوجوده إلى جانبي، أردد لنفسي مراراً: ابني معي، ابني معي.

أشعر وأنا معه بأن روحي تصير لهباً يضيء كل شيء ويسخر من كل قنوط أو يأس. أرادني لؤي أن أتسامح مع والده. لم أمانع أن نجتمع في مناسبات عديدة يختلق معظمها لؤي لرغبة دفينة في داخله في أن يرى أمه وأباه معاً. لعله يتمنى لو يجتمع شملنا. وبرغم وجود ابني فإن صمتاً كئيباً وكلاماً أشد كآبة يجمعانني بأحمد. حين تفسد العلاقة بين المرأة والرجل يصير إصلاحها مستحيلاً، ويصبح كل شيء بينهما له طعم فاسد، أو طعم الرماد كما أحب أن أسميه.

لؤي سعيد لأنني تجاوزت محنة المرض. يزورني في مكتبي، يتفرج على تصاميمي الهندسية ويبتسم فخوراً بي. يسألني:

- من أين تأتيني الأفكار؟ وكيف أخلق مثل هذه الابتكارات؟

أقول له وأنا أتذوق طعم صداقة متينة تترسخ بيني وبينه:

- بالاجتهاد. أريدك أن تظل مجتهداً حتى بعد حصولك على الشهادة الجامعية. يجب أن نظل تلاميذ في الحياة يا لؤي.

تمَر أيامي كما في حلم. حُلّت كل عُقد حياتي من تلقاء ذاتها، فأتصوّر ذاتي طفلة من جديد، تعيدُ صقل حياتها على مهل مستفيدة من تجارب كل الصقيع والزوابع التي عصفت بها.

أشعر بأني في أفضل مراحل حياتي، وأن كل شيء على ما يرام. مضى عامان على العملية، وكل فحوصي الطبية طبيعية. أستطيع القول إني انتصرت على السرطان. عملي ممتاز، وها قد رجع ابني إلي، وتجمعني به عاطفة راسخة وصداقة متينة. لم أعد أفكر في الرجل كقَدَر وحيد، ولا كإله أعبده، ولم أعد أشعر بحاجة إليه. وأشفق على نفسي حين أتذكر تلك اللحظات التي كنتُ أشعر فيها بسطوة الشهوة عليّ، وأبدو بيني وبين

ذاتي مجرد بلهاء مسكينة أضاعت حياتها عند أعتاب لذّتها. ياه، ما أجمل أن يتحرر الإنسان من ذل حاجات جسده.

يُخيَّل إلي أحياناً أنني كيان لامادي: روح، نور، طاقة، فكر، ذكريات، لكني لستُ من لحم ودم، ولي ثقل... يجدر بي أن أهنئ نفسي على أنني قد تحررتُ أخيراً من وجع الغريزة.

وها أنا بعيدة عن الماضي أستعرضه في ذاكرتي بحيادٍ تام. أتجول في ردهات ذاكرتي متفرجة على تجاربي الماضية كما لو أني أشاهد فيلماً سينمائياً أو أقرأ كتاباً أستعرض صفحاته لأول وهلة. الماضي بعيد، طريق طويل ملتوٍ ومعتم، وأنا فوقُ أتفرج عليه كما لو أني أركب طائرة. أستيقظ أحياناً يصاحبني شعور بأني للتوّ وُلدتُ من جديد. يُضحكني هذا الشعور، ويبدو لامنطقياً وعبثياً. لا أفهم كيف يمكن لامرأة أن تعيد ولادتَها من جديد.

لم أعد أحس ببلبلة ذهنية، ولم أعد أخاف الليل ولا أشباحه، ولا أتعارك مع الأرق. أعيش ما يشبه السكينة؛ سكينة إنسانه صارعت طويلاً مع الحياة إلى أن وصلت إلى معادلة سحرية أعطتها السلام والطمأنينة. يحضّر لؤي لامتحان الشهادة الثانوية، وسوف يبدأ بعد أشهر قليلة مرحلة جديدة. أحس بوخز ألم حارق في قلبي

حين أفكر في أنه سيدرس في لندن بعيداً عن عينيّ، لكني أعزّي نفسي بكل الحجج الممكنة، فقد لقَّنت نفسي لغة جديدة للتعامل مع المستقبل، لغة الحب والأمل. أهدهد روحي وأرجوها أن تفرح لسفر لؤي إلى لندن. أحب تلك الحالة: نسيان نفسي والزهد فيها ولا أفكر إلا في نجاح ابني. كل شيء في حياتي جديد ومُبهج، فلعلَّ الزمن أراد أن ينتقم لي بطريقة ما وأن يفاجئني بكل ما هو رائع وغير متوقَّع. يضحى حاضري كأنه انتقام لجرح طلاقي الأول ولماضٍ أليم تجرّعت طويلاً كأسه المُرة.

هل نحن دمى في مسرح الحياة؟! هذا ما فكرتُ فيه وأنا أكتشف أن ابني يحب نورا ابنة أخي حباً عميقاً. لم يلتقيا في طفولتهما أبداً، وصدف بعد مرضي أن التقى لؤي نورا في منزلي. اعتقدت يومها أنهما يمكن أن يتحابّا لأن لهما العمر نفسه، ويجمعهما الطموح والتفوق الدراسي. وقد ترسَّخ فيَّ حدسي هذا، إذ في كل مرة يزورني فيها لؤي كانت تحضر نورا بعد قليل.

كنتُ أتظاهر بأني لا أنتبه إلى بريق الهوى يشع في عيونهما ويفضحهما. العاشقان الفتيان يعيدان إلي ذاكرة الحب المتأجج. أرغب في البكاء فرحاً حين أراهما منكبّان على دراسة الرياضيات والفيزياء، وقلباهما يطرقان بقوة من الشوق، لكنهما يداريان لهفتهما

بالدراسة كي لا يسمحا لطوفان مشاعرهما بالانفلات. أحس بأني أستعيد ابني بشكل كامل وأنتقم من والده. فهذا ابني قد وجدته وأعيده إلى عالمي متحداً بنورا التي تمثل لي شبابي أراه يشرق فيها من جديد. نورا التي انتشلتني من اليأس، وكنت حين أضمها إلى صدري وهي طفلة أشعر بأني أضم ابني.

قررتُ أن أتظاهر بأني غير منتبهة إلى هذا الهوى البريء، فلن أحرجهما ولن أثقل عليهما بنظراتي الفضولية، لكني أشعر كما لو أني طرف في هذه العلاقة، وكما لو أني أباشر حباً جديداً. لعل سعادتي بتلك العاطفة بينهما توازي سعادتهما.

أتخيل صدمة أحمد ووالدته حين يريان كنزهما الذي خطفاه مني يعود إلى عالم أمه ويختار فتاة لها روح أمه وشخصها. تعيد إليَّ نورا شبابي وأحلامي، وسوف أدعمها بكل محبتي وخبرة السنوات. سأؤازرها بقوتي التي أمدتني بها تجاربي باهظة الثمن. أشعر بأن قلبي يضحك ويضحك بشكل حقيقي. أسمع صوته البهيج. ما أجمل أن تتدفق الحياة على هوانا، وكما نشتهي.

ترسخت صداقتي مع طبيبي لكنه لم يحرك فيَّ أي مشاعر. أظن أن لامبالاتي وصلته بطريقة ما، فأنا لا أحس بأني بحاجة إلى رجل. لقد اعتدت على إيقاع حياتي الجديد، وانسجمت معه. اكتشفت فجأة أنه

يمكن أن تكون هناك سعادة ذات نكهة مميزة بدون رجل. وكنت أحس بغضبه مني أحياناً، ولعله يتمنى لو يملك الجرأة ويصرخ بي: أنت امرأة غير طبيعية

لكني في أحيان كثيرة أتحمس لحبه، وينتابني فجأة شوق قوي إليه، إلى تقبيله واحتضانه، لكن تلك الحماسة سرعان ما تنطفئ، فأحس بحرجٍ من نفسي أولاً. كنت أخاف على كبريائه وأنا ألاحظ دهشته وحرجه من سلوكي وهو يتفرج عاجزاً عن فهم ذلك الدفء الحميم المباغت مني، كيف يتحول فجأة إلى فتور يُربكنا معاً.

ما الذي يحصل لي؟ لا أعرف تماماً. هل أحببتُ تلك الحالة من كسل أحاسيسي اللذيذ وتبلُّدها، فلا أشعر بأني مقيدة بأي شخص! ربما صرتُ أنظر إلى الحب كأنه اجتهاد وسعي إلى إنجاح مشروع؛ شيء جميل لكنه ينمو متغذياً على حساب الحرية الداخلية، وها أنا أتذوق الشكل الجديد لحياتي حيث صار زمني ناعماً كالمخمل.

أظن أن أقرب وصف لحالتي الجديدة، أني فقدتُ الحماسة والشهية إلى الحب. وأساس الحب الحماسة والشهية إليه، لكن صديقي الطبيب يقول لي مازحاً ـ لكنه جادّ تماماً ـ إن قلبي قد تحجّر. يؤلمني قوله، ربما فيه الكثير من الحقيقة وإلا لما آلمني. علاقتي به حرة

وغريبة في آن، فهو يحكي لي عن عشيقاته ويصف تلك العلاقات بأنها ذات سقف واطئ وفضاء ضيق لكنها ضرورية، فهي تساهم في تشكيل نسيج الحياة.

أحب ضحكته حين يقول:

ـ يجب أن نترك الحياة تسير على هواها.

فأصحح له: تقصد على هوانا.

اعترف لي ذات يوم بأنه يفكر فيَّ دوماً حين يكون بين أحضان امرأة أخرى... واعترف بأن تلك الحالة مؤلمة وتعقبها وحشة شديدة. وكنتُ أصارحه بأنني ما عدتُ أفهم ذاتي، فقد انطفأت فجأة رغبتي في الرجل، وأن تلك اللحظات المباغتة التي أشعر فيها بأنني أحبه ـ وقد كنت كذلك في الواقع ـ يعقبها فتور، فأحس بأن جسدي صار منيعاً عن اللمس والانفعال كما لو أنه قرر فجأة عدم الاندماج بآخر.

كنتُ أفكر في مرحلة منتصف العمر، متذكرة كتاب إيدا لوشان: «أزمة منتصف العمر الرائعة». كتاب أدهشني حقاً، ربما لأني قرأته قبل أن أصل إلى مرحلة منتصف العمر. كتاب ممتاز لإحياء الأمل ولإقناع من يقرأه ـ خاصة إذا كان في منتصف العمر ـ بأن البدايات الجديدة ممكنة دوماً.

لكن الكاتبة لم تتطرق إلى حالة مثل حالتي، ولم تحكِ عن فتور الهمّة ونقص الحماسة. كنتُ أفكر في حياتي

ككل وأنا أحاول أن أقنع ذاتي بأن الأمور تسير على ما يرام، لكن للزمن إيقاعاً مختلفاً، فاليوم هو امتداد ليوم آخر والليل امتداد لليل آخر.

كنت أرسل العنان لأفكاري وأستسلم لتأملات كئيبة أحياناً، ومتفائلة أحياناً أخرى. تؤلمني حالة الفتور هذه. صارت أحاسيسي أشبه بلوح جليد، فلا أحد يقدر على أن يجدّد فيَّ حماستي إلى عشق جديد، ولا يستطيع أحد أن يحرك كتلة المشاعر العجينية في أعماقي. وحدها الموسيقى كانت تجعلني أبكي وأرقص وأختلج بالإحساس. وحدها الموسيقى كانت تجعل روحي تتوهج.

لم يكن من عادة صديقي الطبيب أن يحدثني عن مريضاته، بل كنت أقحمه بأسئلتي التي يتضجر منها:

ـ كم عدد الأثداء التي استأصلتها؟ ما أعمار النساء اللاتي أجرين هذه العملية؟ كيف يتحملن تلك المصيبة؟

فيتأفف قائلاً:

ـ أنا أرغب في الهروب من هذا الجو المتوتر، فلمَ تعيدينني إليه؟!

اتصل بي ذات مساء معتذراً عن موعد بيننا. بدا صوته مضطرباً لدرجة لم أعرفه للوهلة الأولى.

سألته بلهفة: خير، لماذا أنت متوتر هكذا؟!

ـ سأخبرك في ما بعد.

لكنني ألححت، فقد انتقل إليّ توتره وغدوت قلقة عليه. اضطر إلى أن يعترف لي بأن إحدى مريضاته حاولت الانتحار بعد العملية.

ـ هل استأصلت ثديها؟

ـ بل ثدييها الاثنين... أكرر أسفي، سأتصل بك غداً.

«مسكينة تلك المرأة»، رددت تلك المواساة السطحية وأنا أمشط شعري.

قررتُ زيارة صديقة لي ودعوتها إلى العشاء، فقد حضّرت نفسي للخروج هذا المساء. كنتُ أحب ثرثرة صديقتي التي تدور حول موضوع أبدي: انتقادها تصرفات زوجات أخوتها. تحكي لي عن تصرفاتهن وعن الحوارات التي تدور بينهن بطريقة تجعلني أموت من الضحك. أقول لها:

ـ لا أصدق أن امرأة ناضجة ومثقفة مثلك تنساق إلى هذه التفاهات!

يستفزها كلامي وتشرح لي وجهة نظرها، وأن عليها أن تضعهن عند حدهن. كنتُ مستمتعة بالعشاء الشهي وثرثرة صديقتي. سألتني عن لؤي فحدثتها متباهية بصداقتنا المتينة وبأنه ينام عندي مرة في الأسبوع على الأقل، وأخبرتها أنه سوف يسافر إلى لندن ليدرس هندسة الاتصالات.

قاطعتني: سيبتعد عنك من جديد!

تجاهلتُ غصة الألم وقلتُ: إنه مستقبله.

ويبدو أنها أحست بألمي فاعتذرت. لكني سارعتُ أعفيها من أسف الاعتذار. رغبتُ في أن أقول لها إن ابني يحب ابنة أخي لكني لجمتُ نفسي، فكيف يحق لي أن أتباهى بعواطف ابني كما لو أنها شيء للعرض.

أحسستُ فجأة بأن صوتي يصير فارغاً، خاوياً، وأني أتفوه بكلمات وجمل لا أحس بمعناها أبداً. كنتُ هناك في مكانٍ غامض كلياً أفكر في تلك المجهولة المجنونة التي انتحرت بعد عملية استئصال ثدييها.

سألت صديقتي فجأة:

ـ كيف تفكرين في امرأة حاولت الانتحار بعد عملية استئصال ثدييها؟

ـ مسكينة، أكيد أنها شعرت بيأس تام. أهي صديقتك؟

ـ لا، لكن أهذا كل ما يتبادر إلى تفكيرك؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أتعتقدين أن اليأس وحده سبب كافٍ للانتحار؟

ـ هل هناك سبب أقوى؟

ـ لا أعرف.

ـ مريم، لِمَ أنتِ حزينة إلى هذا الحد؟

ـ هل أبدو كذلك؟

ابتسمت صديقتي وقالت وهي تربت على كتفي:

- رأيت من أول نظرة إلى وجهك هذا المساء كم يتلبس الحزن ملامحك.

ضحكتُ: فراستك مدهشة حقاً.

ضحكتُ بطريقة مؤلمة لدرجة شعرتُ بأن ضحكي شكل آخر مقنَّع للبكاء.

لم أستطع برغم أن الوقت متأخر، أن أمنع رغبة قاهرة في نفسي بالاتصال بصديقي الطبيب وسؤاله عن المرأة التي حاولت الانتحار. أبدى دهشته لأني أتصل به الواحدة ليلاً قلقة على امرأة لا أعرفها، ولمّح ساخراً إلى أنه يعتقد أن اتصالي المتأخر بسبب شوقي إليه. اضطررتُ إلى الكذب وادّعاء أشواق لا أحس بها. صدقني وبدا السرور في صوته مقترحاً علي أن نلتقي للتو. نفرتُ من فكرة اللقاء الذي لا يعني سوى دعوتي إلى مضاجعته. اعتذرت له بأنني متعبة وأعدتُ الحديث إلى السيدة المجهولة، وبدلاً من أن يحدثني عن تلك المرأة فاجأني بنظريته العبقرية بأنه يعتقد أنه صارت لدي حساسية خاصة من سرطان الثدي، وأن أسئلتي عن مريضاته تعبر عن خوف كامن في نفسي من هذا المرض... فكرتُ في كلامه. قد يحمل الكثير من الحقيقة، لكني أشعر بأن تلك المرأة التي حاولت الانتحار تأسرني بطريقة غامضة. لعلها تذكرني بأشهر يأسي الطويلة التي لم أفهمها جيداً ولم أفهم المشاعر

الهائلة والجبارة التي كانت تنتابني وقتها وذهبت الآن في أدراج النسيان. اليأس طاقة هائلة، يمكن أن يكون الوجه الآخر للانتفاضة. إذا سقطت القشرة الجافة عن وجه اليأس نكتشف قوى هائلة. المهم أني شعرتُ بأني مَعنية بتلك المرأة الشابة التي قال عنها إنها في الثالثة والثلاثين من عمرها، وجميلة، ومتزوجة منذ ثلاث سنوات. لم تُنجب لأنها أصيبت بالمرض الخبيث بعد أشهر قليلة من زواجها، وتعمل مدرّسة رياضيات. وأخبرني أنها حاولت الانتحار بابتلاع كمية كبيرة من الحبوب المنومة.

قدّم إلي صديقي هذه المعلومات بجفاء وعتب. اعتذرتُ إليه مجدداً عن إزعاجه وتواعدنا على اللقاء في اليوم التالي.

لم أستطع النوم طوال الليل. كنتُ مضطربة وأفكاري تسبح في هالة من الغموض. لعل صديقي على حق، فأنا أعبّر عن مخاوفي العميقة من سرطان الثدي باهتمامي الشديد بقصص النساء المبتليات بهذا المرض اللعين، لكن تلك المريضة المجهولة حرّضت في نفسي أحاسيس أشبه بالنبوءة. كأنها تعطيني حدساً مسبقاً لما سوف يقضّ أيامي الآتية ولا أحياه الآن. استقبلتُ الفجر الناعس بعينين مفتّحتين. كنت قد بلورت قراري

واستعدتُ حماسة افتقدتها طويلاً بفرح وشوق: سأتعرف بتلك المرأة وأقتحم جدار يأسها المنيع...

لا أعرف سبباً لحماستي الغريبة، لكني مصممة كما لو أني اتخذتُ قراراً مصيرياً لا تراجع عنه.

حماسة حقيقية تسيطر عليّ منذ الصباح لدرجة لم أستطع شرب قهوتي كاملة. صممت على لقاء تلك المجهولة التي أقدمت على إشهار يأسها من الحياة. لا أعرف حقيقة دافعي لكن يقيناً لديّ يُنبئني بأن مصيري مشتبك بمصيرها بطريقة ما. فوجئ صديقي بزيارتي المبكرة إليه في المستشفى. كنتُ أعرف أنه يقوم بجولة صباحية لمعاينة مرضاه، كما كان يملك أسهماً في المشفى وله مكتبه الخاص. انتظرته في مكتبه أرشف القهوة، وما إن وقع نظره علي حتى بادرني قائلاً:

ـ يبدو أنك لم تنامي طوال الليل!

ـ كيف عرفت؟

ـ من نظرة السُهاد والتعب في عينيك. خير، ما الذي يقلقك؟

نظرتُ إليه بتودد أقرب إلى الضراعة:

ـ أريد أن أتعرف بتلك المرأة.

تفرَّسَ في وجهي كأنه يقيس مدى جديتي، عارفاً أنه سيهزم أمام رغبتي:

ـ لكن لأي غاية يا مريم؟

- لا أعرف تماماً، لكني أعتقد أن باستطاعتي مساعدتها... هي أيضاً ستساعدني.

ضحك كمن يستخفُّ بما أقول:

- هي، الله يعينها، كيف ستساعدك؟!

- لا أعرف، قد تساعدني من حيث لا تدري.

- وقد ترفض التعرف بك، فهي شرسة.

- شرسة! ماذا تقصد؟

- حدثتني الممرضات بأن نوبات من الصراخ الحاد تنتابها، فتصرخ لِمَ أنا مريضة وأنتن لا... إنها تحس بحقد دفين على الأصحاء.

- ربما هذا طبيعي، فكل المرضى يشعرون بذلك بدرجات مختلفة.

- لكن، أن تجاهر بما تشعر وتشتم الأصحاء، فهذا غير مقبول.

- لأننا لم نعتد أن نُخرج مشاعرنا إلى العلن.

- لا، لأن هناك آداباً اجتماعية متعارفاً عليها منذ أول الخَلْق.

- متى ستقدمني إليها؟

- إنها الآن شبه متلاشية. صحيح أنها أنقذت من الموت، لكن جسمها لا يزال رخواً ومُخدَّراً من الدواء.

- أهي صاحية أم نائمة؟

- بينَ بين... لقد غيرتْ ضمادتها الآن. تبدو بحالة همود، لكني أعتقد أنه الهمود الذي يسبق الهياج، ويمهّد للعاصفة.

- هيا، قدمني إليها وسأدعوك إلى الغداء اليوم.

- أهي رشوة؟!

- سمّها كما تشاء.

سألته في الردهة الطويلة العابقة برائحة الدواء واليأس:

- ما اسمها؟

- آمال.

رددتُ اسمها مراراً بيني وبين نفسي كأني أتعرف إليها بطريقة ما. وصفعتني صورتي بعد العملية طافية في الفراغ والألم واليأس، قبل أن أدخل غرفتها.

خفق قلبي وصديقي الطبيب يفتح باب غرفتها ويدعوني إلى الدخول. كانت تحدّق في الفراغ. وشعرتُ بأنها لم ترني برغم أنها التفتت ونظرت إليّ، فنظرتها تغيم في غيبوبة.

قال لها:

- هذه السيدة صديقة عزيزة لي، ترغب في التعرف بك. لقد مرّت بمحنتك نفسها وتعافت كلياً. أظن أنكما ستصيران صديقتين. أقدم إليك مريم.

رمقتني بلا مبالاة وأشاحت وجهها عني.

انصرف الطبيب موصداً الباب وراءه.

سمحت لي لامبالاتها بأن أتأمل وجهها الجميل المدبوغ بالتعب والمعاناة. كانت تتجاهل وجودي كما لو أنها تريدني أن أعرف أن زيارتي الطارئة إليها غير مرغوب فيها. كانت منطوية على ذاتها بقوة، ولا توجد ثغرة في قوقعة عزلتها يمكنني التسلل من خلالها إليها.

تبدو مهزومة، وتعيش في زاويتها الخاصة. وجدتني أحدّق فيها بانبهار وتعاطف. نسيت كل عبارات المجاملة التي حضّرتها في ذهني، وصرت كما لو أن على رأسي الطير، أبحث عما أكسر به جدار الصمت بيننا، الذي صار مربكاً.

قلت بصوت متعاطف:

ـ لقد أجريت العملية نفسها منذ عامين، وقد شُفيت تماماً بعد العلاج. لم يعد السرطان مخيفاً.

لم تلتفت إليّ! كانت تتقصَّد أن تُشعرني بأنها لا تبالي بكلامي.

رغبتُ في الاقتراب منها ومسك يدها والربت على خدها الشاحب، لكني لم أفعل. وقد لمست رقة روحها برغم مظهر اللامبالاة الزائفة الذي تتعمّد أن تظهر به. إنها تحاول أن تتسلح بشيء من الاعتداد بالنفس كي تواجه ذل المرض.

قلتُ لها بصوتٍ متعاطف ومشبع بالرقة:

ـ أنت شابة وجميلة و...

شلتني صرخة انفلتت منها؛ صرخة مزّقت قلبي كأن سكيناً انغرست فيه فجأة. التفتت إليّ وقد أظلم وجهها. كادت تنفجر وهي تصرخ:

ـ اسمعي، لا أريد شفقة ولا محبة من أحد. مَن أنتِ حتى تقتحمي غرفتي؟ ماذا تريدين مني؟ هل تعرفينني؟!

كانت تصرخ كمن طاش صوابها من استفزاز طارئ، وتلهث من فرط الانفعال:

ـ من أنت؟ بأي حق تقتحمين عالمي؟ دعيني وشأني، أظن أن صاحبك قال لكِ إنني حاولت الانتحار وسأحاول مجدداً، فأنا وحدي أملك قرار حياتي... لعلك تحضِّرين لدراسة عن حالات الانتحار!

انفجر صراخها داخل رأسي بدويّ هائل، لكني لم أتفاجأ. كنتُ أتوقع رد فعلها هذا. انتابني شعور غامض بأنها لا تريدني أن أغادر برغم طردها لي. أشاحت بوجهها عني وهي تلهث، ثم هدأت شيئاً فشيئاً. لم يعد ظاهرها مضطرباً، فقد لفّها الصمت من جديد، لكن أمكنني أن أنفذ إلى أعماقها المرتعشة والمضطربة، وأراها ورقة مضطربة في مهب العاصفة.

استأنفتُ كلامي بحذر، لكنها ظلت صامتة منصتة إلي وهي ترمق صورة وجهي المنعكسة في المرآة.

ـ أعذريني يا آمال، لكني سأعترف لك بأنني لم أغفُ لحظة واحدة طوال ليل أمس وأنا أفكر فيك، أنتِ التي لا أعرفك. لقد أخبرني صديقي الطبيب أنك حاولت الانتحار. اضطر بصراحة إلى أن يخبرني لأن ثمة موعداً بيننا. لا أعرف لماذا رغبتُ بقوة في أن أتعرف بك، ربما لأنني مررتُ بالتجربة نفسها، وربما لأقول لك إن لا شيء يبقى ثابتاً. لقد علمتني الحياة أن كل شيء يتغير ولا يبقى على حاله.

أسعدني أنها تلتزم الصمت، يشجعني هذا على التقرب منها، لكنني لمست انسحاقاً رهيباً في صمتها.

ـ آمال، أتمنى لو تقبلين صداقتي. أشعر بأني معنية بك. لا تسأليني لماذا؟ أجمل الأمور تلك التي نعجز عن إيجاد مسببات لها. أتقبلين أن تعتبريني كصديقة أو كأخت كبيرة؟

ضحكت بعصبية كي تُخفي اضطرابها، لكن فمها كان يرتعش مُؤذِناً بالبكاء. حلّ صمتٌ لطيف بيننا، صمتٌ سمح لروحينا بأن تتقاربا.

خرق صوتُها المتهدِّج بالتعب الصمتَ بيننا.

قالت بصوتٍ حالم: اسمكِ مريم، اسم جميل.

قلتُ: اسمك أجمل: آمال. رددتُ اسمها مراراً.

ضحكت بأسى وقالت بسخرية:

ـ اسمٌ على مُسمى كما ترين!

عصفت بها فجأة نوبة بكاء. انفجرت ببكاء يقطع القلب. يبدو أنها لا تزال عاجزة عن السيطرة على أعصابها، فلا تزال سموم الدواء تسرح في دمها.

قالت: يا للسخرية، لم يبقَ من الأمل سوى اسمي.

اقتربتُ منها، ومسَدتُ على شعرها المسترسل بفوضى على كتفيها:

ـ آمال، لا تستسلمي لليأس. يمكن حصول معجزة من قلب المعاناة. صدقيني هذا ما حصل معي.

قالت وصوتها قادم من البعيد ومنبثق من أعماق الضياع:

ـ كلام فارغ. كل ما تقولينه كلام فارغ. لستُ غبية، فأنا أعرف حالتي تماماً. السرطان منتشر في جسدي، أحس بدبيبه في أعصابي. إنه كسرب من النمل يسرح في دمي، وأنا لا أرغب في أن أعيش معطوبة.

قدّمت إليها منديلاً كي تمسح دموعها. لم تفعل، فاستأذنتها كي تسمح لي بمسح دموعها وترطيب وجهها الساخن بالماء. تركتني أفعل وهي تنظر إليّ نظرة حائرة: من هذه الغريبة التي خرقت سور عزلتي؟!

أشعرتني نظرتها بالعطب الكائن فينا. ما أقسى مشاعرنا! في نظرتها شعاع من استهزاء كأنها تقول لي: أي عزاء ستقدمينه إلي، ومن يمكنه إصلاح جسد نخره السرطان؟!

سرّحت شعرها من دون أن أستأذنها وأنا أقاوم غصّة. تركتني أفعل كطفلة تستدفئ بحنان صادق. في نظرتها حيرة أكبر من الخوف، حيرة تجاه تلك المصيبة. كيف ستواجه مصيرها؟ أي عزاء يمكن أن تقدمه إليها الحياة؟

غرقت في النعاس. مسحتُ يديها بماء الكولونيا. قبلتُ رأسها واستأذنتُ بالانصراف. سألتها بحذر إن كانت تسمح لي بزيارتها.

ردت بآلية: لا أريد أن أراك ثانية.

باغتتني صراحتها فلم أجب، لكن ما إن فتحتُ الباب لأنصرف حتى هتفت باسمي بلهفة:

- مريم.

تلاقت نظراتنا في فراغ الغرفة الكئيب. قالت كأنها تهمس:

- زوريني إذا أحببتِ...

تذوب الدنيا في دموعي. وجدتني من دون تفكير أهرع إلى أقرب محل لبيع الزهور، أشتري باقة ورد أبيض، ثم أطلب من الممرضة أن تُدخلها إلى غرفة آمال.

عرفتُ أن زوج آمال طلّقها بعد أشهر من إصابتها بالسرطان، وتزوج بإحدى صديقاتها. لم يزرها بعد العملية، ولم يرسل إليها ورداً. لعلها حاولت الانتحار

بسبب اليأس من الألم النفسي وإحساسها بالتخلي والوحدة. لو كان إلى جانبها زوج مُحب لما انتحرت، هذا ما فكرت فيه وأنا أتلمس جانباً جديداً في شخصيتي، وأرى طريقاً جديداً يُغويني باقتحامه.

تركتني آمال في ذهول عظيم. الشمس سخية دافئة هذا الصباح، أشعر بأشعتها تخترق رئتي. تخيلت خُبيبات السرطان السوداء كغبار خشن تخترق رئتي آمال. استعدتُ صوتها المنبثق من الضياع.

يشبه ما حصل الحلمَ أو الخيال. لقد صارت آمال حقيقة في صميم حياتي. أجد نفسي مشتبكة معها في علاقة متينة معقدة؛ علاقة سأعرف من خلالها وجهي الآخر. كنتُ مضطربة ويمور عقلي بأفكار متناقضة. حالتي مختلفة عن حالة آمال، فأنا شُفيت. يبدو أني محظوظة، أما آمال فقد استأصلوا ثدييها، وتدل الفحوص على انتشار السرطان في جسمها.

كنتُ بحاجة إلى أن أهدأ وأن أمسك خيوط أفكاري. أقفلتُ جهاز الخلوي وجلستُ في مقهى رصيف أشرب عصير البرتقال المثلج علَّ برودته تبرد قلبي المحموم. كنتُ مشوشة كمن ينظر في ضباب، ثم بدأت أفكاري تترسب والرؤية تتضح. يؤرقني موضوع المرض؛ يؤرقني موضوع عطب الكائن الذي يعيش فينا. كيف سنواجه الحياة ونحن نملك جسداً هشاً مُعرَّضاً للتلف

بسرعة؟! فكرتُ في هؤلاء المبدعين الذين بلغ إبداعهم ذروته وهم على شفير الموت. هل يشحذ المرض الإبداع أحياناً، فيجد المبدع نفسه في تحدٍّ مع الموت، ويقاوم المرض ويؤكد حقّه بالحياة بأن يُبدع ذروة أعماله الفنية. تكشَّفَتْ لي حقيقة طالما عذبتني، فالإنسان لا يملك وسيلة لتفادي الألم، لكنه يستطيع تجاوزه بأفضل طريقة لتجاوز المصائب: القبول بها.

أدركتُ أن في قبول الأمر الواقع مهما كان قاسياً وصعباً، قوةً رهيبة. يجب أن أبحث عن طريقة لمساعدة آمال في تجاوز محنتها لقبول واقعها الجديد وتجاهله في آن. تُرى، لو كنتُ مكانها فكيف كنتُ أتصرف؟! أكان يمكن أن أنتحر؟ سؤال لم أعرف كيف أجيب عنه!

مرّ يومان لم أزر فيهما آمال، لكن صورتها لم تفارق خيالي، وتوجع كل عَصَبٍ في جسدي. كنتُ أخشى زيارتها من دون أن أحضّر ما يمكن أن يخفّف عنها، فأنا أرغب بكل حماسة وصدق في بث شيء من الأمل في نفس تلك المرأة المهشَّمة. أعرف أن مساعيَ شبه مستحيلة، لكني أردتُ تحدّي نفسي، فهل أقدر على أن أخلق أملاً لدى امرأة تعاني من السرطان أم سأفشل؟!

لم أشعر يوماً بأني قوية مثل تلك المرحلة من حياتي. ربما تكمن قوتي لأني أشحذ أملاً جديداً في روح هدّها المرض.

ذهبتُ بعد أربعة أيام إلى زيارة آمال وقلبي يخفق كما لو أنني مُقْدِمة على امتحان. كانت أختها إلى جانبها. قدمتني آمال إليها كصديقة. قبلتها بمحبة صادقة وعبّرت عن سروري بتورد وجنتيها مقارنة بحالتها منذ أيام. شكرتني على الورد الأبيض. فتحتُ حقيبتي وقدمتُ إليها مجموعة أشرطة لعازفي عود وكمان مشهورين.

قلت لها: ليس ما يجعل الروح تحلق مثل الموسيقى.

شكرتني وهي تقول إنها لا تشعر برغبة في أي شيء.

شعرت أختها بأني أرغب بالانفراد بآمال، فخرجت من الغرفة. أحسستُ بأن روحي وروح آمال تتلاقيان في فضاء بعيد.

سألتها إن كانت أحست بألم في الأيام الماضية...

هزت رأسها وهي تقول:

ـ كان ألماً لا يُطاق، لم تنفع معه المُسكنات.

تعيش آمال في غمامة من الكآبة القاتلة. كل الكلام الذي حضّرته لأقوله لها تبخر.

وجدتني أقول لها:

ـ تبدين أحسن حالاً.

ابتسمت مستخفة بكلامي. لعلها أرادت أن تُفهمني أنها لن تنخدع بكلامي المعسول. حدثتها عن مرضي

وشرحت لها إيماني العميق بأن باستطاعة الإنسان أن يقهر المرض.

كانت ترنو إليّ بعينين سوداوين متعَبَتين وفمها مطبق. صمتها طويل طويل له صدى صراخ مكتوم. تابعتُ كلامي مستشهدة بعباقرة بلغ إبداعهم ذروته وهم يصارعون المرض: المهم أن تبقى الروح صامدة يا آمال.

لم تنبس بكلمة، ولم يبد عليها أي تأثر بكلامي. كانت في عزلة تامة. فكرتُ في أن الموت يبدأ بالعزلة، فالميت وحيد.

سكتُّ كي أشجعها على الكلام، لكن ظل صمتها الثقيل مخيماً بيننا.

سألتها إن كانت ترغب في سماع عزف كمان لكنها رفضت. قالت إنها لا تتحمل الأصوات لأن ثمة ضجيجاً مستمراً داخل رأسها.

قلتُ محاولةً خلق شيء من المرح:

ـ أترهقين رأسك الجميل بالأفكار؟

رفعت يدها استنكاراً لكلامي، وقالت:

ـ أتعتقدين أني قادرة على التفكير؟ تعتقد أختي المسكينة أني أتأمل في الدنيا لأني صامتة دوماً. أنا لا قدرة لي على التأمل أو التفكير لأن عقلي غارق في الضباب.

ـ هذا طبيعي يا آمال، ستستعيدين نشاطك الذهني قريباً.

أشاحت بوجهها عني. قالت وهي تتأمل لوحة معلقة على الحائط:

ـ لا تظني أن كلامك الجميل يُخفي شفقتك عليّ...

ـ تلعثمتُ قائلة: أنا أشفق عليك؟!

ـ أوَتعتقدين أني مغفلة! انظري إلى نظراتك في المرآة. إنها تفيض بحزن موجع عليّ.

ـ لا أنكر أني حزينة لما أصابك، لكني واثقة من أنها محنة وستزول كلياً.

ـ كيف تثقين بذلك؟ لعلك تملكين قدرات تنبُئية؟!

ـ لنقل ذلك.

بدت راغبة في الكلام فجأة. قالت كمن تناجي نفسها:

ـ أتعرفين يا مريم... أحس بالحياة تمر بجانبي كشاب جميل يتجاوزني من دون أن يلتفت إليّ. ياه... كم هي ساحرة الحياة! وجدتني اليوم صباحاً أرهف السمع لأنصت إلى صوت الهواء اللطيف، وبقيت ساعات مفتونة بصوته العذب الذي لا يسمعه الأصحاء. أحسسته موسيقى الأبدية.

ـ ما أجمل كلامك يا آمال. إنك تزيدنني قناعة بأن المرض يزيدنا رهافة.

تابعتْ من دون أن تهتم لما قلته، ثم صارت تستوقفني كلمات بسيطة عادية مثل «صباح الخير»، «ياه، ما أحلى هذه الكلمة يا مريم». كم هي مستحيلة بالنسبة إلي، يقولها الناس بآلية من دون أن ينتبهوا إلى معناها الرائع. أشعر بأنه لا يحق لي سماع هذه الكلمات لأن صباحي ليس بخير.

ـ سيصير بخير قريباً.

ـ لا أظن. فروحي ليس لها غد. أنا أعيش ذُعر الحاضر. إن ما حصل لي أفظع من أن أستوعبه. لقد قُلبت حياتي رأساً على عقب.

ـ لقد مررت بحالتك، وشعرتُ مثلك تماماً، لكن صدقيني، كل شيء موقت وسوف يزول.

رقّ صوتها وهي تقول:

ـ لقد مرّت حياتي مثل حلم.

ـ أظن أن كل إنسان يشعر بأن حياته مرّت مثل حلم.

أخذت تضحك ضحكاً عصبياً وبدا الضحك يؤلمها. وضعت يديها على صدرها وانحنت متألمة حتى غدا ضحكها هستيرياً. أرادت أن تتكلم لكنها عجزت. حاولتُ كبح دهشتي إلى أن تمكنت أخيراً من السيطرة على نفسها والكلام.

ـ اسمعي يا مريم، أنتِ طيبة القلب حقاً، لكن كلامك يُضحكني، ليس لأني أجده سخيفاً، بل على العكس

فأنتِ متحدثة لبقة وذكية، لكنه لن يفيدني بشيء. لقد عُطبت تماماً، عُطِب جسدي وعُطبت روحي والأفضل أن أموت. أنا أكره العذاب فهو إهانة للإنسان، والانتحار في مثل حالتي ليس ضعفاً، ولا هرباً، بل إنه حرية اختيار. أظنك تعرفين أيضاً أن كثيراً من العظماء انتحروا.

ـ أعرف، لكن حياة كل إنسان فيها الحلو وفيها المر، وأنتِ لا تزالين شابة. ومن يدري، فقد تتجاوزين هذه المحنة وتعيشين حياة سعيدة.

ابتسمت ساخرة:

ـ حين كنتُ متفجرة بالصحة والشباب ضاعت مني السعادة، فكيف ألقاها الآن بعد أن عُطبت عطباً فظيعاً.

ـ ربما سيكون...

قاطعتني متحمسة: هل تعرفين أني أستاذة رياضيات. أنا لا أؤمن بكلامك، فهو بعيد عن المنطق.

شعرتُ بأني محاصَرة، ولم أجد من مخرج سوى أن أحكي لها كيف واجهتُ جلسات علاجي الكيميائي، وكيف كنتُ أستحضر في كل جلسة أحد الرجال الذين مروا بحياتي.

التمعت عيناها وبدا السرور على وجهها، قالت:

ـ يا لها من فكرة مدهشة! كيف خطرت لك؟!

قلتُ لها وقد أسعدني أن حواراً حقيقياً يتدفق بيننا، فلم أعد مضطرة إلى تحضير ما سأقوله:

ـ لا أعرف، تأتيك أحياناً أفكار لا تعرفين من أين؟ لكن لو تعرفين كم أسعدتني تلك الذكريات!

ـ حتى الذكريات المؤلمة أسعدتك؟

ـ الزمن يشذّب كل الذكريات. لقد أسعدتني تلك الذكريات ليس بمعنى السعادة الصريح، بل بمعنى أني أعدث تقييم حياتي. كم من رجال أحببتهم كثيراً وصرث أحس بنفور منهم، بل باحتقار أيضاً. وكم من رجال لم أستطع أن أحبهم وها أنا أندم عليهم الآن وآسف لأني أضعث فرصاً ممتازة. لكني راضية على المحصلة النهائية، فقد عشث حياتي وشكلتني التجارب.

استمتعت آمال ببعض قصصي عن رجال حياتي. يبدو أن حديثي حرّض لديها أشجاناً كثيرة. سألتني بصوت رقيق وشاحب:

ـ كم رجلاً خانك؟

ولم تنتظر جوابي. طفحت عيناها بالدموع، رطبت شفتيها بلسانها قائلة:

ـ كلهم خونة...

طلبت ماءً وقالت إن ذراعيها يؤلمانها على نحو فظيع. طمأنتها إلى أن ألم الذراعين عادي بعد العملية بسبب حدوث ركود في الدوران الوريدي واللمفاوي. رغبث في التقيؤ بعد شرب الماء. بصقت في وعاء إلى

جانب سريرها ثم بدأت تنتحب بصوتٍ نحيل وهي تردد:

ـ أريد أن أموت، أريد أن أموت.

مسدتْ شعرها بحنان، فأسندت رأسها إلى كتفي وبدأ الكلام يتدفق منها كما لو أنها تهذي:

ـ لو تعرفين يا مريم كم أحببته. كنا نعيش كعصفورين حرّين طليقين. تصوري كنا نُهدي بعضنا عصافير. كان كلانا مولعاً بتلك الكائنات الرقيقة الحرة. أول هدية تلقيتها منه «عاشق ومعشوق»، سميناهما آمال وجميل، وقلنا سيستمر الحب بيننا ما دام العاشق والمعشوق يغردان بسعادة كل يوم. هل تصدقين أن العصفورة ماتت يوم شخّصوا لي السرطان. أطلقنا بعد موتها سراح العصفور لكننا وجدناه ميتاً على الشرفة بعد أسبوع من وفاة حبيبته. العصافير مخلصة أكثر من البشر، فالرجل الذي عبدته تخلى عني بعد مرضي. يريد أنثى صحيحة ذات ثديين جميلين... امرأة ذات ثديين صحيحين.

صار نحيبها مؤلماً وعنيفاً، ولم أعد أميّز كلماتها إلا بصعوبة... ثم تابعت:

ـ لكني كنتُ سأبقى إلى جانبه لو أنه كان هو المريض. ألم أقل لك كلهم خونة.

ـ لا تفكري فيه يا آمال.

- وفي من أفكر؟ قولي لي في من أفكر؟ وبماذا أفكر؟ بالمستقبل الرائع الذي ينتظرني!

وجدتني أقول لها: فكّري في العصافير.

ابتسمَتْ وتنهدت بعمق:

- برافو عليك، برافو عليك!

دخلت الممرضة وزرقتها إبرة مهدئة ومنومة في آن. بقيت إلى جانب آمال أكفكف دموعها وأختلق لها قصصاً عن رجال وهميين وحقيقيين، أدّعي أني عرفتهم إلى أن استسلمت للنوم.

أخبرني صديقي الطبيب أن حالة آمال غير مطمئنة، ولا يتوقع أن تعيش أكثر من ستة أشهر لأن السرطان انتقل إلى رئتيها وعظامها.

خرجت آمال من المشفى شابة معطوبة الروح والجسد. لم يكن من عادتي أن أحفظ تواريخ لحوادث في حياتي، لكن انحفر يوم خروج آمال بذاكرتي كجرح لا يندمل.

كم آلمها أنها أعفيت من وضع أسئلة الامتحان للطلاب. زارها معظم طلابها وملأت باقات الورد بيت أهلها الذي عادت تعيش فيه بعد طلاقها. صارحها الأطباء بأن السرطان منتشر في جسدها، وأن هناك خطة علاج طويلة وشاقة للسيطرة على المرض.

عجزتُ لأسابيع عديدة عن حل لغز تلك المرأة المدهشة. كانت تواجه محنتها بحماسة تبدو لي متهورة أو في غير مكانها. ثم فهمتُ حين سمحت لي بالتقرب من عالمها الداخلي أنها تعاني اضطراباً نفسياً شديداً. رغبت آمال في أن تكسو روحها ثوباً مخادعاً. رغبت بصدق في ألا يقتلها الخوف من ترقّب الأيام القادمة. كنتُ أعرف أنها لا تحتاج إلى كلمات تقليدية، وحين ألتقيها كنا نتحدث عن كل شيء ما عدا مرضها. لم أفهم سر هذا الحصار القوي الذي تفرضه على نفسها بألا تبوح بمكنونات روحها، وأحس بها كيف تمور في أعماقها مشاعرُ جياشة تلجمها بقوة. يؤلمني هذا القنوط الذي تأسر روحها فيه. ما أتعسها امرأةً غدرت بها الحياة باكراً. كانت تذبل أمامي كوردة قبل أوانها.

أهديتها عصفورة حين خرجت من المشفى. رافقني يومها لؤي إلى دكان لبيع الطيور. اخترنا لها أجمل عصفورة وسميناها آمال. أحسستُ حين قدّمت إليها العصفورة، بأن أروع شيء في الحياة أن نعطي، وأن نُدخل شيئاً من الفرح إلى قلوب من حولنا. دمعت عينا آمال تأثراً. تظاهرتُ بأني لم ألمح طعنة الألم التي أحستها وهي تتذكر زوجها يوم قدّم إليها هدية «عاشق ومعشوق».

ضحكت وهي تسمع تغريد العصفورة. تنتابني حين تضحك آمال رغبةٌ عاصفة في البكاء، إذ يصلني للحال شعورها بأنها تهجر بلوعة من الأسى مُتَع الحياة، فتبدو ضحكتها أو ابتسامتها كنهاية مفجعة بسخريتها؛ كتلك الابتسامة الأسيّة التي نرسمها على وجوهنا ونحن ننظر النظرة الأخيرة عند فراق إنسان عزيز.

جعلتني آمال أشعر بروعة الربيع هذا العام، فحين نذهب مشاوير طويلة تلفت نظري روعة الأشجار المزهرة، وعطور الطبيعة. قالت لي ذات عصر ونحن نرنو إلى غروب الشمس في مقهى بحري:

ـ أتعرفين يا مريم، يفتنني سحر الحياة.

حين تنفلتُ منها جمل من هذا النوع، أنتظر أن تتدفق بالكلام انتظاراً أشبه بالابتهال، لكنها تلجم نفسها وتلزم الصمت. أفهم ما يعذب آمال، إنها بحاجة إلى الإحساس بالعدالة. أكثر ما يعذب روحها إحساسها بالظلم وقسوة الحياة. لماذا يمرض البعض ويذلهم المرض؟ بينما آخرون يتدفقون بالصحة؟! كيف يمكن القبول بتناقضات الحياة.

كانت تمر بفترات من اليأس الكثيف. ترفض العلاج. ترجوني أمها أن أقنعها بأن تأخذ الأدوية. ولم أكن أزعل منها حين تسخر مني وتقصيني عن عالمها وتقول لي: لا

تتدخلي في أموري الشخصية. لكني أنجح بمعجزة في أن أجعلها تعدل عن قرارها وتعود إلى تناول الدواء.

صرخت في وجهي ذات مرة:

- لِمَ عليّ إكمال علاج سينتهي بالموت، أتشعرين بي أنتِ؟

ثم احتقنت عيناها بالدمع وتحوَّل صوتها إلى صراخ:

- هل تعرفين بمَا أشعر، فأنا موجودة وغير موجودة، أعيش ولا أعيش، أؤمن ولا أؤمن، أرى ولا أرى. سبحانك يا رب، من غرسكِ في قلب حياتي يا مريم لتقولي لي افعلي كذا!

لم أكن أزعل أبداً من كلام آمال، بل أحزن لحالها. يُجبرني شيء غامض على أن ألحق بتلك الإنسانة وأقتفي أثرها. كأن شيئاً يرغمني على ذلك. أشعر حين أكون معها بأنني أصير ذاتي، وأنها تعطيني سر المعرفة الذي أدركته متأخرة، في الإصغاء إلى القلب وليس إلى العقل. علمتني آمال أنه لا يوجد شفاء لأزمتنا الوجودية إلا بالحب والعطاء.

أريد أن أحقق معجزة، أن أدخل شيئاً من الفرح إلى قلب تلك الشابة التي هدها الحزن. لا يمكنني وصف نُبل ندمها حين يفارقها الاكتئاب. تتصل بي بصوت يرشح بالأسف وتدعوني إلى الخروج وتصير روحها ناعمة كالحرير. يرق صوتها وتسألني ما الذي يضطرني إلى

تحمل صراخها وإهاناتها، فأؤكد لها أني لا يمكن أن أزعل منها، لأني أدرك روعة روحها ولأنها صديقة غالية.

وعلى الرغم من لحظات الصفاء الطويلة التي يبدو أن آمال تعيشها، إلا أن عدم الاستقرار كان يغلّفني دوماً حين أتأمل حياتها. فذات يوم ـ وكانت بأفضل حالاتها ـ وكان مزاجها مرتفعاً وراغبة في الحديث، كنا نجلس في مقهى بحري نشرب البيرة ونأكل تبولة ويتدفق الحديث منها سلساً. كانت تحكي لي قصصاً مسلية مرت معها أثناء التدريس، وفجأة أثار سرب عصافير غضبها وحزنها في آن. فاضت عيناها بالدموع وهي تحدق في سرب العصافير بنظرات حارقة متألمة. لم أفهم سر وجعها، وأي ذكريات موجعة حرك هذا السرب في نفسها؟! مددتُ لها منديلاً كي تمسح دموعها، خطفته وأخفت فيه وجهها. كانت تلك من اللحظات النادرة التي فشلت في لجم رغبتها في البوح. وكمن تناجي نفسها أو البحر، قالت بصوت يفيض بالقهر:

ـ ياه، أظن أني أكرهه، لكن كلما كرهته أكثر أدرك كم أشتاق إليه. يخطر لي أحياناً لو أتعقَّب خطواته. أشتاق إلى أن أرى وجهه، أن أودعه. أشتاق إلى قوامه الجميل، ورائحته التي تشبه رائحة الصنوبر... الكلب النذل...

يختنق صوتها بالدموع... تأخذ فاصلاً من الصمت ثم تستأنف بوحها:

ـ أتعرفين لماذا أحببتك يا مريم، لأننا ـ أنت وأنا ـ نملك الطبيعة نفسها، فنحن من صنف البشر الذين يشكل القلب مركز حياتهم. قلبي المسكين محاط بالسرطان، فكيف سيفرح؟! كيف يا مريم؟! أتسمعين أصوات الحياة؟ أتعرفين، صرتُ بعد مرضي أتنبه إلى الأصوات. يفتنني صوت السيارات البعيدة؛ هدير لطيف يدل على وجود الحياة. حتى لعلعة المذياع التي كنتُ أكرهها صرتُ أنصت إليها بافتتان. لكن أتعرفين يا مريم، كل تلك الأصوات لها صدى مؤلم، لها صدى حزني.

ياه، يا مريم، كيف أصف لك الحزن الذي أشعر به. كاذب كل من يدّعي أنه قادر على وصف الحزن، فالحزن لا يوصف. الحزن هو أن تشعري بأنك بعيدة عن حياتك، وأن تنظري إلى الحب والموت فتشعري كم هما متماهيان ومتشابهان.

ترى، هل عاقبتني الحياة لأني طمعتُ بها كثيراً؟ أي سخف هذا؟! فمنذ سنوات قليلة كنتُ أضم فرح العالم بين ذراعيَّ وأرسم خططاً لا يكفيها عمرٌ واحد... كنتُ عاشقة ومعشوقة، ناجحة، متدفقة حيويةً وصحةً. والآن ضاع كل شي، والمطلوب مني أن أمثّل أمام أهلي وأمامك أن حياتي تسير على ما يرام. أنا وأنتِ ممثلتان فاشلتان على مسرح الحياة.

تنتابني لحظات هستيرية حين أرى آمال في هذه الحالة. أي جنون دفعني إلى الضحك ورفع كأس البيرة ودفع كأس آمال بين يديها وأنا أقول:

ـ تعالي نشرب كأس الفشل.

همدتْ فجأة، كأن تياراً كهربائياً انقطع عنها. ضحكت:

ـ فلنشرب كأس الفشل!

مسحتْ دموعها وأعادت قناع الهدوء إلى وجهها ورَنَتْ بنظرة طويلة إلى سرب العصافير الذي كان السبب في نوبة الألم والبوح التي عصفت بروحها.

التمعت عيناها وسألتني:

ـ مريم، ألا تعتقدين أن البشر يخافون أن يحزروا الحقيقة؟

سألتها: أي حقيقة؟

ـ حقيقة أنفسهم

وافقتها من دون أن أفهم قصدها تماماً.

أشعر حين ألتقي آمال بأن لحياتي معنى. أكثر ما يهمني هو أن تشعر بقليل من الدفء في حياتها، أن تثرثر، أما طبيعة تلك الثرثرة فلا تهمني. فقد كانت في أحيان كثيرة تقول أفكاراً لا أوافقها عليها، لكني لا أناقشها بها، بل أتركها تتدفق. المهم أن تتكلم، وأن تشعر بالمشاركة. الكلام أروع وسيلة للتواصل بين البشر، وكلما تحدثَتْ أكثر كنت أشعر بالنصر. ولطالما سألت

نفسي: النصر على أي شيء، ولم أكن أعرف جواباً، لكني أخمن أني أنتصر على موت آمال الروحي.

قدمت العصفورة إليها عزاءً لم أتوقعه. لا أفهم فلسفة البشر الذين يحبّون تربية الحيوانات، فلم يخطر لي يوماً أن أربي حيواناً.

تعيش آمال متعكزة على المسكنات، فآلام عظامها لا ترحم، وحين ألتقيها ونظراتها زائغة أعرف أنها قضت ليلة مسهدة من الألم.

كنت أخشى أن تعاود آمال الانتحار. لكن صديقي الطبيب استبعد الفكرة، لأن آمال حاولت الانتحار حين كانت في مرحلة الصدمة، أما الآن فقد قبلت بالأمر الواقع. لم يقنعني كلامه، فكيف أفسر تلك الساعات الطويلة من الصمت الذي تُغرق فيه آمال روحها؛ صمت يجعل حزنها أكثر كثافة. كيف أفسر نظرة الخواء في عينيها والقبلات المربكة التي تفاجئني بها أحياناً كأنها تودعني. أنا واثقة من أن آمال تتمنى في تلك اللحظات لو تمتلك شجاعة الانتحار. لا أنسى يوم قالت لي إنها تتمنى لو يكون قلبها من حجر.

انشغلتُ مع لؤي بالتحضير لامتحان الشهادة الثانوية، أردتُ أن أدعمه بمحبتي، لكن زياراته إليّ قلّت لأنه معتاد على الدراسة في بيت والده. كم أتمنى لو يملأ بيتي بفوضاه وكتبه...

كانت آمال تتصل دوماً لتطمئن على فحص لؤي، وعرضت أن تساعده في مادة الرياضيات، لكن لدى لؤي أستاذه الخاص. ثم تدهورت حالتها بسرعة، فكانت تمضي أياماً غارقة في سبات المهدئات. أخبرتني أختها أنها تصرخ في الليل من آلام عظامها، وصارت مدمنة على حُقَن المورفين.

تنتابني حين ألتقيها رعشة تأثر. أشعر كيف يرشح اليأس من روحها ويستحوذ على جسدها. قلّ كلامها وصار أقرب إلى الحِكَم. قالت لي ذات مرة:

- كم هو رائع أن ينظر كل واحد منا إلى الآخر. كم أحب وجهك الرحوم.

واضح أنها تعتصم بالصمت لأنها لو تركت نفسها تتكلم فستنهار من ثقل آلامها. لا يزال وجهها مُعافىً وجميلاً برغم الإعياء المرتشح منه وبرغم نظرتها الشاردة في اللاشيء. إنها تعيش أيامها القليلة المتبقية لها من ذكرياتها، فهي منهل الطاقة الذي تشرب منه حتى آخر لحظة في حياتها. تنتابها نوبات مفاجئة من النهم للحياة، فتتزين وتتعطر وترغب في الخروج، وتثرثر متنقلة من موضوع إلى موضوع من دون رابط بينهما، ثم تنطفئ وتعود إلى العزلة وتنزوي في حالة من عدم الاكتراث كأنها تريد أن تتخذ من اللامبالاة عقيدة لها.

كلما مرّ الوقت زاد صمتها. تبدو منخطفة نحو عالم آخر. ألححت عليها ذات يوم كي تقول أي شيء. قالت لي:

- يجذبني صوت الفراغ، صوت العدم. صوت ساحر، إنه الموت. هل تعرفين أن للموت وجهاً، إنه ينظر إلي.

كنتُ أتقبل كل تحولات آمال بصبر، لكن لم تكن لي طاقة على احتمال صحوات الحنين التي تنتابها كنوباتٍ مفاجئة، فتبدأ بالانتحاب متذكرة حوادث كثيرة في حياتها. كانت تصيبها حالة من هيجان الذاكرة، وتذيبها كما لو أنها امرأة من ملح. وتنتحب بكل طاقة روحها وحيدة مع كأس ويسكي ترشفه ببطء ممتزجاً بدموعها.

لم أكن أتحمل رؤيتها منكسرة إلى هذا الحد ووحيدة ومخذولة. أبكي بصمت من دون أن تلحظ دموعي. ما أصعب نوبات الحنين العاصفة إلى الحياة. يغمرني إحساس بالعبث، لكن هذا الإحساس سرعان ما يتبدد، فأشعر بأني أتّحد مع يقين كبير وحقيقة لا لبس فيها. أين ستذهب روح آمال؟ لا أصدق أن مصيرها العدم.

ماتت آمال من دون أن يتاح لها الوقت لتودع أحداً. كنت أتوقع تلك النهاية وأوقن أن الموت أرحم لها، لكن خبر وفاتها زلزلني. كم رغبتُ في أن أعرف كيف أمضت ساعاتها الأخيرة... ترى ما آخر فكرة عبرت ذهنها؟!

أحسستُ بالذنب لأني لم أكن إلى جانبها. قالت لي أمها إنها اقتربت من قفص العصفورة وقالت لها: تعالي نغنّ.

هل أرادت أن تنشد نشيد الحياة لآخر مرة؟

آمال نائمة نوماً عميقاً. وجهها الجميل بلون الشمع، وشبح ابتسامة على شفتيها. لا تزال أحلامها ترفرف حول رأسها كفراشات ملونة. ارتاحت آمال من الألم. استأذنتْ أهلها في أن آخذ العصفورة.

علّقت أختها قائلة:

ـ إنها لكِ، فأنت من أحضرتها لآمال كبشارة للحياة. لقد أودعت آمالُ هذه العصفورةَ كثيراً من حزنها وأحلامها. يمكنك أن تأخذي العصفورة وتشاركيها ذكرياتها.

* * *

«هكذا الحياة، فيها الألم وفيها الفرح».

عزاني صديقي الطبيب بهذه الكلمات. واستأنف كلامه:

ـ لكل قَدَره في هذه الحياة. كم من النساء لاقين مصير آمال، وكم منهن نجون مثلك أيتها الإنسانة الرقيقة.

التمعت فجأة الفكرة التي تؤرقني من دون أن أعرف تماماً ما هي. دبّت فيّ حماسة غريبة. قلتُ له وأنا أبذل جهداً لأسيطر على صوتي الهادر:

ـ اسمع، أريد أن أتعرف بكل النساء اللاتي تجري لهن عمليات استئصال ثدي.

ضحك بسخرية لم يحاول إخفاءها:

ـ لعلك تجربين علاجاً جديداً؟

وافقته:

ـ أجل. ربما لدي علاج من نوع آخر، غير الأشعة، وغير العلاج الكيميائي

ـ هلا شرحته لي؟

ـ لنقل إنه العلاج بالحب.

بدا عليه الاستياء. نظر إليّ بغرابة نظرةً أقرب إلى الشفقة. لعله يريد أن يُشعرني بسخف مشروعي وبأنه يشك في قدراتي العقلية، أو لعله يريد أن يذكّرني بأنه هو أولى الناس بالعلاج بالحب، الذي أمنعه عنه وأعرضه مجاناً على مرضاه.

لا يهمني كيف يفكر فيَّ، حتى ولو كان يرى جهودي سخيفة وغير مجدية. أحس بخيبة أمله لأنه يتمنى لو أبذل له وحده طاقتي على الحب والعطاء.

بيننا شرخ أحسه الآن بوضوح، لكني أشعر بسعادة حادة وكثيفة؛ تلك السعادة التي تمدنا بها تجاربنا الغنية... ألم نُوجَد في الحياة كي نجرب؟ كنت كياناً كله قلب، قلب كبير خافق بالحب ويمكنني أن أنثر شيئاً من الرجاء والفرح في قلوب حزينة... ما أسعد من يعطي...

صعدتُ الدرج لاهثة، حملت القفص فأجفلت العصفورة النائمة وأصدرت زقزقة. خرجت إلى الشرفة وفتحت باب القفص. سمعت رفيف روح آمال في خفق الجناحين الملونين بألوان بديعة. طارت آمال عالياً في سماء قصيّة لا يحدها عائق.

انتهت

القلب ذهنٌ
يحوم حول معنىً مستحيل
أبو الحيّان التوحيدي

# حول الكتاب

## نبذة عن الكتاب

تصاب آمال بسرطان الثدي. يُستأصل ثديها. وتروح تتذكّر، خلال جلسات العلاج، مراحل من حياتها، تتذكّر الأيدي التي لامست ثديها، وتسترجع صوراً من علاقاتها مع رجالٍ مختلفين.

يعاتبني الثدي المسكين ويهمس لي: «كيف يطاوعك قلبك على أن تقطعيني وترميني خارجك!!» استفاق بهاؤه وأشعرني بقوامه الصلب ورشاقته. تندّت راحة يدي من دموعه، وبمشقة قال لي: «احتفظي بذاكرتي لو سمحتِ». ضغطته بقوة محاوِلةً تحسّس الكتلة السرطانية العميقة، سألته بدهشة: «هل تملك ذاكرة؟» ضحك بصوت واهن وهو يجيب كأنه يعطيني حكمة هامة: «ذاكرة المرأة في نهدها».

## قيل في الكتاب

«أدب هيفاء بيطار عذب ينفذ برهافة وحدّة إلى صميم الحياة العربية والإنسانية من وجهة نظر جريئة ومقتدرة... لا أظن أنني قرأت أعمالاً لأديبة تصوّر بجرأة وصدق دخائل الأنثى العربية الآن كما قرأت في أدب هيفاء بيطار». الروائي المصري جمال الغيطان

نبذة عن المؤلفة

هيفاء بيطار روائية وقاصّة سورية.

كتب أخرى للمؤلفة

«فضاء كالقفص»، «كومبارس»، «SMS»

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

# امرأة من هذا العصر

رواية

## هيفاء بيطار

ISBN 978-1-85516-857-2